



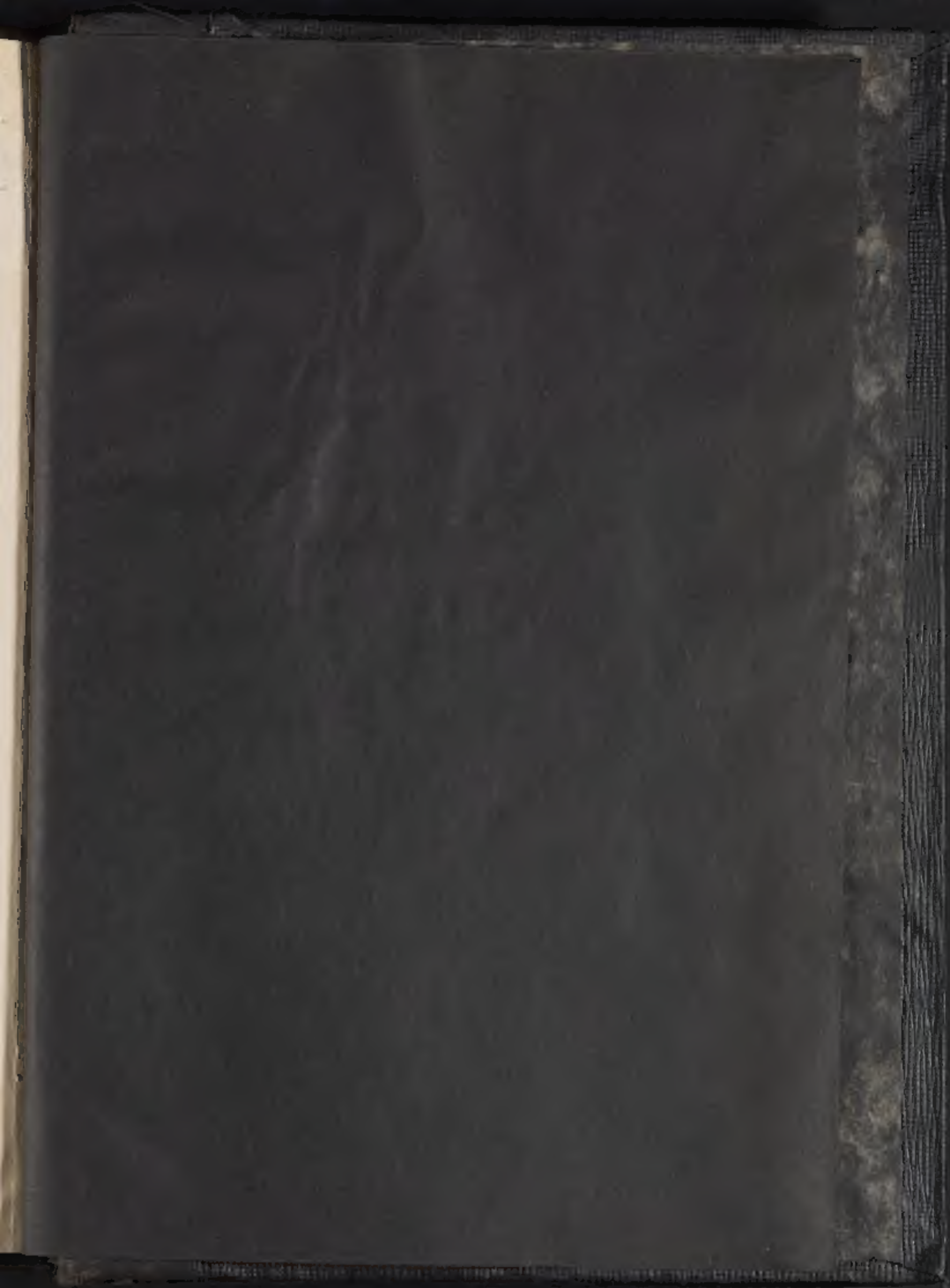
3 8534 01144 9539

Library of
The American University
at Cairo

Depp is the man that
findeth wisdom and
the man that getteth
understanding + + +

PROVERBS 3-13

Ex libris datis
in memoriam
James Polk Mc Kinney
Pittsburgh, Pennsylvania



03-82308
part 21-5

الشَّرْقُ الْأَوْسَطُ

فِي

مُؤَلَّفَاتِ الْأَمْرِيكِيِّينَ

نشر هذا الكتاب بالاشتراك

مع

مؤسسة فرانكلين المساهمة للطباعة والنشر

نيويورك — القاهرة

الشرق الأوسط

في

مؤلفات الأمريكيين

المؤلفون

DS

44

S 55

1953

C. 1

رشارد إنجهاوزن

فيلكس بوشنسكي

روجر سولتو

جورج سارتون

كوينسي رايت

وليم دياموند

أشرف على جمعه وتحريره

مجيد خدوري

راجعه

محمد مصطفى زيادة

ملشزم الطبع والنشر

مكتبة الأنجلو المصرية

١٦٥ شارع محمد فريد (عمارة الزين سابقا)

القاهرة ١٩٥٣

OCLC
60498945

B12970426
1461974X

309.156

هذه الترجمة إلى اللغة العربية
مرخص بها

Sa77m

e.1462

907
س ج . ش

١٥

مجلت مؤسسة فرانكلين المساهمة للطباعة والنشر (نيويورك - القاهرة)

على ترخيص خاص بترجمة ونشر فصول هذا الكتاب من المؤلفين والناشرين.

تشمل حقوق الطبع والنشر مقالتي ريتشارد إنجبراونز المسجلة سنة ١٩٥١.

(Copyright, 1951, Princeton Univ. Press)

ومقالة كوينسي رابيت، وهي منقحة في سنة ١٩٥٣.

(Copyright 1942, Univ. of Chicago Press)

المترجمون :

عمر فروخ

محمد مصطفى زيادة

جعفر خياط

31524

تعريف بالمؤلفين والمترجمين

من هم ؟

يرغب القراء أن يعرفوا شيئا عن مؤلفي الكتب التي يقرأونها ،
وتحقيقا لهذه الرغبة تنشر مؤسسة فرانكلين المساهمة للطباعة والنشر
(نيويورك — القاهرة) تعريفا بجميع الذين شاركوها في اخراج هذا
الكتاب .

المؤلفون

جورج سارتون

(George Sarton)

أستاذ تاريخ العلوم بجامعة هارفارد بالولايات المتحدة الأمريكية ،
وهو من الثقات في هذه المادة ، وفيها ألف كتباً عديدة . ونشر سارتون
أبحاثاً مفردة في فلسفة العلوم والفنون الأسبوعية ، والثقافة العربية ، في مجلة
ايزيس التي تعد أهم مجلة لتاريخ العلوم في الولايات المتحدة الأمريكية
وأوروبا . ونال سارتون جوائز ودرجات علمية كثيرة ، على سبيل التكريم ،
من مختلف الجامعات والجمعيات العلمية في أنحاء العالم .

ريتشارد اتنجهاوزن

(Richard Ettinghausen)

أمين قسم الفن الاسلامي في متحف فرير للفنون (Freer Gallery
of Art) في واشنطن بالولايات المتحدة الأمريكية . وهو كذلك رئيس
تحرير مجلة الفن الشرقي (Ars Orientalis) المخصصة بأبحاث

الفنون الشرقية عامة ، ومؤلف بحث عنوانه الكتب والمجلات المنشورة
باللغات الغربية في شؤون الشرق الأوسط ، في مطبوعات المجلس
الأمريكي للجمعيات العلمية (American Council of Learned Societies).

كوينسي رايت

(Quincey Wright)

أستاذ القانون الدولي بجامعة شيكاغو بالولايات المتحدة الأمريكية ،
ورئيس سابق للجمعية الأمريكية للعلوم السياسية ، واتحاد الأساتذة
الجامعيين الأمريكيين ، والجمعية الدولية للعلوم السياسية . وله
بحوث ومؤلفات عديدة في تاريخ العلاقات الدولية .

فيلكس بوشنسكي ووليم دياموند

(Felix Bochenski and William Diamond)

يعمل كل من هذه المؤلفين الاختصاصيين خبيراً في قسم المعاملات المالية
الخاصة بالشرق الأوسط وآسيا ، في بنك التسليف الدولي في واشنطن ،
بالولايات المتحدة الأمريكية .

روجر سولتو

(Roger Soltau)

مؤلف ومؤرخ معروف في دوائر الجامعة الأمريكية في بيروت
لبنان ، واشتغل بالتدريس في هذه الجامعة سنوات عديدة حتى
وفاته ، سنة ١٩٥١ م .

مجيد خدوري

أستاذ العلوم السياسية بجامعة جونز هوبكنز في واشنطن
بالولايات المتحدة الأمريكية ، ومدير الأبحاث بمعهد الشرق الأوسط
في واشنطن . وهو من الخبراء في شؤون الشرق الأوسط ، وله مؤلفات
في الشريعة الإسلامية ، وفي تاريخ العراق الحديث .

عمر فروخ

أستاذ بكلية المقاصد الإسلامية ببيروت ، وعضو المجمع العلمي
لعربي بدمشق . وجمعية البحوث الإسلامية في بومباي بالباكستان . وله
مؤلفات وبحوث معروفة في الدوائر العلمية بالشرق الأوسط .

محمد مصطفى زيادة

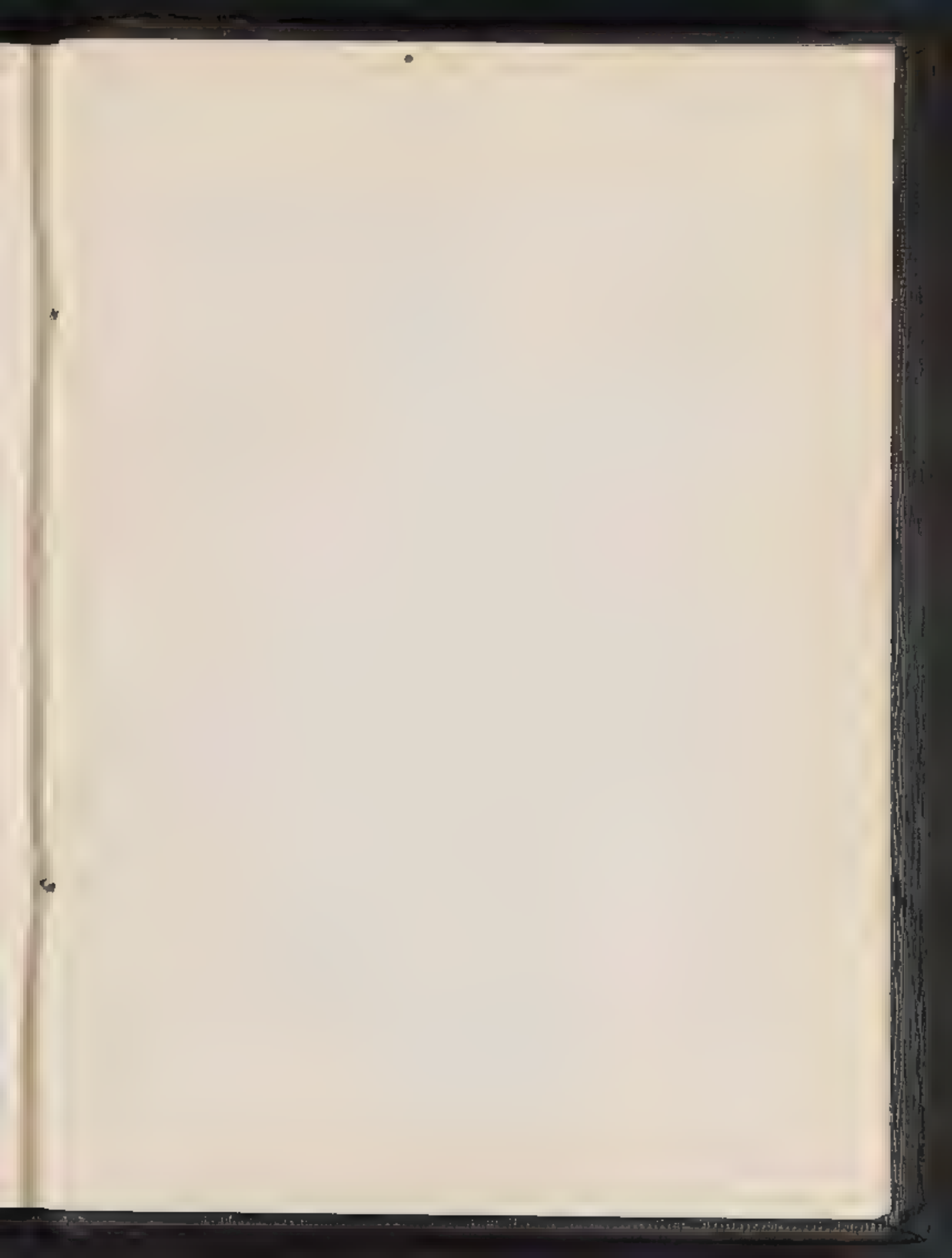
أستاذ تاريخ العصور الوسطى بكلية الآداب بجامعة القاهرة .
ورئيس قسم التاريخ بهذه الجامعة . وله بحوث ومقالات في تاريخ
مصر في العصور الوسطى . وهو الآن أستاذ زائر بجامعة فلوريدا
ويوظف بالولايات المتحدة الأمريكية .

جعفر خياط

مفتش العلوم الاجتماعية بوزارة المعارف العراقية ببغداد ، وهو
مترجم كتاب أربعة قرون من تاريخ العراق .

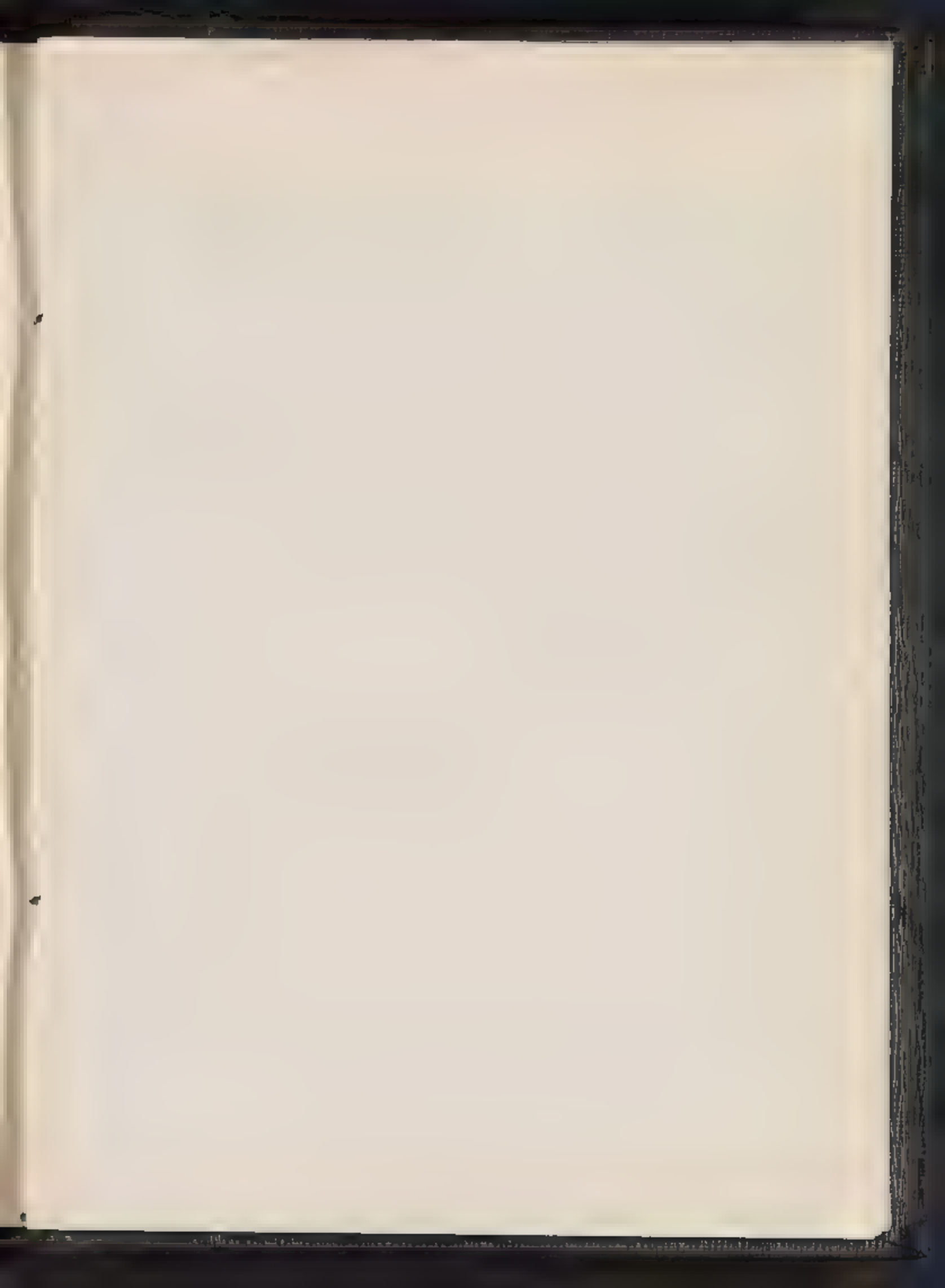
سميد خطاب

مدرس بكلية العلوم التطبيقية بالقاهرة . وهو الذي قام على تصميم
غلاف هذا الكتاب . وقال جائزة فرانكلين لهذا التصميم .



محتويات الكتاب

صفحة		
ع - ٥	مجيد خدوري	تصدير
٦٠-١٠١	حضانة الشرق الأوسط للثقافة الفريسية تأليف جورج سارتون ، وترجمة عمر فروخ	الفصل الأول
١٠٧-١٠٦	الفنون والآثار الإسلامية تأليف رتشارد اتنجهاوزن ، وترجمة محمد مصطفى زيادة	الفصل الثاني
١٤١-١٠٩	السياسة الدولية في الشرق الأوسط تأليف كوينسي رايت ، وترجمة جعفر خياط	الفصل الثالث
١٨٢-١٤١	تطبيق مشاريع التنسي في الشرق الأوسط تأليف فيلكس بوشنسكى ، ووليم دياموند ، وترجمة جعفر خياط	الفصل الرابع
٢٠٢-١٨٣	دروس من الشرق الأوسط تأليف روجر سولتو ، وترجمة عمر فروخ	الفصل الخامس
٢٠٣	قائمة ببعض المؤلفات الأمريكية الخاصة بالشرق الأوسط	



تصدير

عندما أعلنت مؤسسة فرانكلين المساهمة للطباعة والنشر (نيويورك القاهرة) برنامجها الكبير ، وهى مؤسسة ثقافية أمريكية غرضها التعاون الثقافى بين قادة الفكر فى الولايات المتحدة الأمريكية وبلاد العربية ، قام مستر ديتس سمث ، مدير هذه المؤسسة ، برحلة الى الشرق الأوسط ، وزار معظم عواصمه . وتحدث مستر سمث فيما تحدث الى كثير من المعنيين بالتعاون الثقافى بين الشرق والغرب ، لقيام على ترجمه طائفة مخزاة من الحوث والدراسات الأمريكية الخاصة بشئون بلاد العربية ، واخراجها فى كتاب واحد ، لاطلاع القارىء على تناج الفكر الأمريكى فى سهولة وقلة عناء .

ثم طلب الى مستر سمث أن أقوم على جمع مواد هذا الكتاب ، فأخذت شاكرًا فى اختيار بحوث دالة على مختلف الجهود العلمية الخالصة فى ميادين التاريخ والاجتماع ، والاقتصاد والسياسة .

وسوف يلحظ القارىء ، خلو هذا الكتاب من بحث مختار فى التربية والتعليم ، وليس معنى هذا أن الفكر الأمريكى لم ينتج شيئًا فى هذه الناحية الهامة فى شئون الشرق الأوسط ، ولا سيما أن الخبراء الأمريكيين مشهورون ببحوثهم التربوية عامة . وإنما آثرت الاختصار على موضوعات الفصول المذكورة فى صفحة محتويات الكتاب ، نظرا لوجود ترجمة عربية طيبة لكتاب أمريكى فى التربية عنوانه التربية فى الشرق الأوسط العربى ، تأليف رودريك ماثيوز ، أستاذ التربية فى جامعة بنسلفانيا ، ومتى عقراوى ، مدير التعليم العالى بوزارة المعارف العراقية سابقا ، وترجمة أمير بقطر ، أستاذ التربية بالجامعة الأمريكية بالقاهرة ، (المطبعة المصرية ، القاهرة ، ١٩٤٦ م) .

والبحوث التي يراها القراء هنا — في ثوب عربي — مختارة من عدد من الكتب والمجلات الأمريكية الكرى ، ومؤلفوها ممتازون بالدقة والأمانة والعدالة العلمية ، وهم مشكورون لسماحهم أن تقوم مؤسسة فرانكلين على احتصار بعض هذه الفصول وتعديلها ، قبل تقديمها للنقل الى العربية ، رغبة في اخراجها واضحة للقارىء العربي .

والفصل الأول من هذه البحوث من تأليف الدكتور جورج سارتون ، أستاذ تاريخ العلوم بجامعة هارفارد بالولايات المتحدة الأمريكية . وأصل هذا الفصل محاضرة عامة ألقاها المؤلف في واشنطن تحت اشراف مكتبة الكونجرس ومؤسسة جورج كايرو . وهو من ترجمة الدكتور عمر فروخ ، عضو المجمع العلمي العربي بدمشق . وأستاذ بكلية المقاصد الاسلامية ببيروت بلسان . والفصل الثاني دراسة في الفنون والآثار الاسلامية . ومؤلفه أخصائي مشهور هو الدكتور رتشارد انتجهاوزن ، عقب محاضره ألقاها في موضوع الفنون والآثار الاسلامية في مؤتمر ثقافي بجامعة برنستون سنة ١٩٤٧ م ، ثم نشره في الكتاب الشامل لبحوث هذا المؤتمر . وعنوان هذا الكتاب « المجتمع والثقافة في الشرق الأوسط » . ونقل هذا الفصل الى العربية الدكتور محمد مصطفى زيادة ، أستاذ تاريخ العصور الوسطى بكلية الآداب بجامعة القاهرة ، وذلك أثناء اقامته أسافاً زائراً بجامعة فلوريدا ويوطاه بالولايات المتحدة الأمريكية . ويلى هذا فصل موضوعه مستقبل الشرق الأوسط ، ومؤلفه الدكتور كويسى رايت أستاذ القانون الدولي بجامعة شيكاغو . وأصل هذا الفصل محاضرة ألقيت في مؤتمر الشرق الأوسط في جامعة شيكاغو سنة ١٩٤٢ ، ثم نشره المؤلف في السنة التالية في كتاب البحوث الخاصة بذلك المؤتمر . على أن المؤلف رأى أن يضيف الى بحثه بعض المتجددات قبل ترجمته . ثم قام على الرحمة الدكتور جعفر خياط ، وهو مفتش العلوم الاجتماعية بوزارة المعارف العراقية .

والفصل الرابع من هذا الكتاب بحث دقيق في عدة مشروعات اقتصادية بالشرق الأوسط ، على غرار مشروعات وادي التسي بأمريكا ،

وهي المشروعات التي أدى نجاحها في الولايات المتحدة الى تفكير المفكرين في شئون التعمير والاصلاح الزراعى ، في غير أمريكا من البلاد . وهذا الفصل من تأليف اثنين من خبراء بنك التسليف الدولى في واشنطن . وهما الدكتور فيلكس بوشنسكى والدكتور وليم دياموند ، والفصل نفسه مأخوذ من مجلة الشرق الأوسط في واشنطن (المجلد الرابع . ١٩٥٠) . وقام على ترجمة هذا البحث كذلك الأستاذ جعفر حباط .

أما الفصل الخامس وهو الأخير ، فمن تأليف الأستاذ روجر سولتو ، وهو منشور في مجلة التاريخ الانجليزية (العدد ٢٢٥ ، سنة ١٩٤٠ م) . ومؤلف هذا الفصل انجليزى قضى عشر سنوات من حياته في التعليم بالجامعة الأمريكية في بيروت ، وكانت وفاته سنة ١٩٥١ ، وهو مؤرخ معروف لدى خريجي هذه الجامعة ، ومنهم الدكتور عمر فروخ صاحب الترجمة لهذا الفصل .

ونظرا لصعوبة الاتصال بالدكتور عمر فروخ والدكتور جعفر حباط من أجل بعض الأعمال التحضيرية قبل ارسال أصول هذا الكتاب للمطبعة ، ولضرورة القيام على اعداد محتويات الكتاب وتسيفها كلها في صورة واحدة ، قبل الدكتور محمد مصطفى ريادة أن يقوم على ذلك العمل أملا في اخراج الكتاب في صورة نهائية جذيرة للقارىء العربى الجديد ، بجميع بلاد العربية ، واعتمد في عمله على ما أبداه مؤلفو هذه الفصول لمؤسسة فرانكلين أولا من الترحيب بكل تعديل من شأنه أن يوضح محتويات هذا الكتاب للقارىء . وهو ما حرص المترجمون أنفسهم على الأخذ به . (انظر ص ٤) .

وعسى أن تكون هذه الفصول المختارة ، بعد تطويع أسلوبها وتحريرها ، وترجمتها وتسيفها ، حافزة للقارىء العربى أن يستزيد من الاطلاع على بحوث ثقافية أخرى من مؤلفات الغربيين ، لمعرفة صلات الثقافة الاسلامية في الشرق الأوسط بثقافات الأمم المعاصرة لها ، في

مختلف الأجيال الماضية والحاضرة والمستقبلية . ولتقدير ما يستطيع تبادل المعرفة بين الأمم أن يصل اليه من الخير العام المشترك .

واذ وضحت طريقة اختيار هذه الفصول وترجمتها الى العربية لتقارن العربى الحديد . ينبغي أن أشير هنا الى ما طرأ على الفكر الأمريكى من تنور في العصر الحاضر . ذلك أن العلاقات الثقافية بين أمريكا والشرق الأوسط اقتصرت — في زمن مضى — على قس من علماء الآثار القديمة واللغات السامية . وصر آخر من رجال المنظمات التبشيرية . فضلا عن عدد من السائحين الذين لم يروا بلاد الشرق الأوسط الا من نوافذ الفنادق الأوروبية والسيارات الأمريكية . دون أى اهتمام كبير لمعرفة أحوال الشعوب في هذه البلاد . على أن هذا الاعراض الأمريكى القديم لم يكن مقصورا على الشرق الأوسط . بل تعداه وقتذاك الى معظم بلاد العالم . بسبب سياسة العزلة التى أيدها الشعب الأمريكى نفسه . وهى سياسة أدت الى عزلة ثقافية . فصلت بين الأمريكين ومنابع ثقافتهم الأوروبية الأولى . كما فصلت بينهم وبين ثقافات الشعوب الشرقية القديمة والمتوسطة والحديثة . فضلا عن حضارتها .

ثم تغيرت هذه الحال كلها عقب الحرب العالمية الأولى . فبذلت العزلة الأمريكية الى سياسة التعارف والتعاون . بين الأمم جميعا . وازداد هذا التبدل بعد الحرب العالمية الثانية اريادا مطردا جعل أمريكا — حكومة وشعبا — ترغب رغبة دائمة فى التعرف على الشعوب الأوروبية . وغير الأوروبية . وتظهر هذه الرغبة واضحة للمتصلين بمعاهد العلم الأمريكية فى أنحاء العالم . وهى ليست وليده الدوافع السياسية . أو الجشع لاقتصادى . بل ترجع الى شعور أمريكى عام بأن الولايات المتحدة التى أصبحت ذات مركز دولى عظيم ينبغي لها أن تملأ هذا المركز الجديد الفريد . على أساس المعرفة والاحترام المتبادل والتعاون المشترك . وهو أساس الديمقراطية التى بذل الأمريكيون فى سبيلها جهودا داخلية عنيفة . منذ أواخر القرن الثامن عشر الميلادى . ثم أخذوا يذلون فى سبيلها جهودا خارجية كبيرة منذ العشرينات من هذا القرن العشرين .

وربما كانت الجامعات والمعاهد الأمريكية أسبق الأوساط الأمريكية إلى هذا الشعور الذي غدا عاما بين الأمريكيين ، بدليل ما بكرت إليه هذه الجامعات والمعاهد من اعداد برامج خاصة لتدريس اللغات الأجنبية ، والثقافات الشرقية . وتشجيع البحوث الواسعة في أحوال الشعوب المختلفة . ومع حداثة الأمريكيين بدراسة بلاد الشرق الأوسط ، لم تلبث البرامج الخاصة بهذه البلاد أن امتدت إلى مختلف النواحي ثقافية العمرانية . وبرهان ذلك أن جامعات هارفارد وپرنسین ومنتشجن وبنسلفانيا وهي التي عنت سابقا بدراسة اللغات السامية أو الآثار القديمة - أعدت حديثا دروسا وبحوثا تعنى باللغات الشرقية الحديثة . وأحوال الشرق الأوسط السياسية والاقتصادية في العصر الحاضر . وفي مدرسه الدراسات الدولية العاليه في جامعة چور هيكتر . وهي التي يسمى اليها كتب هذه السطور . منهج واسع يناول دراسه الشرق الأوسط الحديث مد بدايه القرن التاسع عشر . بالإضافة الى دراسه الشريعة الاسلاميه وحاضر العالم الاسلامي . ويصل بهذه المدرسه معهد الشرق الأوسط لنشر البحوث والدراسات الشرقيه الحديثه بين الأمريكيين . في مجله التي بدأها منذ سنة ١٩٤٧ . وعنوانها « مجله الشرق الأوسط » . وهذه عدا المؤلفات العلميه التي أخذ المعهد في الاشراف على طبعها . ولا بد من الاشاره هنا كذلك الى جهود « المجلس الأمريكي للجمعيات العلميه » . اذ يقوم هذا المجلس على ترجمة مجموعة من الكتب العربيه القديمه والحديثه الى اللغة الانجليزيه . وبعد العده لشرها في المستقبل القريب .

وانبرت بعض المؤسسات الأمريكية لتمد هذه الجامعات والمعاهد بلاعانات الماليه السخيه . تشجيعا للبحوث العلميه في الشرق الأوسط وغيره من البلاد . ومن هذه مؤسسه روكفلر وفورد وهوتن وكارينجي وغيرها ، بل منح هذه المؤسسات هبات ماليه الى أعداد من الأساذه الاختصاصيين والطلاب الأمريكيين ، لتسهل لهم سبيل الفرغ الى دراسة شئون الشرق والعايه بالبحوث الشرقيه . ثم ما لبث أن لقيت بحوث

هؤلاء الأخصائيين تشجيعاً من دور الطباعة والنشر الأمريكية ، فنشرت
بحوثهم راضية ، وصدر في أمريكا من هذه البحوث منذ نهاية الحرب
العالمية الثانية مجموعة من المؤلفات التي تجد بضعة طبعة من اسمائها في
ملحق هذا الكتاب .

مجيد خدوري

حضارة الشرق الأوسط

للثقافة الغربية

تأليف

جورج سارتون

ترجمة

عمر فروخ



كلمة المترجم

هذه محاضرة للمستشرق الدكتور جورج سارتون ، أحد أساتذة جامعة هارفارد (في الولايات المتحدة) ومؤلف كتاب « مقدمة الى تاريخ العلم » . ألقى سارتون هذه المحاضرة بناء على دعوة من مكتبة الكونجرس الأميركي ومؤسسة جورج ك . كايرو ، في التاسع والعشرين من مارس عام ١٩٥٠ . في منتدى كوليدج في مكتبة الكونجرس .

وقمت على نقل هذه المحاضرة الى اللغة العربية حيا لما فيها من معارف حيلة ومن ملحوظات صحيحة . والدكتور سارتون حد منصف للعرب والمسلمين . ولكن له أيضا ملحوظات لا تسرنا كثيرا . على أن هذه الملحوظات . اذا كانت تحمل مأخذا فأنى سأعلق عليها بالشرح والاشارة . واما اذا لم يكن فيها مأخذ فيجب أن يجعل منها عبرة لأنفسنا .

أنا أشعر مع صاحب المحاضرة واعتقد كما يعتقد كل واحد منا ان الاسلام من أصح النظم الدينية والاجتماعية وأجملها ، وهو عندنا أصح تلك النظم وأجملها على الإطلاق . ولكن المسلمين اليوم كثير من العدد عن حقيقته ما جاء به الاسلام ان الاسلام يدعو الى العلم والقوة والبطافة . ولكن المسلمين ليسوا في هذه الأمور خيرا من غيرهم ، ولا مثل غيرهم أحيانا . وهذا ما شعر به المصلحون المسلمون ، فقال الشيخ محمد عبده : « الاسلام محجوب بالمسلمين » . أى أنا اذا نظرنا الى مبادئ الاسلام من خلال أعمال المسلمين لم نر تلك المبادئ جلية واضحة وجميلة سامية . كما هي حقيقة . وصاحب المحاضرة يعرج على هذه الملحوظة مرارا في أثناء كلامه .

اننى هنا أرجو من نبي قومي أن يولوا هذه الملحوظة حسن عنايتهم . وأن يعلموا أن لا أمل لهم بالنهوض الا اذا رجعوا الى حقيقة دينهم جاء في القرآن الكريم : « قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ؟ »

والعلم اليوم على أقلية بين المسلمين. وجاء في القرآن الكريم أيضا : « واعد لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم » . فلما ثارت الحرب نال مس في فلسطين كنا أقل استعدادا ماديا وروحيا من خصومنا بمراحل . وكذلك جاء في الحديث الشريف : « النظافة من الإيمان » . ثم أقر الاسلام الطهارة والغسل والوضوء . ولكن المسلمين ، في مجموعهم . لا يستطيعون اليوم أن يقتحروا بأنهم أنظف شعوب الأرض ، كما أراد منهم دينهم أن يكونوا .

ان المسلمين — في مجموعهم — بعيدون اليوم عن حقيقة دينهم ، فأن عجب اذا رأياهم يمدون عن حقيقته الحياء نفسها . وصاحب المحاضرة نفسه يعتقد ان شعوب الشرق الأوسط — وهم المسلمون في الأكثر — سكر أن يعودوا الى عظمهم الماضية . والى رعاة العالم السياسية والعسكرية . كما كانوا من قبل . ولكن هذا لن يكون الا اذا عادوا أولا الى فهم حقيقته الحياء في الاسلام والعالم التي حث الاسلام على الأخذ بها . بهذه الروح الصحيحة يجب أن تقرأ هذه المحاضرة القيمة .

وهنا موضع ملحوظه على أسلوب هذا الكتاب . وهي اننى نصرف تنقرا يسيرا في مواضع معدوده عند نقل هذه المحاضرة الى اللغة العربيه . وسعيت عن بضع حمل لأنها تدور مثلا حول « الخطه » التي ابغها المؤلف في كتابة الكتاب العربيه بالأحرف اللاتسيه . كما في المقدمة . أو ما هو قرب من ذلك . مما لا يحتاج اليه القارئ العربى . وهنالك أيضا كلمات تصفها تكون العباره تجرى على الأسلوب العربى . من غير أن يشار المعنى فيها كثيرا أو قليلا . وكذلك لما وصلت الى المقاطع التي تعالج حياه رسول الله صلى الله عليه وسلم وموضوع القرآن الكريم جريت فيها على الآداب الاسلاميه . فكسوت تلك المقاطع تقوى يستشعرهم مسلم . وهى مما لا يجد الكاتب العربى نفسه مضطرا الى التمسك بها . ثم ان الكتاب في الأصل يضم حواشى « تفسيرية » كثيرة . وهذه تمنع القراءه السائره . ومن أجل ذلك عمدت الى ادخال هذه الحواشى في

المتن . ورجعت في ذلك كله الى رأى الدكتور سارتون . فلم يجد
ضررا في ما فعلته . ولكنى أبقيت حواشى التعليق وحواشى المصادر
والمراجع على حالها .

وبما أن قارئ هذا الكتاب في جلته العربية سوف يقف متسائلا أمام
عدد من الآراء والتعابير والألفاظ أجيب أن تضع لهذه كلها
حواشى للمفسر (إذا كانت غير مألوفة في البيئة العربية العامة) ، أو مفسر
(إذا كانت تلك الآراء والتعابير والألفاظ على غير المنهج المتبع في
بحوث الاسلام خاصة) . وحرصت على أن أحسم كل حششة من
أشياء أنا بالحرفين الأولين من سى (ع . ف) . يسرها من الحواشى
التي هي المؤلف .

وبعد ، فإن على تبعة كل ما في هذا النص العربى ، مع العلم أن
الدكتور سارتون قرأه وأحاره . وعسى أن تكون سقطاتى قبله في
نقل هذه المحاضرة القيمة . وأن أكون أدت بفعلها لى لعله العربيه
خدمه ثقافة بوجهه لقومى وزامى .

عمر فروخ

المعلومات المضمنة في هذه المحاضرة وفي حواشها ترداد قصة بالرجوع الى كتاب عنوانه « مقدمة الى تاريخ العلم » ^(١) للمؤلف ، وهو ثلاثة أجزاء كبيرة في خمس مجلدات . نشرتها مؤسسة كارنيجي في واشنطن بين عام ١٩٢٧ وعام ١٩٤٨ م . وسنكون الاشارة الى هذا المرجع هكذا : (Introd.) ^(٢) . وكذلك بحسب الرجوع الى مراجعات وتقاريط صدرت في مجلة ايزيس . وهي مجلة متخصصة بتاريخ العلم . صدر منها الى الان ثلاثة وأربعون مجلدا (١٩١٣ - ١٩٥٢) في بلجيكا والولايات المتحدة . وهناك أيضا مقتطفات قليلة أضيف الى هذه المحاضرة . لم يشر اليها بعلامات الاقواس المعروفة . وهي مأخوذة من رسالة للمؤلف عنوانها « آثار العرب العلمية » ^(٣) في الكتاب الذي صدر احياء لذكرى المستشرق المجري الكبر اعناطيوس جولدتزيهر ^(٤)

أضفت الى هذه المحاضرة فيما بعد عددا من الحواشي ومن أسماء المراجع . لا ليتمكن القارئ من التثبت من الأحكام الواردة في هذه المحاضرة فحسب . بل لتساعده تلك الحواشي والمراجع على متابعة البحث أيضا .

(١) راجع « آثار المؤلف » في ترجمته (ع . ف) .

(٢) سوف أتترك أسماء المصادر والمراجع الاحيبية بلعبها الاصلية . اذ لا فائدة عملية من نقلها الى اللغة العربية . وما دامت الغاية من ذكر عناوين الكتب ان يرجع القارئ اليها ، فالذي يعرف اللعب الاحيبية لا يحتاج الى هذا النقل ، والذي يحفل اللغات الاجنبية لا يستفيد منه . اما اذا كان اسم الكتاب دال بنفسه على قيمه علمية خاصة فانني أنقله حيثنشد الى اللغة العربية (ع . ف) .

(٣) اسم هذه الرسالة Arabic Scientific Literature.

Ignaz Goldziher Memorial Volume, part I, pp 55-72, ٤

Budapest, 1948.

اني أقدر هذا الشرف الذي أولتني إياه مؤسسة جورج ك. كيزر
حينما جعلتني مجازرها لأول . كما أعد من التقدير الكبير لي أن أدعى
إلى الكلام في هذا المنتدى الشائق الذي نحن مدينون به إلى كرم لئله
اليزابث سيراك كوليدج^(١) . ان السيدة كوليدج بنت هذا المنتدى
للموسيقين وأحباب الموسيقى ، وأنا أرجو ألا تكون محاضرتي غير جديرة
به . اننى لست موسيقيا مبدعا ، ولكننى وقفت حياتى منذ سنين طوال
على التوفيق بين الخلافات الناشئة بين العلوم وبين الآداب ، وعلى معرفة
العلة في سوء التفاهم بين الشرق والغرب . وليس على الأرض ولا في السماء
موسيقى أجمل من التوفيق بين القلوب المتآلفة أو المتحاربة .

انكم تعلمون . على الأرجح . أن المؤرخين القدماء كانوا يحبون أن
يبدأوا صحف تاريخهم منذ البدء الأول . بقصة آدم وحواء . ونحن
يجب أن نفعل مثلهم . ذلك لأن « شجرة معرفة الخير والشر^(٢) » كانت
في وسط جناب عدن . ومع أن ثمة خلافات كثيرة (كانت وستبقى)
بين الدراسين على الموقع الصحيح للجنة . فاننا لا نخطئ أبدا إذا قلنا
ان تلك الجنة كانت في مكان ما من « الشرق الأوسط » .

دعونا نقف لحظة في ظل هذه الشجرة . ان وقوفنا هذا سيحمل إلى
أذهاننا شيئا من الحكمة القديمة — ان جناب عدن . أو الفردوس . كانت
دار الخلد التي أضاعها آدم وحواء ، وأهبطهما الله منها إلى الأرض^(٣) .
ونحن نجد أن أكثر الشعوب القديمة متفقة على أنه كان في غابر الأزمان
عصر ذهبي أخذ البشر بتفهقر بعده شيئا فشيئا . من ذلك مثلا ما ورد عند
لشاعر اليوناني المديم هسيود انه كان ثمة عصر للذهب . ذلك العصر
الذي كان عصر سلم وكمال . ثم تبع هذا العصر عصر النحاس . ثم عصر
الحديد (النحاس الأصفر) . ثم عصر الحديد^(٤) . وإذا نحن « بعنا هسيود

Mrs. Elizabeth Sprague Coolidge (١)

(٢) السورة ، سفر التكوين ٢ - ٩ .

(٣) القرآن الكريم . سورة البقرة (٢ : ٣٦ ، ٢٨) ، سورة الاعراف

(٧ : ١٩ - ٢٥ ، سورة طه (٢٠ : ١١٧ - ١٢٣ - ١٢٣) (ع - ف) .

(٤) Hesiod : His works and days (Lines 109-201) (٤)

في خيالاته أمكن أن تقول أننا اليوم في عصر المعاجين (١) . أو عصر البترول .
وعد . أمكن هذا كله نهاية ؟ بداية لعصر جديد ؟ والغريب أن رجلا
ذا عقريه مثل سمون ستيفن (١٥٤٨ - ١٦٢٠ م) القلمنكي (٢) ،
وهو العالم في الرياضات والطبيعات . كان يؤمن بعصر خرافي للعلوم
والحكمة في غابر الأزمان . وكان يعتقد كذلك أن هذا المجد الذي غر
مع الزمن يمكن أن يعود بوسائل متعددة . منها مثلاً تعلم اللغة الهولندية (٣) .

ايتقدم العالم أم يتأخر ؟

وبعبارة أخرى لم يكن العلماء يؤمنون بأن العالم سائر الى
القدم . بل انه في ارتداد الى حاله الأولى . بعد تقدمه الأول . فعند العصر
الذهبي الذي كان في غابر الزمن في مكان ما من الشرق الأوسط . له
هذا الشربة تنمطر في رأيهم من سيء الى أسوأ منه . ولم يشذ عن هذا
الاجماع سوى شخص واحد . شخص واحد كان متفائلاً الى حد ما ، وكان
ثمة . بالمنفصل . ذلك هو الفيلسوف الروماني العظيم سيبكا (٤) المولود
في قرطبة . وهو الذي عبر عن حقيقته التقدم في ميدان المعرفة تعبيراً
وصحاً . ذكر سيبكا هذا الايمان بالتقدم مرتين على الأقل : مرة في رسالة
الى لوسيلوس . ومرة أخرى في « المسائل الطعنة » (٥) . وكذلك كما
رأينا بعض هذا الايمان بالتقدم من قبل ثوسيديديس (٦) الذي شهد
لقرن الخامس قبل الميلاد - في مطلع كتابه « في التاريخ » ، ولكن
بوضوح أقل . وهذا الايمان بالتقدم العلمي الذي جاش في صدر سنسكا
كأساس الذي قامت عليه فكره برنارد المنسوب الى شارتر بفرنسا

(١) أي plastics وهي مادة لديه طبيعة مصنع اليوم منها أدوات كثيرة .

(٢) Simon Stevin ، والعلمنك مقاطعة من هولندا .

(٣) دعا ستيفن هذا العصر « العصر الباحث » ، وهذا غريب منه .
راجع : Isis 21 211-303 ، « Simon Stevin of Bruges » Sarton ،
1934, P. 259

(٤) Seneca . شهد النصف الثاني من القرن الاول ، الرسالة

الرابعة والسفون ال لوسيلوس Lucilius وهي واردة في 2 . 484 Introd

(٥) Natural Questions 7 25

(٦) Thucydides

والذى شهد النصف الأول من القرن الثانى عشر — حينما قال : « انا
نظهر بالنسبة الى الأقدمين وكأنا أقزام متربعون على أكتاف الجبابرة » ،
مما أصبح مثلاً سائراً على الألسن ^(١) . ويمكننا أن ندرك ذلك فى ميدان
المعرفة ادراكاً واضحاً ، لأن الجهود العلمية هى الجهود الانسانية الوحيدة
التي يمكن أن تتراكم وأن تقبل التقدم . فمن أجل ذلك يجب أن يبنى
تاريخ الانسانية على تاريخ العلم .

على أن فكرة الرقى اتسعت فى العصور الحديثة حتى امتدت
شيئاً فشيئاً الى ما وراء الميدان العلمى . فتناولت حياة الانسان كلها ثم
بلغت أقصى اتساعها ^(٢) فى العصر الفيكتورى ^(٣) . ولقد ساد العالم فى
ذلك الحين اعتقاد بأن العالم ينتقل من حسن الى أحسن ، مع العلم
بأن البشرية كانت يومذاك مستلدة أنواع دائمة من الشقاء . كالمرض والقمع
وارتكاب الخطايا . أو وبلاات عارضة كالطوفان والمجاعات والحروب .
ولكن لم يشك احد فى أن هذه الأنواع من الشقاء ستتكسر حدتها مع
الزمن . وأنها هى ستكون أقل حدوثاً فى هذا العالم . كما أن الولايات
العظمى ستمكن التغلب عليها فى النهاية . غير أن انساننا لم يضطرب
الا نادراً . اذ اتفق أن تمتع الطبقة العليا والطبقة الوسطى فى احترامه
وأمرىكا برخاء عظيم . حتى أن الفيلسوف فقط كاسلهم جرأة على الاحتجاج على
تكاليف الحياة . على أن أعظم الاحتجاجات على هذا التفاؤل الشامل عند
لأس صدر عن الكاتب الانجليزى ادورد كاربنتر (١٨٤٤ — ١٩٢٩)
فى كتابه الذى تحدى بعنوانه جميع الناس : « المدسه » . ثابها
وعلاجها » ^(٤) .

ولقد جاء العير عن مثل هذه الآراء بشدة وبشيء من الهكم المر
فى آثار المرحوم أندرا كوماراسوامى . فى مجموع مقالاته المسى :

(١) انظر شواهد كثيرة على ذلك فى Introd. 3. 870

(٢) فى الاصل Climax ، أى دروتها .

(٣) عصر فيكتوريا ، ملكة انجلترا (١٨٣٧ — ١٩٠١) ، ولقد عظمت

انجلترا فى أثناء سياسيا واقتصاديا ودنيا . ج . ف .

(٤) Edward Carpenter Civilization, Its Cause and Its

Cure (1889) . اشارة الى ان المدنية مرض .

« حارس أنا لأخى ؟ » (١) . كان صديقي كوماراسومي مبالغا وغير متسامح . ومع ذلك فإن آراءه تستحق أن تكون موضع تأمل . ولا سيما أنها مملوءة بالشواهد وبأسماء المراجع .

ومن الغرابة سكون أن المصلحين الذين نعوا دائما على المجتمع كثره الشقاء والظلم فيه . كانوا مع ذلك متحمسين لمظاهر الرقى كالآخرين . اد كانوا يعتقدون أن العالم مع ما فيه من الشر — في تحسن مستمر يوما بعد يوم . أما رجال العلم أنفسهم . فكانوا أكثر تفاؤلا مما تدعو اليه الحكمة .

غير أن هذا الاطمئنان العلمي قد تزعزع على أثر الاكتشافات التي قلبت حياة العالم رأسا على عقب . أواخر القرن الماضي ومطلع القرن الحالي . حتى أن نخبة من رجال العلم عادوا أقل ثقة مما كانوا من قبل وأكثر تواضعا (٢) . إن هذا التفاؤل الأمانى الذى يقول به أصحاب الأعمال الناجحة زعزعته الحرب العالمية الأولى . ثم جاءت الحرب العالمية الثانية فقضت عسه . وهكذا رجعت كلنا حنثذ الى وجهة نظر قريبة من المعقول .

هناك شيء من التقدم . لا أقول في ميدان العلم فقط . حيث يكون التقدم عادة ظاهر . بل في غيره من الميادين أيضا . ولكن يجب علينا . على كل حال . ألا نعمل في التفاؤل . إذ أن كل تقدم اجتماعى مهدد أبدا بالتوقف أو باللاشيء . نسخة ما يحمل أن يصب العالم من الكوارث . والتقدم . على مدى الطويل . يصبح حقيقيا أكيدا . ولكن حياتنا نحن قصيرة جدا . ونحن الحظ لا يرافقنا أيضا في مدى الحياة القصير . إن المدنية ليست

Ananda K. Coomaraswamy (1877-1947). « Am I my Brother's Keeper ? » (New York 1947) . وعنوان هذا الكتاب مأخوذ من التوراة : سفر التكوين ٤ : ٩ .

(٢) راجع للتمثيل على ما نحن بسبيله مجموعة الأحكام المتواضعة التى فاه بها اثنان أحدثا اثرا عميقا في العلم الحديث ، وهما ماكس بلانك والبرت اينشتاين :

Max Planck (Isis 40 66-69), and Albert Einstein (Introd 3 . v)

مرضا . ولكنها توازن دقيق جدا يمكن أن يخل بطرق مختلفة . وكلما
تعقد التمدين أضحي أكثر دقة . وبالتالي أضحي توارنه أقرب الى
الاختلال . وكذلك كلما غدا التمدين أرقى كانت الخشبة من سقوطه
أعظم ، ولنذكر في هذه المناسبة ألمانيا واليابان !

التقدم في ميدان العلم

ونحن على كل حال اذا أردنا أن نهم تاريخ الانسانية . أى أن نحمل
منه موضوعا مفهوما . يجب علنا أن نولى انتباهنا للعناصر القدمة
فيه . أى لتطور العلوم . ذلك ان تاريخ العلم (أو تاريخ المعرفة) يجب أن
يكون النسوة لكل تاريخ للحوادث الانسانية ، لأن الشر يخلعون
عن الحيوان في الرغبة الملحة الى الخير والجمال . والحقيقة والانصاف .
فاذا لم يصف الانسان بوحدة من هذه القيم الروحانية يصح
حينئذ وحشا ، بل أشد الوحوش قدرة وقسوة معا . ولذلك كان اهم
اقسام التاريخ تاريخ الدين . وتاريخ الفن . وتاريخ العلم على أن نقدم
لا يكون أبدا ملموسا أكيدا الا في القسم الأخير من هذه الأقسام . من
أجل ذلك وجب أن يحتل تاريخ العلم المركز الأوسط في صورة المدة .
لأن الاحماع واقع على أن تاريخ العلم بدأ على التحقيق . في
المكان الذي تواضعنا على أن نسميه الشرق الأوسط . مع أنه من
المستحيل علنا أن نجزم في أى قسم هذا المكان بدأ . أى القسم الغربي
منه . في مصر : أم في القسم الموعغل نحو الشرق . في ما بين النهرين ؟
ومن الممكن أيضا أن يكون العلم تطور أولا في مناطق أخرى . أى ايران
أو الهند أو الصين ، أو في الهند الصينية ؟ ولكن معرفتنا بالتطورات الأولى
للعلم في هذه المناطق غامضة وغير أكيدة . ثم ان هذه التطورات المعدة
لم تؤثر في مدنيتنا الغربية مباشرة ، كما أثرت فيها التطورات التي حرت في
بلاد الشرق الأوسط .

الواقع ان ديننا لمصر وما بين النهرين عظيم . وعظيم جدا . حتى ان
موجزا قصيرا لشرح بعض ما بلغه هذان الموهوبان في العلم تضيق عنه هذه

محصرة . ولكن دعوني أذكركم بحقيقته واحدة هي أن هذين البلدين
كلهما اكتشف وسائل الكتابة . ومن المرجح أن هذه الفكرة المدهشة كانت
ابتكار في السدين . غير أن الاسلوبيين أحلفا على كل حال .

خرج المصريون للعالم التعبير بالصور (الكتابة الهيروغليفية) .
ثم كشفوا أحسن وسائل الكتابة في العصور القديمة . وهو نبات الردي
الذي استطاع الكتاتون أن يردوا على صفحاته المصقولة
فمنهم في أروع أشكاله "ما السومريون" ^(١) فلم يكن لهم بد من أن يقتنعوا
بالكتابة على الطين . وهذا هو الذي فرر أشكال خطوطهم المسمارية ^(٢) .
ومع ذلك أتم السومريون كتابتهم تلك حتى أصححت اللغة البابلية
- بس انتهاء القرن الخامس عشر قبل الميلاد - لغة السياسة الدولية ،
وتصبح الخط المسماري خط المراسلات فيها . واستعمل هذا الخط لكتابة
لغات كثيرة من لغات آسيا الغربية . على أن استعمال الردي في مصر
أدى إلى احراق المجلدات أو الكتب . بينما كان لألواح الطين في ما بين
النهرين مبره حصة . هي أنها لم تكن قابلة للتلف وهكذا ظلت ألواح
الطين متوفرة لا يجمع بينها جامع . بخلاف صفحات الردي التي كان
يسهل ضمها وجمعها كـ مجادة . هذا مع العلم بأن قطعا من الردي
ومجذوب تامه منه قد حفظ إلى يومنا هذا . بفضل جفاف الجو في
مصر . بينما لم يكن بالإمكان حفظها لو أنها كانت في ما بين النهرين .
أما ألواح الطين فممكن أن تظل محفوظة سليمة في كل مكان ، ما لم يعتمد
أحد تلافها ^(٣) . وهكذا نجد أنه لم يكن عند البابليين كتب كما كان
عند مصريين . ولكن البابليين عوضوا عن هذا النقص بخلق دوائر
لجمع الوثائق منسقة . ويخلق مكاتب منذ عهد مملكة

^(١) السومريون شعب غير سامي سكن ما بين النهرين ، واكتسب
كثيرا من خصائص الساميين فيما بعد . ع . ف . ا .

^(٢) الخط المسماري خط بصوري تشبه علاماته الشكل الجانبي
للمسمار . وقد سمي بهذا الخط الاسمين ، لأن علاماته تشبه أيضا
الشكل الجانبي للأسفين .

^(٣) نجد وصفا شائعا لذلك في كتاب ادوارد كيارا : " ولقد كتبوا على
الطين " .

Edward Chiera (1885-1933) *They Wrote On Clay* (Chicago
1938).

ومعظم الناس يعرفون من عبقريّة المصريين أكثر مما يعرفون من عبقريّة البابليين ، وما ذلك إلا للعجائب الباقية في الآثار المصرية من الأهرام والمسلات والهياكل العظيمة ، على حين أبنيه الطابوق ^(١) في ما بين الهرين قد درست بعوادي الرمن ، أو حربت خرابا عجزت عنه يد الإصلاح . ولا ريب أيضا في أن مما ساعد على شهرة العبقريّة لمصره وجود مسلات كثيرات تقوم في عواصم أوربا ، وفي نيويورك أيضا ، وهي شواهد وإعلان عن تلك العبقريّة ^(٢) . ونحن على كل حال مدينون للأمينين كليهما بشيء لمن والأدب والرياضات والملك والكيماء وصناعات أخرى . وأنا نحن الغربيين مدينون لهم بكتابتنا المقدس نفسه وبدننا وقواعد أخلاقنا حيننا كبيرا .

أين كان مهد المدنية

إن الحقيقة القائلة بأن مهد المدنية الغربية كان على ضفاف النيل والفرات ودجلة لم تكن تفهم حين الفهم قبل عصرنا الحاضر . أما الآن فإنها أصبحت واضحة أحلى الوضوح ، بل نحن اليوم نستطيع أن نحزم بلا تردد بأن العلوم العربية ولدت في تلك البلاد المحطولة . ولواقع لم يمض وقت طويل على الزمن الذي كان الدارسون يرون فيه أن جذور المدنية الغربية كانت في اليونان ، فما يتعلق بالعلم ، وفي فسطين فيما يتعلق بالدين . ثم لم يكلف الدارسون أنفسهم أن يذهبوا إلى ما وراء ذلك . ولكنا نحن اليوم نعلم أن اليونان واليهود أنفسهم مدينون بذلك كله للمصريين والبابليين . وربما لغيرهم أيضا من الأمم التي تقدمتهم . خذ مثلا ، في باب المعلومات العامة المتعلقة بالعلوم السابقة على عصر اليونان ، ما يلي من الكتب والبحوث :

(١) الطابوق هو الآخر (طين مشوي يسمى به في العراق) .
 (٢) وسع ساربون هذه الفكرة في مقال له عنوانه : أجريسا ، فونتانا وبيجافا . نصبت مسلة الفايكسان سنة ١٨٥٦ م .
 Anippa, Fontana and Pigafetta 'The Erection of the Valcan Obelisk in 1856. (Archives Internationales d'Histoire des Sciences, No. 8, 1949, pp 527 - 54, 14 figs.)

- الرياضيات قبل اليونان .
- نصوص مسمارية في الرياضيات (ثلاثة أجزاء) ، بالألمانية .
- نصوص مسمارية في الرياضيات ، بالإنجليزية .
- نصوص بابلية في الرياضيات .
- أوراق البردي التي اكتشفها رند .
- الطب في آشور وبابل .
- أوراق البردي في الجراحة ، وهي التي اكتشفها أدوين سميث .
- أوراق البردي التي اكتشفها إيرس (١) .

هذا عدد من العناوين البارزة ، وهناك عدد آخر منها يمكن الاستشهاد به في هذا المقام . على أن هذه المراجع قد ذكرت هنا لضعف الفرض ، لأن الحكم المعلق بما نحن بسببه من قدم العلوم الشرقية ، وأنها سابقة على عصر اليونان ، قائم على مرفس الواسع بذلك . إن معرفتنا بالعلوم السابقة على عصر اليونان كبير بلا ريب . ولكن معرفتنا بانقلاب هذه العلوم إلى اليونان حركته لسوء الحظ وناقصة أيضاً .

إن العلم اليوناني لم يكن بدءاً لحركة علمية ، ولكنه كان ذروة لجهود علمية ترحل إلى ما قبل ألفي عام قبل ذلك . وإن لدينا رسائل مصرية في الرياضيات والطب تعود إلى القرن السابع عشر . . . ولكنها

Otto Neugebauer *Vorgeschichte Mathematik* (Berlin), (١) 1934; *Isis* 24: 151-53), *Mathematische Keilschrifttexte* (3 vols., Berlin 1935—37; *Isis* 26 63—81, 28 490—91), *Mathematical Cuneiform Texts* (New Haven, 1943, *Isis* 37: 96-97, 231).

François Thureau-Dangin . *Textes Mathématiques Babylonniens*. (Leiden 1938, *Isis* 31: 394-425).

Arnold Buffum Chace . *The Rhind Mathematical Papyrus*. (Oberlin 1927-29, *Isis* 14: 251-55).

Georges Contenau *La Médecine en Assyrie et en Babylonie*. (Paris 1938, *Isis* 31: 99-101)

James Henry Breasted *The Edwin Smith Surgical Papyrus* (Chicago 1930, *Isis* 15: 355-67).

B. Ebbell *The Papyrus Ebers* (Copenhagen 1937, *Isis* 28 126-31)

مستقاة من كتابات أسبق عليها بضعة قرون آخر . وقد تعود أصباؤنا ،
إذا ذكروا أبو قراط ^(١) . أن يسموه « أبا الطب » . ولكن قد يكون
من الخير لهم أن يذكروا أن أبو قراط ليس رأس الطب . ولكنه يقف في
مصاف تاريخ الطب بين امحوتب ^(٢) وبيننا . وكان امحوتب هذا وزير
فرعون زوسر وطيبه . وقد اثنى على الطب في مصر في القرن الثلاثين
قبل الميلاد .

لم ينشأ العلم في أوروبا بل في آسيا

وكذلك يحسن أن نعرف أن أقدم العلماء الطبيعيين اليونانيين
(دارسي الطبيعة) ^(٣) لم يكونوا في أوروبا . بل على الشواطئ الغربية
لآسيا الصغرى . وفي الحرر الغربية من تلك الشواطئ . أجل . انهم كانوا
يتمون إلى جاليات ^(٤) يونانية . ولكنهم كانوا متأثرين بالشرق . ثم أن
الوندنيين أنفسهم كانوا ينظرون جنوبا أو شرقا للبحث عن مهد المعرفة
والحكمة . وسافر كثيرون من هؤلاء إلى مصر وبابل لطلب العلم .
وأما سميت هؤلاء القوم يونانيين . ولكن هذه السمة تنقصها الدقة .
فإن شعوب الشرق الأوسط وشعوب الشواطئ الشرقية للبحر الأبيض
الموسط تمارجبت منذ مطلع القرن العشرين ق . م مرارا وتكرارا .

على أن آراءنا في هذه الأمور غشيتها الظلام بما اضطلع المؤرخون
القدماء عند تأريخهم للحروب الفارسية اليونانية من النوبة بأعمال
الوندنيين المتحدة في معركة ماراثون البرية (٤٩٠ ق . م) . وفي معركة
سلاطيس البحرية (٤٨٠ ق . م) . ويمكن أن توصف هذه الحروب
بأنها صدام بين الاسندد الآسوى والشورى اليونانية . ولكن من

(١) أنقراط أو أبو قراط أو بقراط (Hippocrates) طبيب يوناني قديم
مشهور .

(٢) Jameson B. Hurry, Imhotep, the Vizir and Physician of King Zoser (2 ed. Ed., London 1928, Isis 13 373-75, 14 226)

(٣) الفلاسفة الطبيعيون أقدم فلاسفة اليونان الذين وصلت إلينا
أخبارهم . (ع . ف) .

(٤) الجالية جماعة من قوم تعيش في أرض قوم آخرين . (ع . ف)

للتضليل أن تحدث عنها كأنها كانت حرب بين الشرق والغرب . فالفرس كانوا حلفاء للفنيين ، والفينيقيون كانوا بدورهم متأثرين بالمدنية القريبة . كاليهود في يومنا هذا ؛ بينما كان كثير من اليونانيين قد اكتسبوا اصطفة الشرقية . ثم ان هذه الحروب لم تكن أيضا نزاعا بين الآريين والساميين . فالفرس عريقون في الآرية كالليونان أنفسهم ، بينما حلفاؤهم الفينيقيون كانوا ساميين . وكذلك كانت الامبراطورية الأخامانية (الفارسية) كتلا متراكمة من جميع السلالات والأمم العائشة في الشرق الأوسط ، وهي التي تمارجت مرة بعد مرة مع مرور ألوف السنين . أما اللغة العامة في تلك الامبراطورية الفارسية الآرية فكانت الآرامية ، وهي لغة سامية .

ويجب علينا أن ننظر دائما الى الشرق الأوسط على أنه أرض تنتمي فيها الطرق وتفرق ، وقد اتفق لبعض الناس أن دعوا بلادنا (الولايات المتحدة) بوتقة ^(١) ؛ ولكن هذا الوصف ينطبق انطباقا أشد على الشرق الأوسط . مع فارق واحد ولكنه عظيم جدا . هو أن أمريكا قامت بهذه العملية نحو مائتي عام أو تزيد قليلا ، بينما الشرق الأوسط قد شهد هذا التمازج مدة تزيد على ذلك عشرين ضعفا .

تأثير الشرق على اليونان

وإذا نحن رجعنا الى العلم اليوناني وجدناه قد تشرب مؤثرات شرقية مختلفة . من ايرانية وبابلية ومصرية . هذه المؤثرات يمكن أن تتبعها الباحث في كتب افلاطون ^(٢) فضلا عن كتاب يونانيين آخرين حيث الأثر الشرقي عندهم أشد وضوحا ^(٣) . وأنه ليفيدنا أن نستعرض جميع

(١) البوتقة أو البودقة اناء تصهر فيه المعادن ، كناية عن امتزاج الشعوب . (ع . ف) .

(٢) افلاطون فيلسوف يوناني عظيم عاش من ٤٢٩ الى ٣٤٠ ق . م (ع . ف) .

(٣) لمعرفة مدى الاثر الايراني راجع

Joseph Bidez et Franz Cumont: *Les Mages Hellénisés* (2 vols, Paris 1928, Iss 31 458-62), J. Bidez *Eos ou Platon et l'Orient* (Bruxelles 1945, Iss 37 185), F. Cumont *Lux Perpetua* (Paris 1949)

وأما لمعرفة مدى الاثر المصري فراجع الحاشية ص ٢٣ مع مثنائها ثم ارجع الى

لآراء الشرقية المملوحة في تأليف اليونان العلمية . غير أن عملا مثل هذا يحسننا زمانا طويلا . ثم لا تكون أكثر من اشارات غارضة تتعلق بموضوعنا . ولكن بدلا من أن نفعل ذلك نرى أن ندع الماضي البعيد . ثم نقتصر في ثنايا العصور حتى نصل الى القرن السادس للميلاد ، لنقف عند العام المحتوم ، ٥٢٩ م . حينما أغلق حستيان جامعة أثينا ومنع تدريس الفلسفة . في اليونان كلها . ثم فتح دير جبل كاسينو في ايطاليا لاحتضان الفلسفة . ولن نستطيع أحد أن يحدد تاريخا أجدر من هذا . ليكون الحد الروحي بين عصرين تواضع الناس على أن يسموهما العصر القديم والعصر الوسيط . في ذلك الزمن كانت الفرق ^(١) المسيحية في الشرق الأوسط : المارونية ، والنسطورية ، والجريجورية ، ^(٢) والقبطية ، والجيشية . واليعقوبية (والأرثوذكسية) أخيرات يقول أصحابها بالطبيعة الواحدة في المسيح ^(٣) (قد نشتت واتسعت بشقة بينها وبين الكنيسة العامة . على أن الذي كان أسوأ من ذلك أن تلك الكنيسة العامة تمزفت بالاشفاق الذي كان يزيد شيئا فشيئا بين الكنيسة البيزنطية أو الأرثوذكسية في الشرق (اليونان) وبين الكنيسة الكاثوليكية في الغرب (ايطاليا) . وبما أن العارى ، قد يكون أقل علما بالانشقاق الأول في الكنيسة منه بحركة الإصلاح الديني الرونستانية . ومن الملاحظات التالية يمكن أن تبينه على فهم ذلك . وخصوصا فيما يتعلق بالتعبير الألف الذكر : القائلين بالطبيعة الواحدة في المسيح .

Robert William Rogers (1864-1930) *Conciform Parallels of the Treatment* (New York 1912) T. Eric Peet (1882-1931) *Comparative Study of the Literature of Egypt, Palestine and Mesopotamia, Egypt's Contribution in the Literature of the Ancient World* (London 1931) James Henry Breasted (1863-1935) : *The Dawn of Conscience*, (New York 1933, *Isis* 21 : 14-16)

(١) في الأصل الكنائس .

(٢) الفرقة الجريجورية منسوبة الى جريجوريوس بطريرك الاسكندرية من اتباع أريوس . وكان أريوس اسكندريا أيضا ، وكان يقول أن المسيح ليس بآله ، بل هو مخلوق من لا شيء ، إلا أنه أول المخلوقات ، والحلائق جميعا أحوته . وكان جريجوريوس يقاوم الكاثوليكين حتى من عام ٣٤٨ م . راجع كتاب ديوان البدع للمطران جرمانوس فرحات ، رقم ٥٠ ، ٥٦ (ع - ف) .

شأن لقرو الأولى في النصرانية من اختلاف الآراء في طبيعة المسيح ، أهو انسان أم اله ؟ أم أن له طبيعتين ، بشرية وآلهية ، مفترقين أو ممزجتين ؟ فالرأي المسيحي المعتر في المسيح صوابا كان يقول بأن في مسيح طبيعتين (بشرية وآلهية) ، ولكن في أقنوم (شخص) واحد . أما الساطرة أتباع نسطور الاسكندري فادعوا أن للمسيح طبيعتين وأقنومين (شخصين) ^(١) . ولقد حكم مجمع أفسوس عام ٤٣٥ م على آراء نسطور بأنها كفر . على أن القائلين بالطسعة الواحد قد تمسكوا بحرف الآخر من حل الحدين وقالوا بأنه ليس في المسيح الا طسعة واحد وأقنوم (شخص) واحد . وهؤلاء أيضا حكم عليهم مجمع خلقدونه في سنة ٤٥١ م ^(٢) .

الستار الحديدي قديما وحديثا

يسكن الناس السوم عن الستار الحديدي الذي يفصل بين أورنا لشرقية الخاضعة لسيود السوفيتي وبين أورنا العربية الواقعة تحت سيود الانحيري الأمريكي . هذا الستار كان موجودا في أثناء حقبة سوية من العصور الوسطى بين العالمين اليوناني واللاتسي ^(٣) . ولما أشرف قرن الثامن الميلادي على نهايته كان الانفصال بين الكنيستين الشرقية والغربية قد أصبح تاما . وكانت العداوة بين اليونان واللاتين قد أصبحت شديدة الى درجة أن اللاتين لما أرادوا فيما بعد أن يستقوا من يناسخ لحكمة القديمة فصلوا أن يعلموا اللغة العربية لا اللغة اليونانية ^(٤) .

(١) ذكر المطران حرمانوس فرحات في كتاب « ديوان البديع » رقم ٨٩ عن نسطور أنه قال : « ان مريم العذراء ليست بوالدة الله ، لأجل أن الله لا يمكن أن يولد من انسان ... وحاشالي أن أعبد آلهة ابن سهرين ... وكما أن المسيح فيه طبعان فكذلك هو إبنان ومسيحان أحدهما اله من الله الاب ، والآخر انسان من أمه مريم . وهذا كان يسمى العذراء والدة المسيح لا والدة الله » (ع - ف) .

(٢) راجع في ذلك أيضا : Introd. 3, 53-55, 1057, 1830.

(٣) سبق لي أن عالجت هذه المسألة مرارا ، أي « الوحدة والتباين في بلاد حوض البحر الابيض المتوسط » .

ظهور الاسلام

غير أننى أستبق الآن حوادث قصتى . يجب أن تقف هنا لحظة لأسرد عليكم ، بإيجاز على كل حال . حادثة واحدة من أخصب الحوادث الكبرى فى تاريخ الانسانية . وهى ظهور الاسلام . ولكن لكى نستطيع ذلك يجب أن ننقل الى بقعة من أقل بقاع الأرض شهرة . عندنا نحن الأمريكىين . أى الى بلاد العرب . من أجل ذلك كان وصف هذه البلاد أمرا مرغوبا فيه فى هذا الموقف . غير أننى سأوفر عليكم هذا العناء . على كل حال . ذأعتقد أنكم تعرفون الأمور الأساسية فى الموضوع . ومن المرجح أن همرا منكم حاضرون يتنا يعرفون عن شبه جزيرة العرب أكثر مما يمكن لى أنا أن أعرفه . لقد كانت شبه جزيرة العرب الى زمن قريب تعد بقمه من أشد البقاع محلا على وجه الأرض . ولا غرو فالقسم الأكبر منها أرض صحراوية واسعة مهجورة لا أنس فيها . أو لس غريبا اذن أن يتوجب على الانسان الذهاب الى مثل هذا المكان المهجور . لسنزل وحدها . ولكن هذه القصة معروفة بينكم بلا ريب ، ويكفينى فى هذا المقام أن أعيد الى أذهانكم بضع ذكريات .

ولد أبو القاسم محمد بن عبد الله القرشى (صلى الله عليه وسلم) فى مكة نحو ٥٧٠ م . ولقد تألم حدا لحال قومه . ولما كانوا فيه من الجهل والطمع والصورة . وافتراق الكلمة وهجر الفضائل . ثم صدع بالدعوة نحو عام ٦١٠ . وعمره يومذاك أربعون سنة . بعد أن عظمت خبرته بالأس . ومثلا صدره بإيمان معدوطيد . فى ذلك الحين كانت مكة المركز الرئيسى للتجارة فى شبه جزيرة العرب . أما أهلها — وفيهم عدد كبير من الأغماء . ومن الذين رزقوا حطا من الجدل — فقد كانوا على شىء كثير من العند . وسلك أهل مكة مع محمد (صلى الله عليه وسلم) كما سلك أكثر الأفاء مع أنسائهم . أن نصحه المشرب بالهديد الضمنى كان يبدو مناقضا لمصلحتهم التجارية . ومع أنهم لم يكونوا من قل قد فنحوا له قلوبهم قط . فانهم بعد أن خرج نصحه لهم الى التهديد السافر . أصموا عن كلامه كذبتهم مرة واحدة

وفي سبتمبر من عام ٦٣٢ . بعد أن رأى الرسول محمد أنه لم يبق ثمة قائد من الصر على عداد المكين . هاجر الرسول باتناعه الى مكان آخر . بعد نحو مائتين وعشرة أميال (١) شمالي مكة . الى يثرب التي أصبحت تدعى منذ ذلك الحين مدينة الرسول . أو المدينة اختصارا .

هذه الهجرة كانت حدا فاصلا في حياة الرسول (صلى الله عليه وسلم) . وفي تاريخ الدين الجديد . لأنها البدء الرسمي للإسلام دينا ودولة معا . ثم لم يطل الأمر بعد ذلك حتى جعلت الهجرة مبدأ للتقويم الإسلامي : أيام الخليفة الثاني عمر بن الخطاب .

وكان محمد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) مثل أحواله الأنبياء سابقين ، ولكن كان أعظم منهم نجاحا بما لا قياس فيه . ولقد كانت آيات الكثر . التي أوحى بها الله له بلسان عربي مبين ، يحفظها أصحابه عسا . أو يدونها كنه الوحي منهم بعد نزولها مباشرة . ثم ان هذا الوحي الذي تألف منه القرآن المجيد . جمع فيما بعد في مصحف واحد : جمع مرتين : مرة عام ٦٣٢ م أيام الخليفة الأول أبي بكر الصديق . بإشراف زيد بن ثابت . أحسد كسوة الوحي وكار لصحبة : ثم أيام الخليفة الثالث عثمان بن عفان . « شرف زيد بن ثابت نفسه للمرة الثانية والأخيرة نحو عام ٦٥٠ . وسور القرآن الكريم مائة وأربع عشرة سورة . رتبت بمرسبها الحالي في الجمع الثاني . فجاءت السور الطوال منها أول المصحف . والسور القصار آخره على المدرج . ما عدا فاتحة الكتاب . وهي قصرة . ولكنها جعلت السورة الأولى . وما عدا سورا قصارا غيرها . ففجاءت قبل غيرها من السور الطوال (٢) . وسورة الفاتحة يقرأها المسلم في صلاته كما يقرأ المسيحي أعداد « أبانا » . و لقرآن أقصر من العهد الجديد (٣) . ولكنه يختلف عن العهد الجديد اختلافا كبيرا . أنه

(١) نحو ٣٦٦ كيلومترا . (ع . ف) .

(٢) ترتيب سور القرآن الكريم أمر توفيقى يرجع الى قول الرسول صلى الله عليه وسلم في حفل آيات السور على الترتيب الذي هي عليه وفي حفل السور مرتبة بترتيبها الحالي (ع . ف) .

(٣) المقصود بالعهد الجديد الانجيل الأربعة : انجيل متى . وانجيل مرقس . وانجيل لوقا . وانجيل يوحنا . وهي أربع روايات لحياة المسيح . ثم العهد القديم . ثم رسائل ماز بولس وبطرس وسواهما . ثم رؤيا يوحنا اللاهوتي . ع . ف .

بعض أركان الإيمان وأجزاء من القصص ، كما يتضمن أمور الفقه والشريعة والعبادة . وأروع أقسامه باللغة في أسلوبها البديع (١) . أما رسول نفسه فكان زاهدا (٢) ، وفقها ومشرعا ، ورجلا عمليا . وأحد أعظم اشعراء (٣) في تاريخ الأدب العالمي . لو جاز لنا أن نعدده كذلك .

الاسلام واركانه

أما اسم هذا الدين الجديد فهو الاسلام . ومعنى « الاسلام » أن سلم الإنسان نفسه الى الله . وأما اسم أتباعه : فكان مشتقا من المصدر نفسه : « المسلمون » وقد كان الاسلام — كما أوحى به الى رسول الله ، وكما صدع به رسول الله — ديناً بسيطاً قانياً . ولكن نفى أن علمت به — كما اتفق لغيره من الأديان — شوائب من الاسرائيليات (٤) التي أتى بها قاصرو العقول ، أو من الجدل الذي أغرم به الفقهاء الطاهريون ، الذين يتمسكون بظاهر الألفاظ . ويدعون الموصى على مقاصد الكلام ومعانيه . ولكن الاسلام في شكله الأصلي أمر باهر . وأركان الاسلام الخمسة هي :

١ — الشهادة أو اعلان الدخول في الاسلام ، وهي قول . أشهد أن لا اله الا الله وأن محمداً رسول الله .

(١) استنوب القرآن واحد ، وما الاخلاف الذي يجبل الى غير العربي سوى تزييف الكلام حسب الاعراض بين وعد ووعد . أو قصص وتشرع . الخ . وهذا مطابق لتعريف البلاغة .
(٢) في الأصل متصوف .

٣ لا يوصف محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم بالشعر . لقوله تعالى وما علمناه الشعر وما يسمى له . ولكن عبقرية الشعر كانت موجودة في رسول الله ، وإن كان رسول الله لم يلجأ الى نظم الشعر ، لأنه كان مشغولاً به . ما هو أعظم منه . بالرسالة . هذا التعليل هو للحاحط ، وقد ورد في البيان والتبيين ، تحقيق حسن السننوبي ، القاهرة ١٣٥١ هـ . ١٩٣٢ م . الجزء الثالث ، ص ١٤١ — ١٤٢ . وقد سبق لي أن نشرته كاملاً في مجلة الاولى ، بيروت ، السنة الثالثة ، العدد الاول — ٨ شعبان ١٣٥٩ . ١٠ ايلول ١٩٤٠ ، الصفحة العاشرة (ع . ف) .

(٤) الاسرائيليات حكايات واخبار خرافية ، ومآلات في وصف المعادن دسها نمر مافقون من اليهود (بنى اسرائيل) الذي اسلموا ، أو تظاهروا بالاسلام على الاصح ، في التاريخ والفقه . غير أن علماء المسلمين عرفوا ذلك منذ الزمن القديم ، ولكن بما أن هذه الاسرائيليات تتفق مع عقيدة العوام ، فقد دأبت بهم ، ثم حذع بها ايضا نفر من المسلمين . (ع . ف) .

٢ — اقام الصلاة خمس مرات في اليوم واليلة .

٣ - - الركاة . وهي الصدقة المقعة التي يجب أدائها على المسلم
المسور لمخفف المحتاجين من المسلمين .

٤ صوم رمضان .

٥ — الحج الى مكة مرة واحدة في العمر على المستطيع .

وليس في أركان الاسلام هذه شيء يبرمه غير المسلم . ونظرا الى
بساطه هذه الفرائض وفرة عددها . لم يكن ثمة حاجة الى ادخال اصلاح
ما عليها حتى تثبت العقيدة الاسلامية في نفس كل مسلم أو تزيد قوة
بعد ثبوتها . ليسهل اشارها فوق ما ثبت وقويت وانتشرت فعلا . ان
القيمة العملية للعقيدة الاسلامية لها دليل ذاتي من قوتها ورسوخها
واتسارها ، ليسهل في أفريقية ، وفي جزائر الهند الشرقية ، جاوه
وسومطرة — ، وسواها من الأماكن

وكان الرسول رجلا نزر العلم بالكتابة . ان لم يكن أميا تماما (١) .
ولكنه كان ذا عقيدة عظيمة . ولقى الرسول أثناء رحلاته بالقوافل للبحار
في شبه جزيرة العرب . جماعة من اللاجئين اليهود والنصارى كان لهم من
الثقافة الروحية ما لم يكن للدو . وبما أن الرسول كان شديد الاهتمام
بالدين . فقد كان يحدث الى هؤلاء . وهكذا نجد أن الرسول كان على
علم بأمور كثيرة من التوراه والانجيل . وبأشياء كثيرة من العقديين
اليهودية والنصرانية . وفي القرآن الكريم اشارات عديدة الى ذلك .
وكذلك نجد في القرآن عددا من قصص التوراه أيضا . مع الفرق المنظر
لاختلاف الأحوال بين العصرين (٢) . والاسلام يمكن أن يعدا فسادا من اليهودية

(١) ورد في كتب الحديث والسيرة ما يعيد بأن الرسول لم يكن يحفل
اشكال الحروف ، ولكنه كان لا يعرف الكتابة ولا القراءة (ع . ف) .
(٢) كان كفار مكة يقولون للرسول ان امورا كثيرة مما يرد في القرآن
عرفها اجبار اليهود ويخبرون بمثلها ، فانزل الله في الرد عليهم قوله
سورة الشعراء - ٢٦ : ١٩٢ - ١٩٧ : « وانه لسريل رب العالمين .
يرل به الروح الامين ، على فلك لتكون من المدرين ، بلسان عربي مبين .
وانه لفي زبر (كتب) الاولين ، او لم يكن لهم آية ان يعلمه علماء بني
اسرائيل ؟ هذا مع العلم بان ما ورد في القرآن من العقائد اليهودية
والنصرانية لا يشبه ما عند النصارى واليهود اليوم ، ولا ما في التوراه
والانجيل . (ع . ف) .

أو النصرانية . ولقد عده بعضهم كذلك ^(١) . أن محمداً (صلى الله عليه وسلم) عرف أنبياء بني إسرائيل واحترامهم . وعرف مريم البتول والمسيح ، ولكنه رسول الله وخاتم النبيين ^(٢) .

ناخر المسلمين حجب الاسلام

فالاسلام - حسب هذا الرأي ، مكمل لليهودية وللنصرانية . إلا أن الدارسين المدول يقولون أن الاسلام ثالث الأديان الكبرى التي يتم بعضها بعضاً ، والتي ترجع الى مجموع واحد . والاسلام على أحسنه - كما يدعوا في آثار السلفين ^(٣) أي الفقهاء الذين يريدون أن يرجعوا بالاسلام الى ما كان عليه في أيام « السلف الصالح » من الصفاء ، أمثال ابن سمية ومحمد بن عبد الوهاب ومحمد عبده . يذكر الباحث المسيحي بالمذهب الواحداني الحديث ^(٤) . أما في أسوأ مظاهره فقد علق به من

(١) أن القرآن نفسه يشتمل على الاسلام بالشكل الأول الصافي من اليهودية والمسيحية حينما يقول : « مله أبيكم ابراهيم » هو سماكم المسلمين « (سورة الحج - ٢٢ : ٧٨) . فلما بدل اليهود دينهم جاءت النصرانية ، ولما بدل النصارى دينهم جاء الاسلام ، لانما ما لم يكن تاماً في اليهودية والمسيحية . (ع . ف) .

(٢) « ولكن رسول الله وخاتم النبيين » (سورة الأحزاب ٣٣ : ٤٠) . هذه الآية هي في رأى اليهود والنصارى مبرر للرغم بأن الاسلام ندعه يهودية أو مسيحية ، لأن ما يقال عن الاسلام أنه تكميل لليهودية والنصرانية هو في رأى اليهود والنصارى انحراف . وكذلك نحن واجدون في كتاب الحديث المشهور (مشكاة المصابيح) قولاً للرسول يدل على أن مريم حملت بالمسيح من غير اتصال بيشر (Introd 3 : 1066) . انتهت حاشية المؤلف .

ليس ثمت ضرورة الاستشهاد على هذا بغير القرآن الكريم ، فالقرآن الكريم يشتمل على مريم حملت بالمسيح من روح الله ، وهو يوجب على المسلمين هذا الاعقاد . أما الكنيسة الكاثوليكية فإنها لم تحمل هذا الأمر من قصايا الأيملر عندها إلا بعد سنة ١٨٥٤ م ، أي بعد برول سورة مريم بنحو ألف ومائتين وخمسين وثلاثين سنة . (ع . ف) .

(٣) في الأصل Puritans

(٤) المذهب الواحداني Unitarian مذهب مسيحي ينكر اتباعه التسلط .

الخرافات أكثر مما علق ببعض أشكأن العبادة في المذاهب الكاثوليكية والبيزنطية . على أن هذا لا صلة له بالاسلام نفسه . ولكنه راجع الى أن أفراد الطبقات الحاكمة من عوام المسلمين هم نسيا أكثر عددا وأشد تأخرا وأقل تثقيفا من جماهير العامة في إيطاليا وأسبانيا مثلا .

سوف أرجع الى الكلام على الاسلام وعلى ما أحدثه من النتائج العجيبة بعد قليل . ولكن يجب على أولي أن أدل بأمثلة على عطمة الرسول من طرق مختلفة حتى أثبت صحة رأيي .

عقوبة اللغة العربية

فهي المرتبة الأولى لم يكن الرسول يعرف لغة سوى لغته . فكان من لطبيعي أن يعلق عليها أهمية كبرى . أن الذين لا يعرفون سوى لغتهم - وخصوصا اذا كان التعليم يقل بينهم - يميلون عموما الى أن يعلموا لغتهم هي الأساسية أو الوحيدة . ثم أن الوحي نزل على الرسول باللغة العربية ^(١) . (ونحن لا ندهش اذا سمعنا ذلك) . وهكذا كانت العربية لغة الله . ولغة الوحي . ولغة أهل الحجة . ولقد أكد الرسول وحيه وراء القرآن باللغة العربية . فكان من نتائج ذلك الخيال . ثم من نتائج هذا لاتجاه العقلي الواحد . في التأكيد على الصحة المطلقة للغة العربية . أصبحت اللغة العربية من اللغات البارزة في العالم . واحدى الوسائل الأساسية للثقافة في العصور الوسطى . وهي الى اليوم لم تزل لغة أمة موزعة في جميع بقاع الأرض .

وليس بين هذه الفكرة - أي فكرة أن القرآن نزل بلسان عربي مبين - وبين الكلمات التي ترجع الى أصل أجنبي في القرآن تناقض . كما ذكر العلماء المسلمون منذ القرن الخامس عشر للميلاد ^(٢) . كالسوطي

(١) راجع سورة اشورى - ٤٢ - ٧ . وكذلك أوجيبنا انك قرآن عربيا لسندر أم القرى ومن حولها . والآيات التي تؤكد صلة الوحي باللغة العربية كثيرة . (ع . ف) .

(٢) ورد ذكر ذلك قبل القرن الخامس عشر للميلاد . ألف منه النعالي والهرطقي . وذكره المفسرون . (ع . ف) .

(١٤٤٥ - ١٥٠٥ م) ، أو كما ذكر آرثر جيفري في كتابه : « مفردات القرآن الداخلية » ^(١) . لقد قسم السيوطي الكلمات الدخيلة في القرآن أحد عشر قسما : الكلمات الحبشية ، والفارسية ، والبوالية والهندية ، والسريانية ، والعبرية ، والنبطية ، والقبطية ، والتركية ، والزنحية ، والبربرية . أما جيفري ، فبشير إلى ما لا يقل عن خمس وخمسين لغة ولهجة دخل شيء من كلماتها في القرآن الكريم ، وأنه لما يلفت النظر أن تكون لغة معزولة عن الاتصال بالعالم الخارجي كاللغة العربية اشتملت منذ القرن السابع للميلاد على كلمات أجنبية بهذه الكثرة ، لكن لغة قوم رجل وقوم تجار في الوقت نفسه — كما كانت اللغة العربية — لا يمكن أن تكون معزولة تماما . أن العرب كانوا يتحرون مع السريان ، والفرس ، والأحباش . ثم أن الدين كانوا منهم ذوي اتجاه ديني خاص . كالرسول مثلا ، كثيرا ما كانوا يجدون فرصا مؤتنة للتحدث مع يهود والصاري . كل هذه الانصالات تبدو الإشارة إليها في القرآن ، وعلينا نحن أن نقر طعنا بأن الرسول كان يعلم بوجود لغات دينية كالعبرية ، والسريانية ، واليونانية ^(٢) .

وهنا اسمحو إلى أن استغرد قليلا . وأن أئدى ملحوظة هي أن نشوء للغات وتطورها — وهنالك ألوف منها — إنما هو أحد الأسرار العاصضة في الحياة . أن بعض هذه اللغات روائع من العقرية . ومن المنطق المنسوق . ومن التشابك في الوقت نفسه . وأنه لمن المنحيل أن تفهم كيف نما هذا البناء المشابك الجميل لهذه اللغات . ذلك لأن نمو اللغات خارج عن نطاق الشعور إلى حد بعيد . أن اللغات الطبيعية كانت موجودة قبل أن يفكر الإنسان بالحو أو باللغة أيضا . ونزمن طويل . ولا ريب أندا في أن روائع الأدب اليوناني كانت قد دوت حينما وضع كتاب النحو

(١) Arthur Jeffery *The Foreign Vocabulary of the Quran* (Gaekwad's Oriental series, vol 79, Baroda 1938)

(٢) لا ريب في أن العرب في الجاهلية عرفوا بوجود لغات كثيرة ، وعرفوا شيئا منها ورد في الشعر الجاهلي . ولما رعم مشركو مكة أن بشرا بعلم الرسول ويفهم إليه أحبار انصا ، برل قوله تعالى (النحل ١٦ - ١٠٣) . وقد علم انهم يقولون إنما يصمهم بشر . لسان الذي يلحدون اليه عصى وهذا لسان عربي مبين - (ع - ف)

الأول . ان جمال كل لغة يمكن أن يحل وأد يوصف . ولكن لا يمكن أن يعلل أكثر مما يمكن أن نعلل جمال عصفور ما أو زهرة ما . اننا في مثل هذه الأحوال يمكن أن نعجب مما نرى وأن نقول : « ما شاء الله » (١) . ولقد اتفق (ولم يكن الرسول ليستطيع ذلك لو لم يكن مؤيدا بقبس من الوحي) أن اللغة الوحيدة التي عرفها رسول الله كانت من أجمل اللغات في الوجود . ان خزائن المفردات في اللغة العربية غنة جدا . ويمكن لذلك المفردات أن تزداد بلا نهاية ، ذلك لأن الاشتقاق المتشابه والأنيق يسهل إيجاد صيغ جديدة من الجذور القديمة بحسب ما يحتاج اليه كل سائن . على نظام معين . لنأخذ مثالا على ذلك الجذر س ل م : س م معناه : نجا ، حيا ، ألقى السلام أو النجاة ؛ سالم : دخل في السلم ؛ أسلم : انقاد وحض . ومنها الاسلام والخصوع لله ؛ تسلم : أخذ شئ من يد غيره ؛ السلام : النجاة . والسلام خلاف الحرب ؛ والسليم الصحيح غير المريض ؛ السليم : الرضا والقبول ؛ الاسلام لمس الحجر الأسود بالشفة أو باليد ، التقبيل . وهنالك مسلم ، ومسلم مسالم وغيرها مما بعيا أحيانا على الحصر . ثم أن الاشتقاق يجري على نظام معين ، حتى أن القارئ اذا مرت به صيغة جديدة . فإنه يفهم معناها من القرينه . و ن دأرسى اللغة العربية ليستطيعون أن يفهموا هذه الخاصة في اللغة العربية كدأرسى للغة العربية نفسها ، ولكن الكلمات العربية أقل طوعا لمصريف من الكلمات العربية . وهكذا يبدو لك كأننا هذه اللغة التي كان يتكلمها البدو . قبل القرن السابع للميلاد . قد كان مكشورا لها أن تصح أداة لتبليغ الدين ونشر العلم في العالم .

لغة القرآن

ولغة القرآن على اعتبار أنها لغة العرب كانت . بهذا الحديد ، كما هو وما نحن هنا أيضا أمام اتفاق عجيب . فان الرسول ، مع أنه أمي . كان

(١) استعمل الدكتور سارتون ، في النص الانجليزي ، التعبير العربي .

ما شاء الله ع . ف . د .

جعلك ناصية اللغة (١) ، اذ آتاه الله بآلاء ، ووهب اللغة العربية مرونة جعلتها
 ودرة على أن تدون الوحي الالهي أحسن تدوين بجميع دقائق معانيه
 ونقائحه . وأن تعبر عنه بعبارات عليها طلاوة وفيها متانة . وهكذا ساعد
 القرآن على رفع اللغة العربية الى مقام المثل الأعلى في التعبير عن المقاصد .
 غير أن هذا كله لم يمنع من نشوء لهجات متعددة للتخاطب العادي ،
 وخصوصا حسما أصبح أبناء الأمم المختلفة يتكلمون العربية . ولكن
 القرآن الكريم جعل من اللغة العربية وسيلة دولية للتعبير عن أسرار
 مصيحات الحياة .

الحج عامل موحد ورحلة علمية

لما في المقام الثاني فقد جعل الحج واجبا على كل مسلم مستطيع
 مرة واحدة على الأقل في العمر . وقد كان الحج أمرا سهلا نسلا لاولئك
 ندين يعشون ، كالرسول ، في شبه جزيرة العرب (ولم يكن أحد يومذاك
 مكر بغير هؤلاء) . (٢) : كان الحج سفرا غير بعيد الشقة ، وفي جو كان
 أولئك المسلمون الأولون قد ألفوه . ولكن لما اتشر المسلمون في بقعه
 وسعة من الأرض . أصبح الحج أمرا فيه شيء كبير من المشقة . ثم
 أصبح القيام به عاما واحدا أو أكثر من عام . يبطى على مصعب
 لا يصدق . وعلى أنواع من الحرمان من أسباب الرفه . ومع ذلك فإن
 عددا كبيرا من الناس - وهذا يعث حقا على الدهشة - كانوا يقومون
 بحج على الرغم من كل عائق . أما الرؤساء فإن أكثرهم كان يحج في
 أغلب الأحيان أكثر من مرة . مثال ذلك أن أبا العداء الملك المؤيد صاحب حماة

١. جاء في الحديث الشريف أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال :
 « أتيت جوامع الكلم » ، وقال : « أنا أصبح العرب ، بيد أني من قريش » .
 ولا عرو فإن الله اختاره لرسالة عظيمة و « الله أعلم حيث يجعل رسالته »
 (القرآن الكريم ، سورة الأنعام - ٦ : ١٢٤ . (ع . ف) .

٢. الحق أن الإسلام أراد عند فرض هذا الركن من أركان الإسلام في
 الناس كلهم في بقاع العالم أجمع . وهذا طاهر في آيات كتاب من القرآن الكريم
 ومشهور لا فائدة من الاستشهاد عليه هنا . (ع . ف) .

حج ثلاث مرات على الأقل . وأما الرحلة العظمى ابن بطوطة ^(١) فقد حج ست مرات . وفي أثناء الموسم الذي خص بهذا الواجب المقدس كانت مكة والمدينة تزدوران وكأنهما مكان انعقاد مؤتمر دولي . وهالك كان المهتمون بالمصايف المتشابهة يجتمعون ويتبادلون الآراء . ولم يكن شئف يجتمع فقط الى الحجاج من كل حس . ويريد معلوماته بدار الاسلام (بالعالم الاسلامي) . ولكن الاحتمالات والخصاسة البالغة الى كانت تنتج من ذلك كانت كلها تثبت ايمانه بدينه وبوحدة أمته .

ولم يكن بوسع أحد أن ينحيل وسنه أبسط ولا أشد ثمر من الحج . لضمان الوحدة الروحية بين المسلمين . ولقد سنى الاسلام الى فهم تنب الوسيطة وتحقيقها قبل أن يدعو انصار المسلمين في بلاد أحسه وأجواء غربية الى ازدياد الحاجة الى هذه الوحدة زيادة بالغة . وأن الدارس للثقافة العربية لدهش من السرعة التي كانت ستن بها المعلومات بين أطراف العالم الاسلامي . من ذلك مثلاً أن وجوه الفلسفة والعلوم المتضمنة في رسائل اخوان الصفا - وهم جماعة اشتهروا في البصرة منذ النصف الثاني من القرن الحاشر للميلاد - قد عرفت في الأندلس بعد زمن قصير جداً . وكذلك عرفت آراء محيي الدين بن عربي الأشبيلي الأندلسي في الشام بسرعة . لأن محيى لسن من عربي اسمر — بعد أن حج في دمشق حيث توفي في عام ١٢٤٠ للميلاد . أما فيما يتعلق بالعلماء فإن الحج كان مساوياً للرحلة في طلب العلم في العصور الوسطى . وليبادل الأساتذة بين الجامعات . وما يشه ذلك . في أيامها هذه . ولكنه كان أهم من هذه كلها . لأن وسائل الاتصال العلمي الأخرى (كالصحف والمجلات) لم تكن قد عرفت بعد . ولقد كان بإمكان طالب العلم أن يجمع في سهولة بين الدراسة والحج . وإذا كان يساح له أثناء ذهابه وإيابه أن يتوقف في أماكن مختلفة مرات كثارا وطوالا بقدر حاجه .

(١) عاش أبو العلاء في النصف الاول من القرن الرابع عشر، وابن بطوطة

في النصف الثاني منه . Introd. 3 : 794, 1616 .

وأن يجتمع إلى أئمة العلم في كل مدينه ، أو يحسن بين يدي الأئمة
المشهورين في الجامعات المختلفة ، حتى أنه كان بإمكان الحاج أثب ،
حجه الطويل أن يتزوج مرة بعد مرة (كما فعل ابن بطوطة) . وهكذا
تاح له أن يصل بمصادر جديدة لمعومات ، نتيجة اتصاله بأهل البلاد
التي يتزوج فيها .

الصيام امتحان للإيمان ووسيلة للتنظيم

وأما في المقام الثالث فإن فرص الصيام في كل نهار من مطلع الفجر إلى
غيباب الشمس شهرا كاملا كان امتحانا قاسيا لكل مسلم ، وخصوصا من
لدو . ولكنه كان وسيلة بارعة لسرغور لإيمان في صدر كل مسلم . وليس
ذلك الإيمان أيضا . أن التعويم الاسلامي يمرى خالص . ولذلك لم تكن
شهوره تعود في كل فصل بعينه . بل تدور مع العام من فصل إلى فصل .
وهكذا يأتي رمضان في كل فصل من فصول السنة . فإذا بقى أن جاء
في فصل الحر كان الامتناع عن الشراب خاصة وعن الطعام شديدا على
الصائم وقاسيا مؤلما . وهذا يصدق خصوصا على أولئك الذين يقومون
بأعمال يدوية جسمانية . على أنه يحسن هنا أن نزيد إلى ما تقدم أن
لأعمال التي تبطل عادة في فصل الصيف تزداد بالصوم بظننا حتى سمح
حدها الأدنى ، إذا اجتمع الصوم مع قساوة الجو في آن واحد . وهذه
المحولة تصدق أيضا على الحج الذي يجب أن يتم في شهر معين من
شهور السنة القمرية ، في ذي الحجة . أن هذه الفريضة تصبح أكثر
مشقة إذا جاء ذو الحجة في أشد فصول العام حرا . على أن هذا لم يؤثر
قط على الحجاج الذين يسكنون البلاد البعيدة من أولئك الذين يجب
عليهم أن يقضوا عاما كاملا في السفر حتى يصلوا إلى مكة المكرمة . أحسن .
أن هذا قد جعل جهدهم السامي أكثر مشقة . ولكن أكثر فضيلة أيضا .
وأنجزل أجرا عند الله . ولا ريب أبدا في أن الحاج يستطيع أن يعرف
الفصل الذي يقع فيه شهر ذي الحجة من سوان تتلو . ثم يعين تاريخ
حجه حسب ذلك . وهكذا يستطيع أن يختار موسم حجه في أكثر الفصول

عند لا أو في أكثرها شدة . ولقد كان في كل حين نوعان من الحجاج :
الراغبون الذين يفضلون أن يؤدوا فريضتهم هذه بأقل جهد ممكن ، ثم
الصابرون الذين يؤثرون أن تزداد المصاعب والآلام أمامهم كيما يزدادون
فضلا وأجرا .

وأدرك الاسلام الحجة الى تنظيم شديد كيما يقوى ايمان
مسلمين وتظهر قوتهم . ومن أجل ذلك كان الصيام والحج من
المارين التي تحمل على هذا السبيل وتقوم به أحسن قيام . ان كثيرا من
الكنائس المسيحية ضعفت الى درجة التمه . لتساهلها ولتفقدان التنظيم
فيها ، ولقلة ما تعرضه على أتباعها . ان اتباع هذه الكنائس اذا دفعوا
اشراكاتهم (بدل جلوسهم على مقاعد الكنيسة) صاروا من المؤمنين
حفا . ان مثل هذه الكنائس قد تكون غنية . ومع ذلك فانها من حيث التأثير في
حكم الممودة . فإذا كره يريدون نزع كنائس ذوي ايمان . فعليكهم أن
تعرضوا عليهم نظاما شديدا ، وأن تطلبوا منهم توضحات حقيقية . ولقد
عرف محمد ذلك جيدا . وهدد علامة ثانه من علامات عبودية البوة فيه .

فروغ الحمر

وفي المقام الرابع . حرم الخمر في الاسلام (في القرآن وفي
حديث معا) . قل أن يكتشف العلم أن التقطير ينبج أشكلا مركزه من
دنت السم بسهولة . أو قبل أن يستخدم الناس التقطير في سبيل ذلك
عنى الأقل . جاء في القرآن الكريم : « يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر
والميسر والأنصب والأرلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعنكم
تلحون (سورة المائدة — ٥ : ٩٠) . أما لفظ المسكر في الاسلام فلا
يصق عنى الخمر وحدها بل على كل ما يخمل العقل . لذلك قال الرسول :
« كل ما أسكر فهو حرام » (البخاري ٧٤ : ٣) وقال أيضا (أبو داود

١١ الميسر هو القمار . الأنصب هي الأصنام . والأرلام فداح الاستقسام
أي سهامها مكتوبا . عليها بصائح محبقة ، فإذا أراد أحد أن يفعل شيئا هاما
سحب سهامها ، ثم عمل بها هو مكتوب عليه ، والرجس هو الخبث والنجاسة .

٢٥ : ٥) : « ما أسكر كثيره فعليه حرام » وهكذا كان الاسلام بعد الطر ، فمنع شرورا لم تكن وجدت بعد ، أو لم تكن قد انتشرت بعد الانتشار الواسع ، أو لم تكن أصبحت خطرة بمقدار ما هي الآن . وهكذا لم يكن بإمكان المسلم أن يتناول مسكرا وضميره مطمئن ، وذا تعاطى مسكرا فانه يكون مرتدا أو منافقا .

وخلاصة القول ان الرسول (عليه السلام) جاء بدين توحيدى هل أن يقوم في الصرانة من يقول بشرعه الوحيد بسعة قرون . ثم شعرت بتفوق اللغة العربية . من غير أن يكون عارف بلغة غيرها . وكذا سجع في الدعوه الى ايجاد مركز ثقافى للاسلام في الحج . قل أن وضع للعالم الى أى حد سيكون مثل هذا المركز هاما لشر الاسلام بين احساس كثيره وفي أهم معده . ثم كان مع السكر في الاسلام قبل أن أصبح السكر مصيبة عامة . كما هي في أيامنا هذه ، برمن طويل .

الر اللغة في حفظ الدين

واسمحوا لى الآن أن أؤكد انه لم يسح لى من قبل . ولا من بعد . أن تنصر انتصارا تاما كانتصار الرسول محمد . أن الاصرار على تفوق اللغة العربية خاصة — أو على حاجة الدين اليها هو الذى جعلها مشارها الحاضر . ثم حفظ لها هذا التفوق قرونا عديدة . ولولا هذا الدفاع الضمنى لبقيت اللغة العربية لغة قليلة بلا قمة عامة ، أو لاصحلت تماما . ولكن شأن العرب في ذلك شأن نصارى الشرق الأوسط الذين تركوا لغتهم المقدسين — الريسة والقبطيه حتى زالتا . من أجل ذلك لم يكن محمد نبى لاسلام فحسب . بل سى اللغة العربية والثقافة العربية . على اختلاف أجناس المتكلمين بها وأديانهم .

سرعة انتشار الاسلام

ولقد قلت القبائل العربيه لدين الجديد بسرعة مذهشة . وهكذا وجدت هذه القبائل نفسها للمرة الأولى في تاريخ وجودها موحدة على

أساس متين . على أساس الدين . ومن الأدلة الصحيحة على القول
الريع للإسلام وضع التقويم الهجري والتاريخ الجديد (١٥ يونيه
١٩٢٢) . ولكن غير المسلمين لا يستطيعون أن يقدرُوا ذلك حق قدره ! لقد
بدأ المسلمون التاريخ بالسنة الإسلامية بعد سبع عشرة سنة فقط من
هجرة . على حين احتاج الصاري الى ألف عام لوضع التقويم المسيحي .
ولا ريب أنه مما سهل وضع التقويم الإسلامي ورود الحث عليه في
لقرآن الكريم ^(١) ، ولذلك كان جزءا أساسيا من الإسلام ^(٢) .

وفي هذه الأثناء اتسعت رقعة الإسلام بالسيف ^(٣) . ولقد كان

(١) كانت الأشهر العربية في الجاهلية قمرية ، وكانت السنة مؤلفة
من اثني عشر شهرا . ولكن بما أن دورة القمر حول الأرض تتم في نحو
سبعة وعشرين يوما ونصف يوم ، فإن السنة القمرية تقصر نحو أحد عشر
يوما عن السنة الشمسية . فتختلف مواقع الأشهر القمرية في الفصول بين
عام و عام . من أجل ذلك كان العرب يجعلون كل سنة ثلاثة عشر شهرا
حتى يظل التوافق بين السنين القمرية والشمسية قريبا - فيما يتعلق
بفصول . وهذا الشهر الثالث عشر في كل سنة نالته كان يسمى السنة
أي المتأخر . ولقد حرم الإسلام الشيء ورد السنة الهجرية تعريده بفتح
جاء في سورة التوبة (٩ : ٣٦ وما بعدها) « أن عدة الشهور عند الله
سأ عشر شهرا إنما السبيل يراى في الكفر ، يصل به الذين كفروا .
حنونه عاما وجرمونه عاما ، ليؤثنوا عنه ما حرم الله ، فحلوا ما حرم الله ، رين
هم سوء أعمالهم ، والله لا يهدي القوم الكافرين » (ع . ف) .

(٢) الفرق بين القرآن والأجبل عظيم جدا ، وهو يرجع الى أن القرآن الكريم
قد صدق به النبي نفسه والى أن القرآن يشمل على جميع الأسس
لضرورة لإنهاء الإسلامية . الدين والفقه والشريع والتقويم واللغة . أما
الأجبل فلم يتعرض لهذه . ونحن إذا صرفنا النظر عن نحو ألف لهجة نقل
سها الأجبل وحدها أن الكنيسة الكاثوليكية قد نجحت بقرينا في استدال
عـ الأجبل الأصلية بلغة ثابته (معدسة) هي اللغة اللاتينية . ثم أن الأجبل
لم يوجد تقويما ، والتاريخ المسيحي (الميلادي) وضعه راهب سيشي اسمه
بويسوس أكسيوس نحو عام ٥٢٥ م . ولقد كان قبول هذا التاريخ
بطيئا وتدرجيا حتى أن البلاط البابوي نفسه لم يستعمله استعمالا دارجا
الا في القرن العاشر الميلادي .

(٣) معظم المؤرخين العربيين يجعلون موضع السيف في الفتوح الإسلامية ،
واسن أن العرب لم يكن يقل منهم الا الإسلام ، فإن لم يدخلوا في الإسلام
قوتوا ، وعلى هذا ، الحديث امرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا اله

الفاخود في ذلك محطوظين . بقدر ما كانوا شجعانا . ان انتصارات العرب لم تكن تسعة لقوتهم الذاتية ، ولا لحميتهم التي كانت بلا ريب عظيمة . بقدر ما كانت نتيجة لضعف حصومهم واختلاف كلمتهم . ولقد كانت الامبراطوريتان البيزنطية والفارسية مترعزعتين تريدان ان تنقضا منذ قرون سقت . كما ان كل واحدة منهما اصعبت اخنها بالحروب التي لم تتوقف بينهما قط . ثم ان ادارة البيزنطيين الدينية والسياسية كانت رهنفت نصارى آسيا . وبغف في معاملتهم من الاحقار والظلم حدا جعل اولئك النصارى متأهبين لان يخونوا سادتهم من أبناء ملتهم . حينما يجروا على ارضهم عدو ما . انه لم يكن بامكان احدى تينك الامبراطوريتين (الفارسية والبيزنطية) ان تثبت في وجه العاصفة . وهكذا نجد ان قصة السوح الاسلامية الاولى قد سارت في الشرق القديم كما سارت فوج هجر حلالا واوروبا في عصرنا الحاضر : سقطت دمشق في عام ٦٣٥ . ثم كانت معركة القادسية ، في العراق في العام نفسه . كما ان القدس سقطت . ثم اجسحت بلاد ما بين النهرين في عام ٦٣٧ لميلاد . وكذلك فتحت مصر ما بين عام ٦٤٠ وعام ٦٤١ . ثم انتهى فتح ورس في عام ٦٤٢ م . اما فتح الاندلس فتأخر عن ذلك قليلا . اذ تم في عامين اثنين بين ٧١٠ و ٧١٢ لميلاد . أي بين سنة ٩١ و ٩٣ للهجرة . وهكذا تمت جميع هذه الفتوح في أثناء القرن الأول للهجرة (١)

= الا الله، وعلية الآيات الواردة من السورة التاسعة من القرآن الكريم ، (النصارى واليهود) من غير العرب فكان مسوره التوبة او براهه . اما هل الكتاب من حقهم ان يطولوا على اليهودية او النصرانية . اذا دفعوا خزية - صريسة معطوغة لميت مال المستميين - مغاليل الدفاع عنهم وعن اموالهم ، ومغاليل اعنائهم من مريضة الجهاد ، أي الذهاب مع الحوش الاسلاميه الى الحرب .

(ع . ف) *

(١) راجع تفاصيل ذلك في Philip Hitti *History of the Arabs* (London 1937, Isis 28 503-04), fourth edition (1949).

نقلت الطبعة الرابعة من كتاب الدكتور فليبي حتى الى العربية بعنوان تاريخ العرب (مطول) في ثلاثة اجزاء بيروت . دار الكشف للنشر ١٩٤٩ - ١٩٥١ (ع . ف) *

صراع بين الحديث والقديم

ولكى نستطيع أن نقدر هذه الحوادث حق قدرها يجب أن نذكر أن العرب لم يكونوا إلى ذلك الحين هجروا حياتهم البدوية تماما ، ولذا شبه بعض المؤرخين الفتوح العربية في آسيا وأفريقيا وأوربا بهجرات البرابرة (الهون والقوط والوندال وسواهم) ، وهى الهجرات التى قوصت أركان الامبراطورية الرومانية الغربية (٤٧٦ م) ، ثم استمرت فى تدمير معالم المدنية فى أوربا قرونا كثيرة بعد ذلك . ان البدو لم يكونوا مختلفين عن الهنود الحمر - فى محاسنهم ومساوئهم . ولقد يبدو لبعضنا مع النظرة الأولى أن فتح العرب للبلاد التى بلغت الذروة من المدنية (فارس واليونان) كان أمرا يحمل فى نفسه تناقضا شديدا ، أمة متأخرة فى ركاب المدنية تحمل مشعل الحضارة والرقى الروحى الى بلاد بلغ أهلها الذروة من الحضارة والرقى . لتخل مثلا أن الهنود الحمر قد نجحوا فى احصاع الأوربيين الذين طرأوا على أمريكا . ثم ذللوهم فى خدمتهم . (فهل فى ذلك شيء معقول ؟) . على ان هذه الموارنة (بين العرب وبين الهنود الحمر) قد تفيد فى تبيان الفارق بين الفاتحين وبين ضحاياهم (١) ، ولكنها غير صحيحة فى أساسها . ان الفاتحين العرب كانوا بلا ريب أميين ، ولكمهم كانوا موحدين تماما ، وكان يعمر قلوبهم ايمان وطيد . وفى هذه أيضا انتصر النبى انتصارا يينا . ان الفتوح العربية لم تكن نتيجة صراع بين برابرة جياع ، وبين سكان مدن أخذوا يتقهقرون فى سلم المدنية ، بل كان فى الأكثر صراعا بين دين جديد وثقافة جديدة ناشئة فى المحل الأول ، ثم بين ثقافات منحلة متعادية قلقة فى المحل الثانى . هذه الفتوح كانت الى حد بعيد تحذ طيعة حرب صد الصليبيين . ولذا كانت انتصارا للهلل على الصليب .

هذه التفاصيل لتلك الجهود المدهشة فى الفتح الاسلامى تهم المؤرخين

(١) يقصد المؤلف أهل البلاد المفتوحة . مع ان جميع المؤرخين وفيهم الدكتور سارتون يفسه يعدون فتح العرب للشرق الاوسط انقاد لاهله راجع ص ٤٥ ، ٤٧ ، ٤٨ (ع . ف) .

الساسيين . ولكن الحالة النفسية للأسس التي تقوم عليها تلك الفتوح فيما يتعلق بالجابين (بالعرب ثم بالروم والفرس) هي ذات أهمية كبرى لمؤرخي العلم . لقد سبق للإيمان المسيحي أن تزلزل بالمنازعات اللاهوتية التي امتدت قرونا عديدة . وبالحرمان^(١) المتبادلة ، وأدى ذلك الى اسفاسل التصارى في الشرق الأوسط جيوش الفاتحين المسلمين على أنها منقذة لهم من استبداد الكنيسة الأرثوذكسية . ثم ان الاسلام - من ناحية أخرى - كان لا يزال عضا موحدا ، كما أن المجاهدين المسلمين كانت تملك عليهم لبهم آمال عظيمة بالثروة والسلطة في هذا العالم . وبالتواب الخالد في العالم الآخر . وكان الايمان في الاسلام بسيطا ، كريما ومعندلا . ومع ذلك فقد كان بالامكان أن تشبع فيه الحماسة حين البأس الى حد بعيد . فنقلب المجاهدون حينئذ ذوى حمية اما أن يبلعوا بها الظفر ، أو أن يسقطوا دونه شهداء ؛ لقد كان الطفر والاسشهاد عندهم سيان . ومع أن الشعوب الاسلاميه لم تكن عاجزة عن التسامح ، فان قوتها كانت في الدرجة الأولى تناج الشعوب بالموثق الذي خلفه في نفوسهم النصر السهل الذي فتحوا به البلاد ، كما أنه كان أيضا نتيجة احقار أصيل فهم لندحلاء^(٢) .

(١) الحرمان تعير كسي مسيحي مؤداه ان نصدر سلطه دينيه على احد الافراد التابعين لها - عمليا أو نظريا - حكما تعد به هذا الفرد خارجا عن نعمه الكنيسيه وعن حمايتها ، فنحظر معاملته ودفنه . . حتى يوب . (ع . ف) .
 (٢) اطلب السير توماس اربولد ٦٤١ - ١٩٣٠ م) في وصف التسامح عند الشعوب الاسلاميه نحو غيرهم من الشعوب ، وذلك في كتابه : *The Preaching of Islam, A History of the Propagation of the Muslim Faith* (London 1896, reprinted 1913) رعية منه في أن يصهر بمظهر الصديق لهم . اما المحادلون عن الاسلام فيستشهدون عادة بالآية ٢ : ٢٥٧ : « لا اكراه في الدين » . ولكن نمة اشارات كثيرة في القرآن واخذت بفتح ورجعة جهاد ومقاتلة لشركى (Introd 3 1274, 1722, 1862) وهكذا .
 تستطيع الانسان - فيما يتعلق بالتسامح - ان يظهر المسلمين في صورة وصاءة (كما فعل اربولد . او في صور حالكة شديدة الظلمة ؛ وهذا يصدق أيضا على التصارى .

تسامح العرب

ولم يستطع الغزاة المسلمون في بدء فتوحهم أن يمعنوا في الضيق على أهل البلاد المفتوحة . لأنهم كانوا بحاجة إلى التعاون معهم ^(١) . لقد كن أبناء البادية ^(٢) شديدي الحصل إلا بدينهم وبشعارهم . ولو لم يصمموا بالتسامح لما قدروا على إدارة البلاد التي فتحوها . ولقد كان من حسن حظ المسلمين أن وجدوا — في البلاد التي فتحوها — قرا من اليونان . والريان . واليهود ، والأقباط ، وأهل العراق ، وأهل الأندلس ، وسواهم يريدون أن يخدموهم . على أننا إذا قلنا أن العرب قد احتاجوا إلى المعونة العادية من هؤلاء الأجانب . فإن قولنا لا يعبر عن الحقيقة الفائلة بأن الامبراطورية الإسلامية شيدت على التعاون مع اليونان والفرس والأقباط وغيرهم . نصارى ومجوسا وصائنة ويهودا . والعرب لم يحتاجوا إلى معونة هؤلاء في الدين والآداب . أو هكذا خيل إليهم . ولكنهم أدركوا سرعة مذهبه أن النور الثقافي الذي امتاز به الأحياء إنما كان راجعا في الأكثر إلى جهازهم الفني والعلمي .

هذا الإدراك هو الذي فسح المجال لما يحور أن نسميه معجزة العلم العربي ، وأوردت كلمة معجزة لرمز إلى تفسير ما بلغ إليه العرب في الثقافة والعلوم . مما يفرح تقرسا عن نطاق التصديق . وليس لذلك شبه في ترويح العالم كله . ما عدا حسن اكتساب اليابانيين لعلم الحديث ، وللبراعه الفنية

(١) ان سبب تسامح المسلمين كان حثا من دينهم على ذلك . وم نكر لسبب مادي كالتعاون مثلا مع أهل البلاد المفتوحة . (راجع الحاشية السابقة) (ع . ف) .

(٢) يحظى معظم المؤرخين الغربيين حين يظنون أن العرب كلهم كانوا أهل بادية ، إذ كان فيهم أهل مدن أيضا ، ولقد انجبت البادية كما انجب الحضر . (ع . ف) .

في أثناء العصر الممحي^(١) . ان هذه الموارثة مفيدة . لأن الموقف كان في
الحالين واحدا . ان قادة الثقافة بين العرب قد أدركوا الحاجة الملحة الى
العلم اليوناني ، بقدر ما أدرك اليابانيون في الجيلين السابقين حاجتهم
الى العلم الأوروبي الحديث . ولقد كان خبر المعلمين لكث الأمتين الحاجة .
الحاجة الملحة . على أن تترك الأمتين قد اتصفتا بالارادة . وبنوع من
نشاط الروحي الذي يتغلب على المضاعب الشاقة : وانه لم يكن لاساء
نسك الأمتين احتبار كاف ولا اضطد على الموقف لتأمل في المضاعب
فيخافوا منها ، بل انهم هجموا عليها هجوما . وكل شيء يصح أهون في
أعيننا اذا لم نتوقف لتتخيل ما فيه من صعوبة .

نهضة العرب العلمية

ويجب أن ندرك أن ذلك اسطور اندي لا يكاد يصدق في العلم
العربي لم يبدأ الا منذ القرن الثاني للهجرة . ان الرسول كان عظيم
لاهتمام بالآخرة . وبقصايا الأخلاق والدين مما يتعلق بهذه الحياه الدنيا .
حتى انه لم يستطع أن يصرف اهتمامه الى العلوم^(٢) على أن نصرنا من
المعتزدين عن الاسلام في العصر الحديث حاولوا أن يقرأوا عدد من الآراء

(١) يشير المؤلف هنا الى زمن الامبراطور مو - تسو - هي - تو (١٨٦٨-١٩١٢) ، قريب من نصف قرن . هذه المدة كانت اقصر من المدة التي قضاه
العرب في اكتساب ثقافته اليونانية ، غير ان هذا كان طبعيا جدا . فان كل
شيء كان في العصور الوسطى بظا سيرا . ولم يكن عند العرب يوم
بهضمهم الثقافية تلك الادوات المعينة التي تسهل الحطوات التربوية
(الطباعة ، والمحركات البخارية ، والتلغراف وسواها) . ان اكتساب
اليونانيين لثقافته الصينية كان مواريا في طول المدة لاكتساب العرب
لثقافته اليونانية . ولكنه (اي الاكتساب الياباني) وقف عند ذلك الحد ،
سما الاكتساب العربي كان حلقه في تطور ثقافتنا العربية . من اجل ذلك
يمكننا هنا في العرب أن ندع دراسه الثقافه اليابانيه حاسا . ولكننا لاسنطعم
فعل ذلك بالثقافة العربية الا اذا أردنا أن نتحمل شيئا من الخسارة .
(٢) سبق أن ذكرنا رأي الجاحظ في هذا الموضوع . راجع ايضا مقدمه
ابن خلدون (المطبعة الادبية ، الطبعة الثالثة ١٩٠٣ ، ص ٤٩٤) : « فانه
صلى الله عليه وسلم انما بعث ليعلمنا الشرائع ولم يبعث لتعريف الطب
ولا غيره من العاديات ... » (ع . ف) .

العمية في القرآن . ولكن هؤلاء لا يستطيعون ذلك الا اذا خلعوا على بعض الكمات معاني لم يكن بالامكان ان تخطر لأحد في عهد الرسول ، ولا لمن جاء بعد ذلك نقسرون كثيرة (١) . وكذلك الحلفاء الراشدون . فانهم لم يكونوا أكثر اتجاهها نحو العلوم من الرسول . لاشتغالهم مثله بما كان أعظم شأنا : بشر الدعوة وبالفرح . وهكذا يبدو لنا ان الوفاة الذين كانوا في خدمة العرب كانت معرفتهم بالأعمال والادارة أكثر من معرفتهم بالعلوم . كما يبدو لنا أيضا ان هؤلاء كانوا قد فقدوا تذوقهم للرقى الفكرى الذى حققه أسلافهم .

عبقريّة العرب العلمية

وخلاصة القول أنه لم يكن ثمة علم في المدينة ، أو في مكة ، أو في دمشق ، ومعجزة النهضة العربية لم تكشف عن نفسها قبل تأسيس الخلافة العباسية في بغداد . ولكن ماذا حدث هناك ؟ لقد نشطت العبقريّة العربية بفعل الخضره الأبرانيه . ان محاسن الأُميين العربية والفارسية (ومساوئهما) كان بعضها يتمم بعضها . وهكذا نرى ان محجزة العلم العربى كانت ترجع في الأكثر الى الاثر (٢) الذى حدث بفعل النشاط والجد العربيين . وبفعل الايمان الاسلامى فى الفضول والجدل لنارسيين . أو بكلمة أعم . ان العلم العربى كان ثمره للعبقريّة السامية

(١) أوضح الامثلة على معارفة حسن التعليل فى ذلك ما وقع فيه السج صطاوى جوهرى فى تفسيره الكبير « الحواهر فى تفسير القرآن الكريم » (٢٦ جزء) ، طبع عام ١٩٢٢ م وما بعدها) ، وفى غيره من الكتب مثل التاج الموضع بجواهر القرآن والعلوم (١٩٠٦ م) وهو - فيما ظهر - احصا لكتاب آخر اكبر حجما ، وقد نقل الى الفارسية والتركية . راجع Charles Clarence Adam *Islam and Modernism in Egypt* (1933) P. 245 وقد تفصل نقل هذه المعلومات الى زميلى فى جامعة كولومبيا (Arthur Jeffery) فى رسالة مؤرخة نيويورك ١٥ مارس ١٩٥٠ .

(٢) اسمعيل المؤلف لعطه Catalization ، وهى لفظة مستعارة من محضر الكيمياء . فان التعبير Catalytic agent يقابله فى العربية التعبير « عامل مساعد » . أى « الخاصة التى تكون فى مادة فتؤثر فى مادة أخرى (يحللها من غير ان تتأثر هى » . (ع . ف) .

التي خمرت بالعقيرة الفارسية . ومع أن هذا التعبير عام جدا . فانه يساعدا على تفهم ما حدث في بغداد على وجه التقريب ، حيث استطاع لحكام المسلمون في مدى قرنين (٧٥٠ — ٩٥٠ م) أن يدفعوا رعاياهم من أولئك الذين يلمون بلغات متعددة — وأكثر هؤلاء نصارى أو يهودا — لنقل المعارف اليونانية الى اللغة العربية .

يحاول نفر من المؤرخين أن يخسوا قدر هذا الاتح العظيم بادعائهم أنه لم يكن فيه ابتكار ما . وبأن العرب لم يكونوا سوى مقلدين . ان هذا الحكم ينكشف عن خطأ فادح ، فمن بعض الوجوه ليس ثمة شيء يمكن أن يعد ابتكارا صحيحا أكثر من ذلك الطبا الذي تملك على القادة العرب حواسهم ، في سبيل المعرفة . على أننا لا نشك في أن قسما من هذه المعرفة احتاج اليه العرب حاجة مباشرة للإدارة وللحكم . غير أنهم مروا مراسريعا من هذا الطور النقصي الى طور أسمى منه . فالطب ، كما يقال . كان فنا عمليا ، وكذلك الفلك ، اذا أريد به النجوم فقط . ولكن العرب نقلوا الى لغتهم شيئا كثيرا من الرياضيات والفلسفة ، مما يعد في أسمى لمعاني الأفلاطونية^(١) . ولقد يعترض معترض فيقول ان النقلة كانوا في الأكثر أجنب غير مسلمين ، وغير عرب في الأغلب أيضا . وهكذا وجب أن يكون كل فضل لهؤلاء النقلة وليس لهؤلاء الذين استأجروهم . لا ، أن الفضل يجب أن يكون للفريقين . لقد كان النقلة أجنب لسبب بسيط ، هو أن عمله النقل تحتاج الى شيء من المعرفة بلغات متعددة ، مما لم يتوفر للفتاحين . ان الناقل من لغة الى لغة يجب أن يكون قديرا جدا في اللغتين معا ، وتلك الميزات اللغوية التي توفرت في الأجنب كانت ضرورية . ولكن لم تكن كافية . ان كل عمل — وخصوصا اذا كان طويلا ومرهقا — لا يمكن أن ينهض به ما لم يكن ثمة أحد يحاح اليه حاجة ملحة . وما لم يكن قوي

(١) الأفلاطوني هنا (نسبة الى افلاطون) هو الروح الحاصل من العلائق المادية أو الأسباب السعوية . ويمكن أن يقلله في العربية الحب العدرى . الميل العدرى ، الانجاه العدرى ، المعنى العدرى . الح . نسبة الى بنى عذرة — اذ اشتهر بنو عذرة بالحب الروحي البعيد عن الصلات المادية . (ع . ف) .

ذلك مسعدا لأن يروق الشخص الذي يريد أن ينهض به والحكام
العرب كانوا راغبين في عمل القلة . وكانوا كثيرا ما يتنافسون في ذلك
مفعه شديده . أي كانوا هم البادئين والباديء أفصل .

الابداع والتقليد

ويحسن ب أن نقف هنا قليلا لنسأل أنفسنا : ما التقليد ؟ كك
طعا تقلد أبونا وأساتذتنا وأبطالنا ، غير أن الأدعياء منا يقلدون تقليدا
ردنا . فحكماء ما ظهر من الأشياء . أما الرجال العاقرة . فانهم
يقلدون تمدا خبر . ثم يدعون منه أشياء جديدة . ان غاية الهديب على
لحصر هي التقليد الحكيم لأحسن لأمتة . انه تقليد الماهج لا تقليد
النسج . والتقليد العربي كان على مراتب متعددة . وكان أنواعا متنوعة
منها الجيد ومنها الردي .

أما مهمة نقل الآثار الفلسفة العلمية من لغة اليونانية . أو من اللغة
البرانية . إلى العربية . فهذه الطوت على صعوبات عظيمة . فالنقلة
الأولون حتى متأخرون منهم أمثال حين بن اسحق الذي شهد النصف
الثاني من القرن التاسع للميلاد — اضطروا إلى خلق كلمات جديدة لم يسبق
أن اتفق العرب عليها في اللغة العربية . وكان هؤلاء النقلة إذا أتوا مثلا
إلى نقل شيء من آثار افلاطون . أو أرسطو ، أو أفقليدس ، أو أرخميدس ،
أو ابقراط . أو جالينوس . ثم اضطموا بمعنى جديد عليهم عمدوا في التعبير
عن ذلك المعنى إما إلى إيجاد مصطلح جديد . أو اللجأوا إلى تعبير تفسيري
أعبر للمصطلح الأصلي ^(١) وكذلك كانوا ، إذا استحال عليهم هذان
الأمران معا . يشون الكلمة اليونانية بلفظها الأصلي ولكن بالحروف
العربية ^(٢) عبر أن هذا العمل لايجاد الألفاظ والمصطلحات الجديدة .

(١) التعبير التفسيري هو أن نعبر عن معنى كلمة واحدة بالفاظ متعددة
(ع . ف .)

(٢) نجد في النصوص القديمة وفي الكتب الفلسفية المقدمة تعابير
أحسنه كثيره . أمثال حومتريتا . اسطرونوميا . وايديميا (الهندسة .
ثم نحن لانزال اليوم نقول جغرافيا . (ع . ف .)

كان لحسن الحظ مسورا الى حد ما . لطاوعة اللغة العربية مضبوطة شديدة
لاشفاف الكلمات (كما رأينا من قبل) . فان عددا كبيرا من الكلمات
الجديدة يمكن الاتيان به من جذر قديم . ومع أن هذه الكلمات لم ترد
في القرآن أو في الحديث . فانها تنطق على قواعد اللغة العربية انطباقا
يصعب علينا معه أحيانا أن ندرك أنها جديدة . حتى أن أحدا ليكاد أن
يحكم بأن هذه الكلمات قديمة قدم اللغة العربية نفسها . وانها ولو لم
تكن استعملت من قبل — موجودة بالقوة . ويمكن اللجوء الى استعمالها
عند الحاجة (١) .

رسالة العرب في العلم

معظم النقول العربية نقلت من اللغة اليونانية . ثم مباشرة أو
بواسطة النقول الاربانية . وبعض هذه نقلت من السنسكريتية . وربما
من لغات شرقية أخرى غير أن معرفتنا بما استعاره العرب من لغة

(١) للاطلاع على عدد من هذه الصعوبات في ايجاد المصطلحات العلمية

انظر

Ame la Marie Lechon *Le langage de la Langue Philosophique*
d'Ibn Sina, 510 Paris, 1938; Isis 33 : 326-29). ومشكلة اتحاد

المصطلحات في اللغة العربية يعود اليوم الى الطيور . يمكن ان يصحح -
وعلى الرغم من انهوى الكامي في اللغة العربية لاشفاق الكلمات الجديدة
ونحنها ، فان الحلول الصالحة غير متيسرة دائما . وهكذا نجد اللغة
العربية الحديثة مملوءة بالكلمات الأجنبية ، كما هو الحال في اللغة
الانجليزية تقريبا . أما فيما يتعلق بالمصطلحات الطبية فانظر القاموس
المستفيض الذي نشره وراره المعروف بمصره Mohammad Sharaf
English Arabic Dictionary of Medicine Biology and Sciences
quarto, 1048 pp. Cairo 1929; Isis 14 : 537)

ومن المؤكد أن عددا من هذه الصعوبات نجم من جديد . كلما أردت من
مجموع من المعلومات الى لغة ليست معدة لمثل هذا العمل . فالعلماء الذين
ناشروا النقل من العربية الى اللاتينية في العصور الوسطى واجهوا مثل
الصعوبات ، وكذلك علماء العصر الميحي (راجع الحاشية ١ ، الصفحة ٣٧)
الذين نقلوا من اللغة الانجليزية (ومن غيرها من اللغات الأوربية) الى
اليابانية وحدوا أنفسهم أمام المشكلة ذاتها . وهكذا نجد أن كل حال تساعد
تبيان الأحوال التي سبقت . أما في ما يتعلق باليابان خاصة فارجع الى :
Sir George Baily Sansom *The Western World and Japan* (pp
399-404, New York 1910, Isis 41).

السكرية وغيرها من اللعب الشرقية لا تزال ناقصة ، لأن العلماء
الذين عرفوا العربية والسكرية (والفارسية والصينية وسواهما)
كثيرون قليلون . وهذا يدل على مظهر آخر من مظاهر الابتكار والمبادأة ^(١)
عند العرب . ان العرب لم يستغلوا الآثار اليونانية فحسب ، بل أغلب الظن
أنهم لم يدركوا أول الأمر ما في تلك الآثار من القيمة العالية .

لقد كانوا يتشوقون الى أن ينهلوا من كل مورد ، ثم انهم لم يتأخروا
كثير قل أن يفهموا تلك المعرفة ويستنتجوا منها أشياء جديدة .

وأعظم الابتكارات العربية في الرياضيات والفلك شيان : علم
الحساب الجديد . وعلم المثلثات الجديد . ومما تحس الإشارة اليه هنا
أن هذين العلمين فاما على أساس مزدوج من الآثار السكرية
واليونانية . ومثل ذلك كان شأن الطب ، إذ عرف الطب من طريق الهند
ومن طريق اليونان معا . وشاهد ذلك في كتاب فردوس الحكمة لعلي بن
رس الطبري الذي عاش في النصف الأول من القرن التاسع ^(٢) . وبعد
بضعة قرون رأيت رشيد الدين الصوري الذي شهد النصف الأول من
قرن الرابع عشر . وكتب في الفارسية أكثر مما كتب في العربية — وهذا
صحيح — يوحى لي أنه استعار أيضا من العلوم الصينية غير أن
أولئك الذين ينكرون محاسن العرب . ويبخسونها قيمتها ، ليحججون مرة
ثانية بقولهم : ان الأخذ من مصادر متعددة ليس ، على كل حال ، خيرا
من الأخذ من مصدر واحد . تلك طريقة في المحادلة مضللة ، وخصوصا
إذا كان الكلام يتناول الرياضيات . ثم ان الرياضيين العرب في هاتين

١ المصنوع بهذا المعنى Initiative على عمل الأشياء ، والعمل
بها قبل الآخرين . (ع . ف) .

(٢) علي بن ربن الطبري هو غير محمد بن جرير الطبري المشهور الذي
عاش في النصف الأول من القرن العاشر وصاحب التاريخ العام المستعص
تاريخ الرسل والملوك ، والتفسير العظيم . ان تعليقى على كتاب علي بن
رس الطبري (Introd. 1 574) لم يكن وافيًا . لأنى لم اعرف فردوس
الحكمة إلا عام ١٩٢٧ م ، إذ نشر الكتاب في العام التالي بعناية م . ز .
صديقى برلين ١٩٤٨ . انظر تحليل ماكس مايرهوف لهذا الكتاب
(Isis 16 . 6-54) اما تعليقى على رشيد الدين ، وقد ظهر بعد عشرين
عاما ، فقد كان اوفى وأكثر دقة . (Introd. 3 : 969-76)

الحالتين المذكورتين آتف - لم ينسخوا من المصادر اليونانية والسنسكريتية نسخا - ولو أنهم فعلوا ذلك لما جاءوا بعائدة ؛ ولكنهم جمعوا بين المصدرين ، ثم ألحقوا الآراء اليونانية بالآراء الهندية . وإذا لم يكن هذا الذي فعله العرب ابتكارا . فليس في العلم اذن ابتكارا على الاطلاق . فالابتكار العلمي في الحقيقة انما هو حياكة الحيوط المفرقة في نسيج واحد ؛ وليس ثمة ابتكارات مخلوقة من العدم .

ولعل معترضا آخر يقول : ان العلماء العرب لم يفهموا مسدى اكتشافاتهم تمام الفهم ولقد ستتأنا مثلا ^(١) أنهم لم يستخدموا الأرقام الهندية (العربية) في المناسبات التي يمكن ان يكون استخدام هذه الأرقام فيها أحسن نفعا . في الألواح الملكية والخرافة مثلا . ولكن ماذا في ذلك من الغرابة ؟ ان ما تنطوي عليه الاكتشافات - وخصوصا اذا كانت تلك الاكتشافات هامة فعلا - يكون عادة مخيف المظاهر متسع المدى الى درجة انه ما من عالم . مهما كانت عبقرية عضيه . يستطيع ان يفهم تمام الفهم كل ما يفعله . ان اشجار الآراء المنعجه يقوم به عادة رجال أقل قدرا من الذين اكتشفوا الآراء . ولكن يكون أحسن استفادة عمدة منها . وعنى أساس هذه الحققة اسفل رويي جرام آراء فاراداي . وطين ماركوسى آراء كلارك ماكسول ^(٢) .

(١) Introd. 3 : 133; 797-98

(٢) فاراداي Faraday (ت ١٨٦٩ م) عالم انجليزى في الطبيعيات والكيمياء قام بأول بحريه بدائيه لاشجار العارات . ولصعد الغاز وبحوله الى سائل . واستطاع السيطرة على المحرى الكهربائى وانارة محار كهربائيه بالمحورة من شريط الى آخر أو بواسطة المضطه . مما نادى بحقيق المحرك الكهربائى . وله ايضا قانون التحليل الكيماوى .

ورنوني جرام Gramme (ت ١٩٠١ م) عالم بلجيكي اخترع عام ١٨٦٧ م آلة تسير بالمحرى الكهربائى المسدل والمساوب . ثم فاده ذلك الى تسير الآلات بالمجرى المستمر . وفي عام ١٨٧٢ م استطاع جرام ان يسي الدينامو ، المحرك الكهربائى ، لوليد القوة المحركة ولوليد الضوء .

وكلارك ماكسول Maxwell ٢٨٧٩ (In the Enc. Br James Clare Maxwell) عالم اسكتلندى اشتغل بالطبيعيات ، وبدأ بحثه في احكار العار . وهو صاحب قانون تورع سرعة الدرات . وصنع ماحث كثيرة في الكهرباء والمغطس موضع الانتفاع . ودور ملاحظت فاراداي في الكهرباء بعلامات رياضية . اى انه يمكن من ان يحلل آراء فاراداي الطر قيمه عمليه صاعية وتجارية .

اما ماركونى Marconi (ت ١٩٣٧) فهو عالم ايطالى سجل اختراعه لتلغراف اللاسلكى في لندن عام ١٨٩٦ م . ثم استغل ذلك تحار .

لنرجع في العراق في العصور الوسطى ان غرابة العلم العربي وخصه
مع رجعت في الحقيقة الى أن ذلك العلم جمع العناصر اليونانية الى
العصر الشرفى . ونحن منها مركبا جديدا . أو انه جعل خلق هذا المركب
ممكنا في المستقبل . ولقد كان «لامكان أن يتقل العلم اليوناني على يد
أور» لو تمكن الصراية الكاثوليكية مفصوله تماما عن الصراية الأرثوذكسية
بجدار من «العصب وسوء الظن والبغض» . وما أن هذا الجدار كان لسوء
لحظ موجودا . فانه لم يكن من سبل الى اتصال للعلم اليوناني السابق
«اللاتسي» اللاحق الا من طريق المنحنى العربي . وإذا نحن نظرنا
الى علم العربي من وجهة نظر التطور الانساني عموما وجدنا أن الثقافة
العربية الاسلامية كانت ذات أهمية بالغة . لأنها تؤلف الصلة الأساسية
بين الشرق الأدنى وبين العرب . ثم بين الشرق الأوسط وبين آسيا ابوزيه.

الشرق مهد الثقافة الأوروبية

إن الأهمية العظمى التي يسمع بها لشرق الأوسط . وهي أنه أم
مهددة العرب قد قام الرهان عليه فيما تقدم هنا . ولكن حب الحقيقة
يجبنا على أن نبدى تحفظا . أو كما يقول المحامون : أن نقدم اعراضا
ان لثقافة عربية التي كانت الثقافة الرعية منذ القرن التاسع الى القرن
الحادي عشر . ثم نصب على عايه من الأهمية ثلاثة قرون آخر (ولذكر
أن سه قرون ليست شيئا يسيرا) قد درجت من مهدها ، لا شك في
ذلك . ولكن الفتوح الاسلامية حملت هذه الثقافة شرقا الى الهند وأواسط
آسيا حتى الصين . ثم غربا الى اسبانيا ومراكش . أى الى طرف العالم فإذا
بحر سميت هذه الثقافة اذن ثقافة الشرق الأوسط فحسب ، فإنا نكون
حسب شرفا ، إذ أن تلك الثقافة كانت امتدت في العصور الوسطى
من شرق الأقصى الى المغرب الأقصى . ولنذكر أيضا أنه كان لهاتين
السميتين قبل كولومبوس واكتشاف أمريكا قيمة مطلقة . لأن
اسميه المعروف يومذاك لم يكن يجاور هذين الجديين ففي القرن العاشر
بملاذ أصبح نطر الأندلس والمغربى مركزين أصليين للثقافة

العربية . بعبارة أخرى كان جزء أساسي مما ندعوه بالشرق الأوسط يومذاك في المغرب الأقصى . في المغرب الأقصى تماما . آخر العالم غربا . وهكذا نجد أن التعبير « الشرق الأوسط » تعبير مضلل (١) . نحن دائما شعوب شرقية بالأصافة إلى جيراننا العربيين . وغريون بالمقارنة إلى الشعوب التي تعيش إلى شرقنا (٢) . ولكننا نقبل هذا التعبير كما نقبل كلمات أخرى كثيرة على أنها بقاء من جاهلينا الماضية .

ذروة الفلسفة العربية

أما ذروة الفلسفة العربية والحكمة العربية فسنت ملفها على يدي رحلين مغربيين . ومن غرب الاتفاق أن يولد هذان الرجلان في مدى بضع سنوات وفي مدينة واحدة . هي قرطبة التي كانت أعظم المدن في غرب أوروبا بهاء وعظمه والتي كانت المناصب الغربية ل بغداد (٣) . ولد ابن رشد في قرطبة عام ١٢٦ م ، وولد موسى بن ميمون بعده بتسع سنوات في المدينة نفسها . والواقع أن ابن ميمون اضطر إلى الهجرة إلى المشرق بعد ثلاثين عاما من مولده (١١٦٥ م) . وأنه دون أكثر آثاره في القاهرة . ولكن هذا لا يدل من الحقيقة شيئا ، وهي أنه كان مغربا كان رشد .

١ . إذ اعتبرنا الشرق الأوسط تعبيرا جغرافيا ، فهو يقع شرق البحر الاسود الأوسط ، ولكن إذا عدديناه تعبيرا دالا على جهود المسلمين في العصور الوسطى في العلم والفلسفة فإنه يجب أن يسود المشرق والمغرب معا . وهذا ما عناه الدكتور سارتون بقوله أن الشرق الأوسط (من الناحية الثقافية) تعبير مضلل . (ع . ف) .

٢ . يصف بعض الأمريكيين سكان ولاية ماين Maine في الولايات المتحدة بأنهم يعيشون « هنالك شرقا » . ومن الناحية الثانية نجد الكتب الصمسة التي تتكلم عن أواسط آسيا والشرق الأوسط تحمل أمثال هذا العنوان : هي - يو - ت أو - تشي (أخبار البلاد الغربية) . انظر Introd. 3 : 2113 ثم انظر عناوين كتب آخر تبدأ بكلمة هي (غرب) Introd. 1 : 476

٣ . كان العصر الذهبي لقرطبة أثناء الخلافة الأموية في الأندلس (٧٥٦ - ١٠٣١ م) ، وخاصة في القرن العاشر . ومن عام ١٠٩١ إلى ١١٤٧ م دخلت قرطبة في حكم المرابطين . وهم من البربر سكان شمال أفريقيا . وكان ثالث ملوك المرابطين علي بن تاشفين الذي حكم من ١١٠٦ م إلى ١١٤٣ م ، وفي أثناء حكمه ولد ابن رشد وموسى بن ميمون .

على أن ابن ميمون لم يكن مسلما بل يهوديا . وفي أثناء العصور الوسطى
كانت اللغة العربية فعلا أكثر اللغات انتشارا . ولم يتكلم اللغة العربية
ويكتب فيها شعوب من أمم مختلفة (في الشرق والغرب) فحسب ، بل
(وهذا بخلاف اللاتينية) شعوب تدين بأديان متعددة .

نرجع الى ابن رشد وابن ميمون قليلا حتى نرى ان نتائج الفلسفة في
العصور الوسطى قد عبر عنها هذان الرحلان . رجل مسلم ورجل يهودي .
وبعد قرن كامل من الدهر قام بالعبير عنها من جديد رجل مسيحي ، هو
القديس توماس الأكويني ^(١) . هؤلاء الرجال العظماء الثلاثة . وقد
ولدوا كلهم في حوض غرب أوروبا . يمثلون الثلاثة الأديان البارزة واللغتين
لباررتين في العصور الوسطى . ومن السهل ان تذكر أسماء مغاربة آخرين
لسوا قبيلتين من أولئك الذين رادوا الثقافة العربية مجدا على مجدها ،
ولكن هذين الاسمين هما في هذا المقام فوق الكفاية .

بلغت جهود ابن رشد وابن ميمون بالثقافة العربية الذروة . تلك
الثقافة التي أخذت بالانحدار تدريجا بعد القرن الثاني عشر الميلادي . ومع أن
هذه الثقافة ظلت تترك روعة في النفوس في القرنين الثالث عشر والرابع
عشر . فانها كانت قد بدأت بالانحدار . ولم يكف الشرق الاسلامي يدرك
جسوع الثقافة العربية نحو العروب الا بصعوبة . لأن غيوره كان
يرداد بسنة ما ينصب خلائل أعماله من النقص (وتلك قاعدته عامه

(١) لتوسع في ابن رشد (١١٢٦ - ١١٩٨ م) انظر 2 . Introd. 255-61
ولتوسع في ابن ميمون (١١٣٥ - ١٢٠٤ م) انظر 2 : Introd 369-80
اما القديس توما الأكويني (١٢٢٥ - ١٢٧٤ م) فهو من جنوبي إيطاليا . انظر
2 : Introd 914 21 . ولقد سبق لما أن تكلمنا عن فرطسي آخر هو سكا
الفلوف الروماني . ومن المعبرات لمسة واحدة أن يقدم للعالم ثلاثة رجال
لهم مثل هذه العظمة ، وأقرب من ذلك كله أنه لم يكن فيهم أحد مسيحي !
وابن ميمون من اليهود الذين كانوا يعيشون في دار الاسلام تحت
حكم المسلمين . وكان أولئك اليهود يتكلمون بالعربية ولكن بحروف عربية ،
ذلك لأن اللغة العربية كانت محبوبة بالأمور الدنيوية ، حتى كتب النحو
العربية فانها كانت تكتب بالعربية . كما ان العالم فيها اليوم في الولايات المتحدة
ان تكتب بالانكليزية .

تنطبق على الشعوب كما تنطبق على الأفراد) . ثم ان الغرب أيضا لم يفلن لبدء انحدار الثقافة العربية ، لأن الواجهة العربية طلت على حالها . مع أن العرب يومذاك كانوا يعدون شيئا فشيئا عن أن يكونوا خليقين بها (١) .

وهذه أيضا قاعدة أخرى من قواعد الحياة : هنالك أمدا انحراف أو مل بين أعمال الانسان (أو الأمة) وبين الشهرة الذائعة ، فالشهرة لا تبدأ الا متأخرة ، وأحيانا متأخرة جدا ، وفي وقت تكون فيه تلك الأعمال العظيمة التي استحققت هذه الشهرة قد توقفت . وهل يجوز غير ذلك ؟ ان الزمن ضروري كيما يتسنى في خلاله للأعمال أن تستمر وتقدر قدرها .

اسباب تاخر المسلمين

ان المآثر التي قامت بها الشعوب التي تتكلم اللغة العربية — وذلك بين القرن التاسع والقرن الثاني عشر — كانت عظيمة الى درجة تحمل أفهاما . على أن التأخر الذي أصاب المسلمين والعرب كان مستغربا جدا في سرعته . كما كانت نهضتهم الرائعة مستغربة أيضا . وسيحاول العلماء الدارسين أبدا تعليل ذلك . ولكن بلا جدوى من الناحية العملية على الأقل . ذلك لأن أشد هذه المسائل معقدة جدا . ولأن الاحابة عليها بالاساليب العادية تقع في نطاق المستحيل .

ومما قل ان التأخر الروحي في الاسلام قد عجل به أن المسلمين فقدوا قوتهم السياسية . وفي هذا القول شيء من الحقفه . ولكن يجب

(١) كان أول النقلة المتنازين من العربية الى اللاتينية قسطنطين الأفرقي الذي شهد النصف الثاني من القرن الحادي عشر . ولد قسطنطين في قرطاجنة قرب تونس الحالية ، واشهر أمره في دير جبل كاسيو في ايطاليا مد نحو ١٠٦٥ م الى وفاته في ١٠٨٧ م . ولقد ظلت الكتب العربية طوال القرنين الثاني عشر والثالث عشر تنقل تدريجا الى اللاتينية . وهكذا اتاح للثروة اليونانية العربية (في العكر) ان تنتقل الى الغرب المسيحي . وبسبب ازدياد النقل من العربية الى اللاتينية كانت تزداد الواجهة العربية في الغرب ، ثم بلغت تلك الواجهة ذروتها عند بداية القرن الثالث عشر .

ألا ببالغ في أهميته كثيرا^(١) . لأنه جزء صغير فقط من الجواب على ذلك السؤال المعقد . نحن نجد أن السلطة العثمانية قد ظلت عظيمة طوال قرون كثيرة ، ومع ذلك فإن الثقافة لم تبلغ في تركيا ما بلغت إليه في عدد كبير من الدول الأوروبية التي كانت أضعف من تركيا كثيرا ، والتي كانت ترهب تركيا رهبة الموت . إن ضعف الإيمان الإسلامي بين المسلمين ساعد على تدعيم الأمراتورية العثمانية^(٢) . ومع ذلك تقوضت أركان العلم العثماني^(٣) . إن الأسباب الحقيقية لكل تحطاط يكون أسبابا داخلية ، لا أسباب خارجية . فإذا اتفق أن شاهدنا شجرة تسقط بفعل العاصفة ، فوجب ألا نلوم العاصفة على أساقها لشجره . نقدر ما يجب أن نلوم الشجرة نفسها على تغفن باطنها .

وتلك الهزائم السياسية التي مني بها الإسلام لم ترزعزع ثقة المسلمين بأنفسهم . بل هي على العكس رادت في غرورهم . غير أنها رادته في لاتجاه الحاضري . لقد عس المسلمون في وجه الحوث العلمية وبنروا منها . بسبب اعتماد الفقهاء أن ما يعرفونه هو من العلم يكفي لكل شيء . وهكذا وقف التقدم العلمي بسبب تعنتهم وعدتهم للمفكر في سبل

(١) المعروف أن الغزو الوحشي الذي قام به تيمورلنك على الشرق الأوسط وأحرار العرب أربع عشر لميلاد (1407-1417) Introd 3 لم يقص شيئا كبير من تهديم عدد من المدن الكبرى في الشرق الإسلامي (بغداد ودمشق وحلب وسواها . وكان قبر صائره قاصبه على سورية وحدها . ولكنه لم يحس عددا من البلاد الإسلامية سيوء . ومن هذه شبه جزيرة العرب مثلا ومصر . ولا غروره لذكر المغرب ، لأن تيمورلنك لم يصل إليه . ولم يكن بإمكان تيمورلنك أن يصيب الدولة الإسلامية بسبل ما صيبتها لو أن تلك الثقافة نفسها كانت زاخرة بالحياة عند مجيئه .

(٢) قصد المؤلف ، بلا ريب ، استغلال بعض سلاطين تركيا لفكرة إخلافه والحياد ضد سبب الأزمات السياسية بين السلطة العثمانية والدول العربية . (ع.ف.)

(٣) - السبب اتخذت تركية الحديثة موقفا غير إسلامي . إن تاريخ الرياضات العثمانية قد كتبه صالح زكي (جزءان بالتركية ، استانبول ، 1911 ، 1919) وكذلك كتب تاريخ العلم العثماني عبد الحق عدنان أديوار (بالفرنسية باريس 1939) (Isis 32 186-88) ولهذا الكتاب طبعه جامعة موسكو بالتركية (استانبول 1943) (Isis 38 21-22)

امعروفه . ونتج عن ذلك أن بعض هؤلاء العلماء ظنوا بقبولهم على علانها قصة خيالية التي كتبها على بن الحر بن النقيس ^(١) . وجعل عنوانها فاضل ابن مطلق ، تمهيدا لقصة حي بن يقظان لابن طفيل ^(٢) . وكتب ابن طفيل (ت ١١٨٦ م) قصته المعقوبة في وقت كان الاسلام لا يزال سائدا سياسيا ، أما ابن النقيس ، الذي توفي بعد قرن من وفاة ابن طفيل . فإنه كان مطلعة من طلائع التمهق . حين بدأت مآثر المسلمين بالقصص وأخذ عروهم بالنمو . ولقد كانت غاية ابن النقيس من كتابه أن يقول أن توالي الحوادث في ماضي المسلمين كان أمرا مقدورا إلى حد أننا نستطيع أن نعيد حوادثه بخيالنا بداهة ، أي لم يكن ملامكان أن يجرى تاريخ الاسلام على غير ما جرى عنه . وأثنى ابن النقيس في وهبه ما نحدثه عند رجل مسحي مثل يوسوس ^(٣) الذي اعتقد أن سيادة النصرانية أمر راجع إلى العناية الالهية ، وإلى الفضل الدائى في النصرانية نفسها . وكذلك ظن ابن النقيس أن الفوح العسكرية والسياسة المدهشة التي انطبقت للشعوب الاسلاميه تحقق ما سبق لملك الشعوب في علم الله ^(٤) .

(١) عاش ابن النقيس في النصف الثاني من القرن الثالث عشر . كان طبيبا مصرية أو سوريا ، وبقي في القاهرة لاني دمشق عام ١٢٨٨ م . انظر سارون 1099-1101, *Introd 2*, ثم ماكس مايرهوف Max Meyerhof « ابن النقيس ونظريته في الدورة الدموية الصغرى » (*Isis* 23: 100-20, 19٠٠) ويعمل يوسف شاخت Joseph Schacht في طبعه لكتاب فاضل ابن مطلق وترجمة جزئية لها إلى الانجليزية (*Isis* 37: 194)

٢ في ما يتعلق بابن طفيل في النصف الثاني من القرن الثاني عشر انظر *Introd 2: 354* . وأحسن طبعه لقصة حي بن يقظان هي التي شرف عليها المرحوم ليون غوييه Leon Gauthier . وحين معب ترجمته افرنسية . بيروت ١٩٣٦ (*Isis* 30: 100-03)

(٣) عاش يوسبيوس Eusebius of Caesarea في النصف الأول من القرن الرابع الميلادي . ولد في فلسطين وكان اسقفا على قيساريه من عام ٣١٣ إلى وفاته عام ٣٤٠ (*Introd 1 35١*) وهو احد مشاهير المسارقه في العصر الروماني .

(٤) ان مثل هذا الجدل العقيم قد انغمس فيه عدد من الذين ينتسبون إلى أهم سائدة في العالم . اد يصبون أن سياده أهمهم ليس أمرا عرضا ، بل هو ثمرة تفضيل الله لهم على غيرهم . وهالك مثال صالح على ذلك في كتاب : Bossuet : *Discours sur l'Histoire Universelle* (1681)

تاخر المسلمين وروحى لاساس

قام البرهان مرارا وتكرارا على أن الانحطاط الروحى مستقل عن
الهرثم العسكرية والكوارث السيامية . ان هولادة مثلا — وقوتها
الماديه لسبب سوى طل للقوة التى تمتعت بها فى القرن السابع عشر —
لا تر — أمة من أهم العالم البارزة فى ميدان الآداب والعلوم . وقام البرهان
على ذلك فى أهم أخرى . أمثال بلجيكا وسويسرة والدول السكنديناوية
التي لا تتمتع الا بقوة يسيرة ، على حين هى مع ذلك تقود العالم فى الأمور
الروحية من كل فن ، ثم هى مراكز ثقافية من الدرجة الأولى .

لا . ان النقص فى الاسلام لم يكن نتيجة لفقدان القوة المادية والسيادة
الساسة . ولا لنقص فيهما . بل لأن القوة الروحية فى نفسها ذهبت
ان الشعور بالتقوى . الذى تشعله فبنا ذكرى الأعمال المجيدة التى قام
بها السلاف أمر حطرت جدا . وخصوصا اذا رافق ذلك الشعور تقاعس
فى بدلنا للجهود . والشعوب التى تأتى بجلال الأعمال لا تتشدد بالفخر
بها . لأن وقفها يفسد عن ذلك . ولأنها تكون مصروفة الى تحقيق غاياتها ،
لا لى اسجداء آراء الآخرين . ولكن الأمم اذا أقبلت على الهرم ، ثم
سب أداء رسالتها ، فانها ربما عادت الى الاسفراق فى الذكريات وفى
السجج بها . ولا يكون من ذلك ضرر على الأفراد الذين يقضون على هذه
الأرض حياة قصيرة . من أجل ذلك تتجاوز لهم عن مدد يسيرة ينامون
فبها فى الشمس قبل أن يودعوا هذه الحياة الدنيا . ولكننا نجد ان هذا
أمر حطير جدا فى حياة الأمم . فان الأمم اذا أخذت بالنوم على أكاليلها ،
ثم سرع تسجج بها من غير أن تعمل لمستقبلها شيئا ، فان شمسها
حينئذ تكون أدب منقبة — ويكون مقضيا عليها بالانحطاط .

الامم لاتموت ولكن تنحط

على أن هذه الأمم تظل موحودة . لأن الأمم فى العادة لانسوب . ولكن
بعضى عليها بأن تنحدر الى مستوى الحياة اللية الهنة وهذا ما تنفق تماما

للإسلام . حين توقفت جهوده المبدعة . ثم أضيفت الى ذلك مبالغة في
الصلاح والتقوى وفي الاحتقار للآخرين . بمدئذخا ذلك النور الداخلي
في المسلمين ، حتى خسر إيمانهم قوته وصفاءه . حينئذ حلت الخرافة
عندهم محل الدين ، والحمية الجاهلية محل العقيدة ، والحسد والكراهية
محل الحب .

ويحسن أن نمد القول قليلا على السبب الأساسي لذلك الانحطاط
ليشمل الخرافات ، لأنها أشد أسباب الانحطاط ختلا . أي على غرة .
ونمو الخرافات في الأمم ليس السبب الأساسي الوحيد للانحطاط . ولكنه
أشد أعراض الانحطاط ظهورا . فإذا نحن شهدنا هذا العرض في
أفئتنا وجب علينا أن نأخذ حذرا . وأن نبدا بوقاية أنفسنا . والجدير
بالذكر أن أهل العصور الوسطى لم يكونوا يدركون ذلك كما ندركه
نحن اليوم . ولكن الخرافات تطب دائما للجهلة الذين يطلبون أجوبة
على أسئلتهم من النوع الذي يجده العرافون . كذلك كان شأن الناس
دائما من قبل في أدوار الانحطاط . وكذلك سسنى أبدا . من أجل ذلك
امترحت الخرافات بالعلم نفسه . حين ضعفت الجهود العلمية في الإسلام .
ومن هنا كان مشأ الداء القاتل . ان الآثار العربية العلمية التي شرفت
بعدد من روائع الإنتاج العقلي انحطت بسبل من الكبر في النجم
والصنعة ^(١) والسحر ^(٢) . ويبدو تسرب السحر الى كتب الرياضيات في
كتاب لمؤلف روحانى من الجرائر اسمه أحمد بن على النونى . عاش في

(١) الصنعة هي الكيمياء القديمة . وهي محاولة تحويل المعادن الخسيسة ،
كالنحاس والقصدير ، الى معادن شريفة ، كالذهب والفضة . (ع . ف) .

(٢) من المؤسف أن يكون ثمة كلمة تميز الصنعة الحديثة (راجع
الحاشية السابقة) من الصنعة الصالحة أي الكيمياء . كما ان عندنا كلمة
سحيم التي هي كلمة فلك . ومع ذلك فان عددا من كتب العرب في الصنعة
قد احتوت على ابتداءات من علم الكيمياء الحديثة . بينما هنالك عدد آخر
مملوء بأمور السحر . وربما وحدنا شيئا من المعرفة الايجابية وشيئا من
أمور السحر ممتزجين معا في كتاب واحد .

النصف الأول من القرن الثالث عشر . ولكن أحسن تعليل لهذه القضية ،
قصه لبحر والخرافات والتنجيم عند المسلمين ، ثم رفضها قد ورد عند
مفكر من أبرز المفكرين في العصور الوسطى كلها شرقا وغربا . هو العالم
الوسى عد الرحمن بن خلدون الذي شهد النصف الثاني من القرن
الرابع عشر ^(١) . تأمل قوله عند الكلام على الهندسة ^(٢) .

« واعلم أن الهندسة تقيّد صاحبها اضاءة في عقله ، واستقامة في فكره ،
لأن براعتها كلها بينة لا مقام حيلة الترتيب . لا يكاد الغبط يدخل أقبستها ،
لترتسها وانظامها . فتعبد الفكر بممارستها عن الخطأ . ويشتأ لصاحبها
عمل على ذلك المهيع ^(٣) . وقد رعموا أنه كان مكتوب على باب أفلاطون
من لم يكن مهندسا فلا يدخل علما . وكان شيوخنا رحمهم الله
يقولون : ممارسة علم الهندسة للفكر بمثابة الصابون للثوب الذي يغسل
منه الأقدار . وينقيه من الأوضار والأدران ^(٤) ، وانما ذلك لما أشرنا إليه
من ترتبه وانظامه » .

فصل الخرافات

ومع كل ما في هذه العبارة من الاضطراب فهي مما ندعو الى الإعجاب به ،
لأنها أصابه لكيد الحفصه أجل . ن انحرافات تقوم في العقل الانساني
منه الأقدار والاضطرابات في الحس الانساني . ثم هي سبب لحجب

(١) ابن خلدون (ت ١٤٠٦ م) ، انظر 3: 1766-79 Introd. ولسانها
آراء ابن خلدون في امارانيه . وفي تصنيف المدركين من الشر
بفكره وارتباطه ... والوحي والرؤيه - انظر - المقدمة ص ٩١ ،
وف بعد 3: 1772 Introd.

(٢) مقدمة ابن خلدون (باريس ١٨٥٨ م) ٣ : ١٠٢ * الترجمة ،
الترجمة (باريس ١٨٦٨ م) * راجع : 3: facing 1019, 1777 Introd.
هذا النص في طبعه بروج (المطبعة لاديه . الطبعة الثالثة ، وكذلك ص
٤٨٦ . ع . ف .

٣ المهيع الطرق الواسع الظاهر . ع . ف .
٤ الوصر الواسع السائح من الدسم كسلوث بالريب او السمس
الدرج الواسع . ع . ف .

فضح . ولكن الناس الذين يصابون بالخرافات وبالقيل لا يدركون — لسوء الحظ — ما هم فيه من البلية ، لأنهم ينساقون أبدا إلى أن يردوا ما هم فيه . وأن يصموا أنفسهم بذلك أشد الوصم . أما نحن فنجب أن نرجع إلى أنفسنا . وأن نغمر للعرب تلك الخرافات التي ذهبت ثقافتهم . ذلك لأن ثقافتنا نحن في أمريكا لا تغلو ^(١) من الخرافات أبدا . فلنجمعون وقراء الكف والعرافون وسواهم من أصحاب الكهانة . ترددهم أعمالهم في مدتنا المخيلة بنفسها . أما أعمدة الحرائد المخصوصة بالسحيم فبدل على فقدان المادى . وعلى الفساد في أصحاب تلك الحرائد ^(٢) . وإن مناقشة ابن خلدون للخرافات المختلفة بين المسلمين على الرغم من أنه لم يستطع إلا أن يصدق بعدد منها — أمر مفرد في آثار العصور الوسطى . غير أن الأمر تفاقم بعد عصر ابن خلدون . فحدث رد فعل معاكس الخلفاء . يتمثل به المسلمون من الأخذ بحرافة إلى الأخذ بشبهة . فتأنة وكثر . بعدئذ فتح الانحطاط الروحي في الاسلام الباب للخرافات شبا فشا . ثم هدمت الحواجر العنقية التي تحول عادة دون

١ المؤلفات في الحرافات العرسه كبيرة . انظر دائرة المعارف الاسلامية
مقالة كاهن Kahin ، وقيافة Kiyafa وسحر Sihhr ، الخ
(Isis 33:298-99) . انظر كذلك (Walker : Folk Medicine
(Isis 24 294) وكذا in Modern Egypt, London 1934

ولمعرفة خرافات الصابئة التي تمثل جميع خرافات الشرق الأوسط
انظر . Drower (Ethel Stefana Stevens): *The Book of the*
modiac. (Royal Asiatic Society, London 1949)

(٢) فيما يتعلق بالخرافات الامريكية انظر

Gilbert Seldes *The Stammering Century*, New York, 1928
Charles Wright Ferguson *The Confusion of Tongues*, New
York 1928, Bart J Bok and Margaret W Mayall *Scientists*
Look At Astrology, Scientific Monthly, March 1941 (Isis 35
181 182, 40. 79 81)

الخرافات . بتأثير بعض الفقهاء الجبهة المتعصبين (١) . ثم ان الخرافات الجديدة زادت في سذاجة العامة وجهالهم وغبائهم وتعصبهم . وهذه بدورها أدت الى نشوء خرافات جديدة ، وهلم جرا .

وتخرج الحال تخرجاً شديداً . اذ بينما كانت الجهود العربية تتضاءل . والشعوب العربية تصبح فريسة لخرافات المترايدة ، حتى فقد الأمل بانقاذها ، اكتشفت الشعوب الغربية (اللاتينية) سرا من أسرار المعرفة والحياة الثرة (٢) . ذلك السر الجديد هو العلم التجريبي الذي خلق في عصور بصعة قرون ثقافة جديدة . بل أحدث ثورة في العالم كله — في العالم الروحي وفي العالم المادي معا (٣) . ولم يكن للشعوب التي تسكلم العربية نصيب من هذا التقدم . اذ تقدمت الأمم العربية بخطى واسعة جدا ، على حين وقف العرب . وهكذا تأخروا يوما بعد يوم تأخرا لا أمل بوقفه . ان الاسلام . وهو يهض نهضة العظمه رفع العرب الى الذروة ، أصبح محجوبا بالمسلمين في الهاوية .

(١) كان الحكام احيانا اكثر تسامحا من الفقهاء ، ولكنهم كانوا مضطرين الى الانحاء امام عدم التفكير الشائع . مثال ذلك . ان أمراء الموحدين في المغرب — وكان يظن بهم التعصب — حملوا الفلاسفة الكبار من عت المتعصبين . راجع كتاب Leon Gauthier Ibn Rushd Paris 1948 (Isis 41: 104-06)

(٢) الثرة العين الغزيرة الكثيرة الماء والحياة الثرة ذات النعم العميمة (ع . ف) .

(٣) انتشرت خرافات كبره في العالم المسيحي في العصور الوسطى . ولوصف هذه الخرافات انظر :

Lynn Thorndike *History of Magic and Experimental Science*, 6 vols. New York 1923-41 (Isis 6: 74-89, 23: 471-75; 33: 691-712)

غير ان الخرافات المسيحية كان يقابلها على كل حال مجموعة من المعارف ومن الفقه العقلي (وخصوصا عند القديس توما) . أما فلسفة ابن رشد فانهمزمت تماما بين المسلمين ، ثم قضى عليها في الشرق ، بينما حورها الغرب تحويرا يوافق المسيحية .

أهل العرب بالنهوض ثانية

على أن هذا الحكم ليس مبرما على كل حال أبدا . بل يصح يتبدل سرعة . ان شعوب الشرق الأوسط سبق لها أن قادت العالم في مرحلتين متوالتين من مراحل التقدم الانساني — طوال ألفي سنة على الأقل قبل بناء اليونان ، ثم في العصور الوسطى مدة أربعة قرون تقريبا ، وليس ثمة ما يمنع تلك الشعوب من أن تقود العالم ثانية في المستقبل القريب أو البعيد .

وفي المرحلة الأولى التي قاد الشرق الأوسط فيها العالم . وضرب العقريّة المبدعة لتلك الشعوب . فكان من الشرق الأوسط أول الناه بالصخر . وأول الكتاتين بالقلم ؛ وذلك لأن تلك الشعوب استيقظت قبل سواها من شعوب العالم . وأما المرحلة الثانية فكانت أقصر مدى . ولكن كثيره الخصب . وبذا سبقت شعوب الشرق الأوسط أهل اليونان في ميدان المآثر العلمية . أو أنها أمكنتهم من الاتان بتلك المآثر . ثم تبدلت الحال . لقد كانت الشعوب التي تتكلم العربية في الشرق الأوسط همة العلم اليوناني الى الغرب . غير انهم لم يكونوا ثقلة فقط . ولكنهم على عكس ذلك زادوا ذلك التراث اليوناني . ثم أورثوه الى الشعوب اللاتينية أعنى مما كان . ولم يكن تفوق العرب في اسكارهم المدع بقدر ما كان في ثباتهم وفي شدة جهم للعلم . اذ فهموا يومذاك (وهذا ما نسوه بعد ذلك) ان المعرفة يجب أن تبنى على أساس صحيح ، وأن جذور كل ثقافة اذا لم تكن عميقة عمقا كافيا لا تلبث أن تدوى ثم تموت . ولقد كانت جذور دينهم عميقة عمقا كافيا . وجذورهم العلمية — لوقت ما على الأقل — الجذور اليونانية . وكذلك أدرك قادة الفكر فيهم بوضوح أن الانسان اذا أراد أن يكتب المعرفة العلمية ، فانه لا يستمد من البدء بالقمة ، من طريق استعارة التطبيقات العملية الأخيرة ، بل يجب أن يشرع من الأساس بالمبادئ الأولى . وانه من السهل أن نجى الفواكه اليانعة من أعالي الشجرة — وكل أحق

يستطيع ذلك . ولكن من الصعب أن نسبت أشجاراً صحيحة تعطى
فاكهة وأمره في إبانها . والدرس الذي يجب على شعوب الشرق الأوسط
أن تتعلمه من جديد هو أنه ليس إلى العلم طريق مختصره . أن من
السهل أن يدرس علم الحل (١) . وقد لا يكون من الصعب أن ندرب
المهندسين ؛ ولكن تربية الإنسان على العلم مهمة شاقة طويلة الأمد . أن
الإنسان بالآثار البسيطة في العلم وفي التعليم تقتضى تفانياً متصلاً طوال
سنين عديدة ، بل طوال حياة كاملة . غير أن الحياة قصيرة ، وكل
رجل علم يورث أو يترك الدين يثون بعدة مشاكل تنتظر حلولاً .

لس ما تمنع الشعوب العربية اليوم من أن تبارى أسلافها . وأن
تستعيد ثانية مكائنها الأولى في قيادة العالم ، ومع أن ذلك ليس سهلاً
— ثم هو يصبح أشد صعوبة يوماً بعد يوم — فإنه ممكن .

بداية المجدد

أن بداءه حميده قام بها في الميدان الديني الشيخ محمد عبده (٢) .
وهكذا أخذ ليجو الإسلامى نضمو . وكذلك اليهود والنصارى في الشرق
الأوسط بالون عناية أكبر من تلك التي بالوها في الماضي ، سيما المسوى للهدى
قد ارتفع كثيراً . في بلاد عديدة . وما يدخل السرور على قلبى أن قسماً
كبيراً من ذلك المنهاج الهدى قد به أمر يكون . وأنا أردد هذا القول
مشيراً إلى الجامعة الأمريكية في بيروت التي كانت ظنراً لرجال صالحين ،
وبعد دائماً لحسن السه (٣) أن الجامعة الأمريكية في بيروت . والكليات

(١) علم الحيل هو علم استعمال الآلات لرفع الأجسام الثقيلة أو تحريكها ،
وهو المعروف في اللغات الأوروبية باسم الميكانيكا Mechanics

(٢) للكلام على محمد عبده (١٨٤٩ — ١٩٥٠ م) انظر دائرة المعارف
الإسلامية (Enc. of Islam) وهالك أيضاً ترجمة لرساله الموحيد ، باريس
١٩٢٥ (Isis 9: 456-57).

(٣) انظر (Isis 19: 322-29, 1933) ، وكذلك .

Stephen B. L. Penrose, Jr.: *That they May Have Life, the
Story of the AUB 1866-1941*, New York 1941 (Isis 34: 40-41;
39-71).

الأميركية في القاهرة وإستانبول وبغداد لم تقتصر ببلاذ الشرق الأوسط على نشر روح طيبة فحسب ، بل خلقت فيه أيضا منافسة خيرة ؛ إذ دفعت المدارس الأخرى الى تحسين طرق التعليم فيها . من أجل ذلك لا يستطيع الانسان أن يفنى المشرفين على هذه المعاهد الأمريكية حقهم من الشكران . وكذلك القائمين بإدارتها على ما أولوه من هبات مباشرة وغير مباشرة في سبيل العلم . ثم إن الاستقلال السياسي ملا جميع البلاد بروح الطموح . وليس ثمة ما يمنع طموح تلك البلاد أن يتحقق إذا أتبع له سد من الأعمال والضحايا الموالاة . لا من الكلمات فحسب . هالك مشاكل يجب أن تنظر حلولاً . ولكث حث تجد اراده وأن وجد مريقاً . وهذه الطريق يمكن أن تكون طويلة . ولذلك كانت الحاجة الى الصبر كبيره . أما المقظة الأساسية في الموضوع فهي أن ندرك أن الأعمال العلمية يصعب القيام بها . وإن على الانسان أن يشمر عن ساقه لسدل جهودا جبارة في سبيل ذلك أما الذين يحددون أنفسهم . وفكرون بأن التغلب على المصاعب أو الاحتيال عنها سهل . فاولئك كسب عليهم الخيبة . أن الجهود اليسيرة تضيع دائما .

والمدينة ليست مرضا حتى يمكن الشفاء منه . بل هي كفاح علينا أن نحالده فيه مرة بعد مرة . ثم هو كفاح لا يخلو من اخطار . ان حريتنا ومعارفنا وما في حياتنا من النعم كلها لنا ولكنها لنا « تحت التجربة » . لذلك يجب علينا دائما أن نرهن على أننا نسنحها . أو نخسرها . وإذا افق أن ضعفت عرائننا فإنا نبدأ حالا في الانحدار . لأن كفاح العلم والخطأ والقع والفقر لا يجوز أن يهدأ .

والتقدم أيضا روجي لامادي

أنا لا أزال أؤمن بالتقدم كما آمن سنكا^(١) . لا كما يفعل أنصاف المعلمين الذين يقسون التقدم بالشاقول^(٢) أو بمقدار ما فيه من الرفاهه

(١) راجع ما سبق هنا ، ص ٨ ، وحاشية ٤ في الصفحة نفسها .

(٢) سنكول آلة يقاس بها اسواء السطوح القائمة ، والمقصود بذلك

قياس التقدم قياسا ماديا لا روجيا . (ع . ف) .

ولكن التقدم المادى الخالص مدمر . وهو ليس تقدما على الإطلاق . بل
تأخر أساسى . ان التقدم الصحيح — ومعناه تحسين صحيح لأحوال
الحياة — لا يمكن أن يبنى على وثنية الآلات ولا على العتلات (١) .
ولكن يجب أن يقوم على الدين وعلى الص . وفوق ذلك كله على العلم .
أى العلم الخالص . ومحبة الله ومحبة الحقيقة ، وحب الجمال . وحب
العدل . وهذا يبدو لنا جليا حتما نلقى نظرة واحدة الى الماضى .
من هم أولئك الذين كانوا رجالا عظاما فى التاريخ ؟ من هم أولئك الذين
أحسنوا إلينا ؟ ومن هم أولئك الرجال الذين نحن مدينون لهم بسراب
حياتنا ونعمها ؟ لقد كانوا رجالا أمثال أفلاطون . وأرسطو . وأفليدس
وأرخميدس . فى تاريخ اليونان . أما أثناء العصور الوسطى فكانوا
رجالا من أمثال الفارابى ، وابن سينا ، وابن الهيثم ، والبيرونى .
والغزالي ، وابن رشد ، وموسى بن ميمون ، وأبى الفداء ، وابن خلدون .
هؤلاء الرجال لم يكونوا يعيشون فى فراغ اجتماعى (فى معزل عن الناس) ؛
وفى أيامهم كان الحكام ورجال المال أكثر شهرة منهم ولكن الحقيقة
أخذت تجلى تدريجيا . وها هم أولاء (وأندادهم) هم وحدهم الذين
يذكرهم الناس اليوم . أما الملوك والسلالين والورراء فقد عفى عليهم
النسيان . ان الحكام وموظفيهم كانوا يعملون ليومهم ولستهم ؛ أما
العلماء ورجال العلم فكانوا يعملون للخلود . وها نحن أولاء نشعر
شعورا مكينا بالدين الذى لهم فى أعناقنا ، ونجربهم على ذلك بعرفان
الجميل . ان ما نراه واضحا حينما ننظر الى الماضى يجب أن يكون واضحا
أيضا حينما نسد نظرتنا الى الأمام . فيهدى خطانا الى المستقبل .

قيمة الشرق بين الشرق والغرب

من الناس من يتكلم عن الفرق بين الشرق والغرب . هذا الفرق
موجود . ولكنه أقل أهمية من الفرق بين المادية والنوعية من جهة وبين
المثالية من جهة أخرى . وهذه الموارنة الثابتة بين المادية والمثالية مستقلة
(١) العملة أداة تحرك بها الأشياء الثقيلة . والمقصود الأساس المعنى
المادى . ع . ف .

عن المكان والرمز . انها وجدت من قبل . ويمكن ان توجد في كل زمان ومكان . غير ان هالك نفرا من الناس يريدون منا ان نعتقد ان سكان الشرق مثليون ، وان سكان الغرب ماديون . وهذا ما يعلى عندهم لماذا كان الأولون أغنياء والآخرين فقراء . ولكن هذا بعيد عن الحقيقة . فهناك فقر كثير في الغرب . وهناك عنى كثير في الشرق . ولعل البور الشاسع بين الغنى والفقر - - اذا اعتبرناه من كل ناحية - أعظم في الشرق منه في الغرب . ان الأفراد الأغنياء في الغرب هم على العموم أكثر كرما . وأوسع احسانا ، وأرجح حكمة في توزيع احسانهم ، ومن أولئك الشرقيين الذين يمتزج احسانهم في أكثر الأحيان بحب الظهور وتطلب الوجاهة .

الشرق مهد الدين والعلم والفن

ومع ان الشرق الأوسط كان مهد دينا . ومهد مثلنا العليا في العلم والفن ، فليس من الحق أن نقول انه اليوم أكثر مثالية من الغرب . ولو أننا قلنا ذلك لكان ذلك منا ملقا لا صدقا . والملق يصر أكثر مما ينفع . أما اعتقادي الخاص ، فهو أن رجال الشرق لا يختلفون اختلافا أساسيا من رجال الغرب . فنحن نجد في كل بلد جميع طبقات الناس ، ما بين صرح القداسة وبين هوة الرذيلة . هنالك طبقة نزرعة العدد من الصالحين . ثم طبقة نزرعة العدد مثلها من الطالحين . أما الجمهور الغالب من الناس فهم صحايا اختلاف أحوال العيش . ولكن يمكن اصلاحهم الى حد بعيد بالعدل واللف . كما يمكن افسادهم بسهولة اذا فتحنا عليهم أبواب لشقاء والشر والكذب . ان المشكلة الأساسية في عالمنا اليوم (وفي كل يوم) هي مشكلة رفع المستوى الروحي لمجموع الناس ^(١) . فاذا نحن حبا في رفع المستوى الذي يسفى أن يحيا عليه الناس كلهم فان جميع حسابات مدنيانا تصح حينئذ نقمة عليهم . ثم تنحدر بهم وتهلكهم . ونحن اذا جعلنا القيم الأساسية التي تأخذ بها في حياتنا العدل والاحسان والصدق ، فان

(١) مجموع الناس يضم الاعنياء والعقراء . على السواء .

قد نجونا . أما اذا جعلنا تلك القيم الأساسية هي الرفاهية والمال ، فسوف نكون من الهالكين .

رسالة الشرق المقبلة

أقول مرة أخرى هنا ان المدينة ليست مرضا ، ولكن من الممكن ان تنقلب عند أهل الحدل شرا وفسادا . والمدينة ليست شرقية ولا غربية . وليس مكانها في واشنطن أكثر مما هو في بغداد . انها يمكن ان تكون في كل مكان يكون فيه رجال صالحون ونساء صالحات ، يهتمونها ويعرفون كيف يستمدون منها . من غير ان يسيئوا استعمالها . والشرق الأوسط (اذا حاركت شعاع هذا الاسم) كان مهد الثقافة . ومنه جاءت أسس هذا العالم أثناء العصور الوسطى . حينما بدأ السار الحديدي في أوروبا يشطر العالم شطرين : العالم المسيحي اليوناني الأرثوذكسي . والعالم المسيحي اللاتيني الكاثوليكي . وها نحن أولاء اليوم ننظر الى ماضي الشرق الأوسط بعين من عرفان الجميل . ثم نرنو الى مستقبله بعين من الأمل الحلو .

عمر فروخ

الفنون والآثار الإسلامية

تأليف

ريتشارد إتنجهازون

ترجمة

محمد مصطفى زيادة



يقول العارفون ان لغة الفن « هي اللغة العالمية الوحيدة التي استطاعت البشرية أن تخلقها ^(١) ». ومن الدليل على صحة هذا القول أن اختلاف الألسنة يحول بيننا وبين أفكار الفلاسفة والشعراء في لغة غير لغتنا ، أو في بلد غير بلدنا ، إلا عن طريق الترجمة . وأن هذه الأفكار — حتى بعد ترجمتها — لا تستغنى عن التفسير التوضيحي الطويل . أما مبتكرات المعماري ، والمصور ، والخزاف ، والنساج ، وغيرهم من أرباب الصناعات الفنية ، فهي على اختلاف بلادها سهلة النطق والفهم لاشاع حاسة الجمال فيها ، ولو أن هذه المبتكرات تموزها بعض شروح الأخصائي ، لادرأك ما فيها من فنانة وإبداع .

وهذه الحقيقة تنطبق على فنون جميع الحضارات . وعلى فنون الحضارة الإسلامية ضمنا . ولم تكد الفنون الإسلامية تصبح معروفة في غرب أوروبا حتى غدت موضع تقدير ، بل لم تلبث نماذجها التي وصلت إلى أوروبا ثم أمريكا أن احتلت مكانة ممتازة عند المعنيين بالمون . غير أن الفنون الإسلامية لم تصبح موضع الدراسة الفاهمة إلا بعد اثني عشر قرنا من ظهور الإسلام ، وهذه الدراسة لا تزال حتى العصر الحاضر في دور البداية . ومع هذا يحق للباحث الأوربي والأمريكي كل منهما أن يغتبط لقيام العرب على البحث السهيدي من الدراسة والاستقصاء من أجل الشرق ، وأن يحمد للغرب اجتهاده الباكر في هذا الميدان ، لا في جمع الميسور من المادة التاريخية والأثرية فحسب ، بل في استنباط القواعد الفنية لتقدير منتجات الفنانين المسلمين .

فللأسف المصالح الغربية بفنون الشرق الإسلامي ضيقا محدودا طوال العصور الوسطى ، حين وقف الإسلام والمسيحية كل منهما في معسكر مضاد لأحيه ، ليس بينهما من الاتصال السلمي سوى النزر المتقطع . وبالرغم من ذلك استقبلت بلاد المسيحية نماذج الفنون الإسلامية

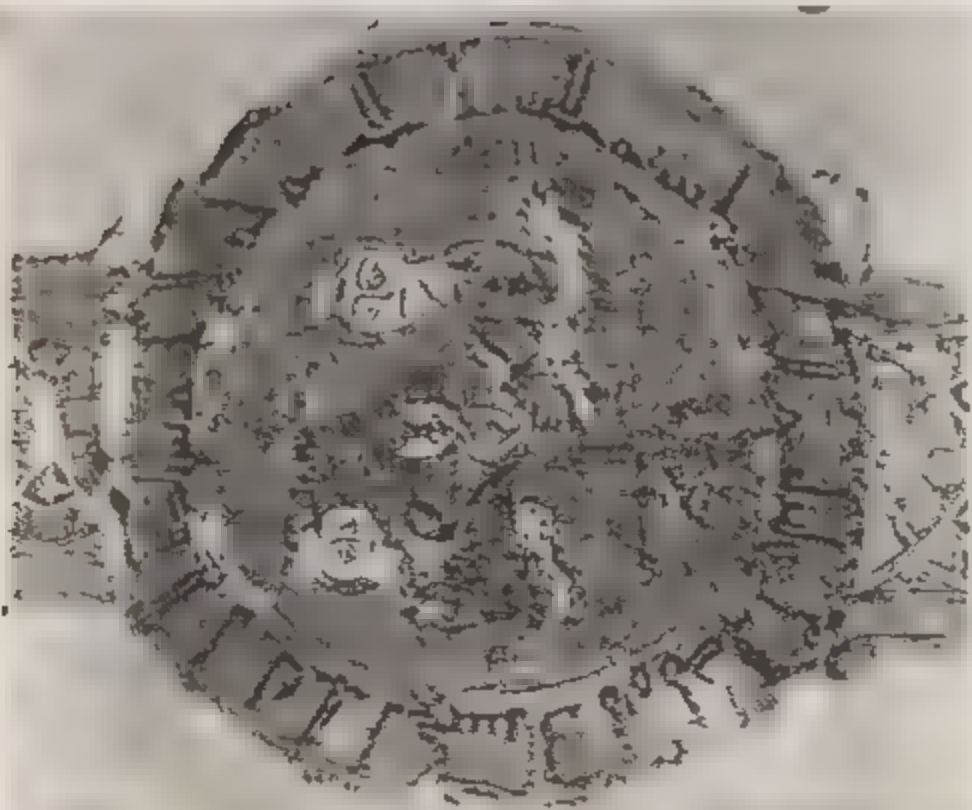
(١) انظر : Morey: The Fine Arts in Higher Education, p. 4.

بفندير كبر . وغدت المتجات الفنية التي أبدعتها أيدي المسلمين موضع تشریف في أوساط مسيحية ، خالتها جذيرة بأن تقرن بأعظم أدور أنداسة في الكنائس . من الدليل على ذلك أن أعظم كندريئس المسحة استخدمت بعض المنسوجات الرفيعة ، من مخيف دور الطرز الإسلامية ، غطاء شفافا لحفظ مخلفات القديسين المسحين (شكل ٤) أو طراحة أسقفية للمصلوات الدينية (شكل ١) ، من صارت بعض هذه المنسوجات بذاتها موضع قداسة (شكل ٢) . وفي كثير من الأحوال اشتملت هذه المنسوجات على كتابات عربية بعضها تسيح باسم الله . ولكن هذه الدلائل على أصولها الإسلامية لم تمنع من الاعتقاد بها . واستعملها في طقوس كسة مسحة . وأكثر من هذا أن المصورين المسحين أواخر العصور الوسطى . وأوائل عصر احاء العلوة في أوربا . درجوا على زخرفة أزياء الملائكة في صور العذراء غالبا بشكل ورويات من الكتابة العربية . وهذا كلما قصدوا أن يصورا العذراء في ملابس ذات حلال خشن بمقامها ^{١٢}

ولا عن ذلك أهميته ومعنى أن بعض الكنائس المسيحية في العصور الوسطى استأثرت في تقوسها الدينية أدوات وأوعية من لبلور الصخري المزرق ، مما يرجع أصل صنعه إلى مصر على عهد لأخشيدين وأماطيين . في القرنين العاشر والحادي عشر الميلادي ، وذلك بوضع هذه الأشياء الأثرية الإسلامية أو أجزاءها في الأدوات ولاوغة الكنسية وضع لأحجار الكريمة في المعدن المصنوعة . بدليل بعض الصلبان الكبرى الخاصة بمواكب الأعياد والمواسم ، وأحقاق العقران المعلمة بالعشاء الرباني . وتركيبات لأضاءة في الكنائس . مثال ذلك أن حقه هلاله الشكل . مقوشة باسم الخليفة الماطمي أبو الحسن

(٢) ربما طن أولئك المصورون بعض الأحيان أنهم أخذوا هذه الكتابات من أصول عبرية ، ولكن مما لا شك فيه أنهم كانوا يقلدون الكتابة العربية في تصويره .

(٣) من المحتمل كذلك أن هذه الحلقة البلورية استخدمت أولا قمة لعصاة أسقفية أو لصولجان ، قبل أن توضع في حق الغفران المصور هنا .



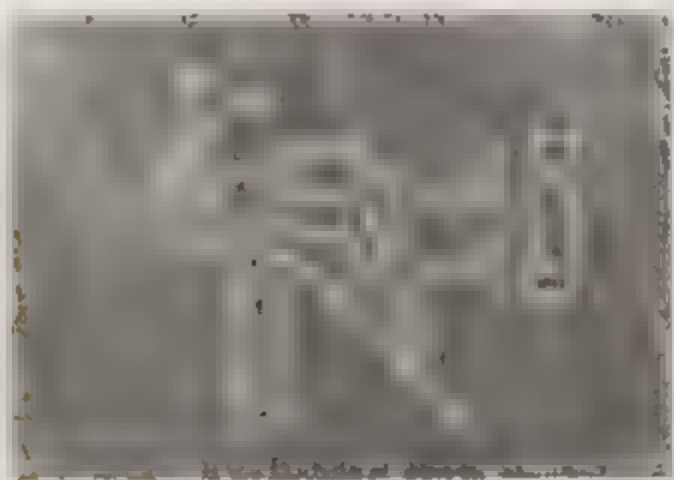
٢ - نقش من العباس صور احدثه العاضى لستلى ووربره
الأقصر . ومن الآن رمز قدامه حد السجس



١ - ط آله أفعه أهلها طراحه إبلاته من الغبر السوكى ، ومى
مشرره بكلمى السطاع العالم .



٣ - أسطرابية للشاه الرائي
مرؤها الأعلى حليه قاطبية
من اللور الصخرى .



٤ - فضة من قماش إسلامي إراني
شعاف ، حقه طرحة آريه من
مخلفات الصغراء .



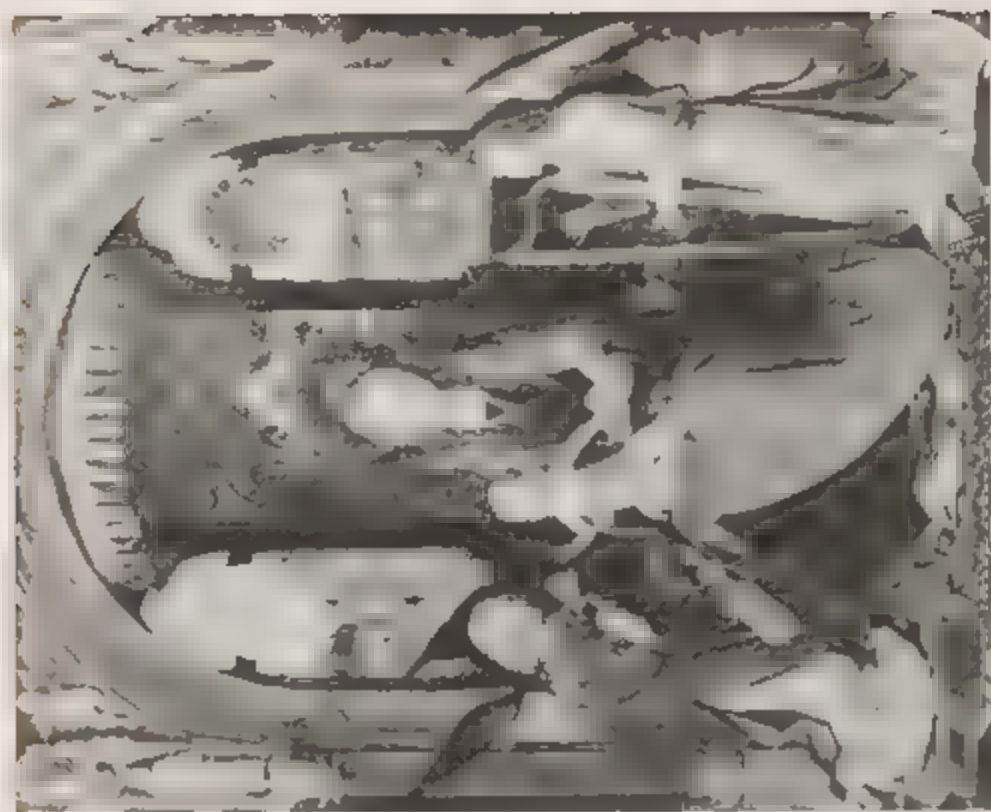
٥ - وعاء قاطبي من اللور الصخرى
كتدراية القديس مرفص سدس
السدقية ، لحفظ الدم المقدس .



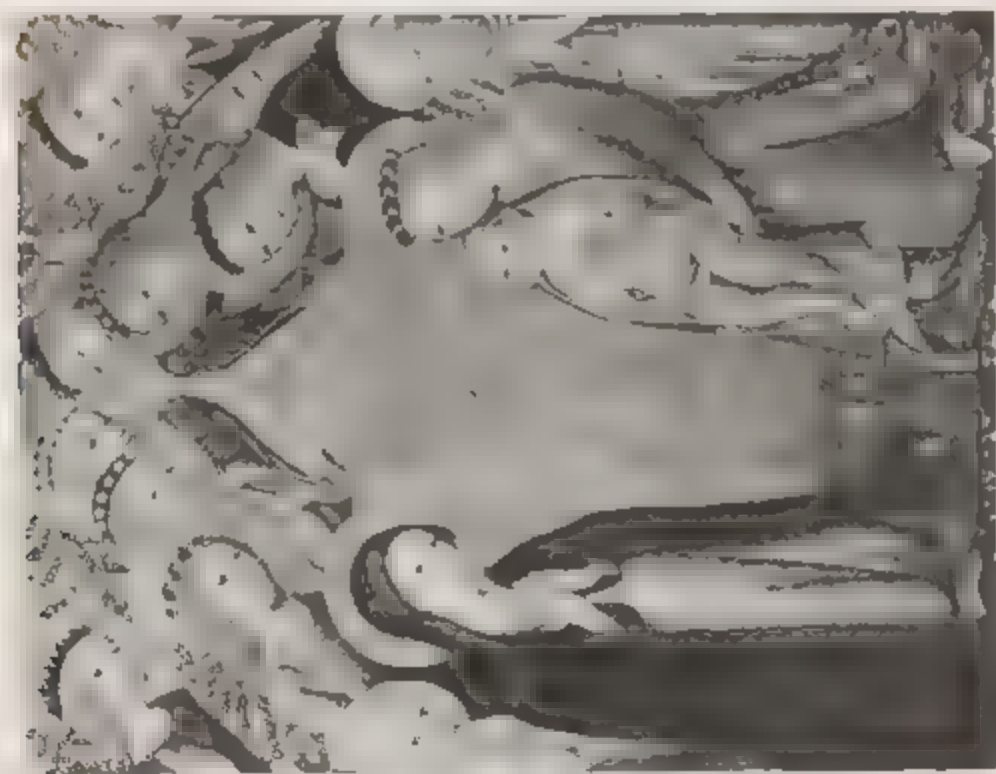
٧ - أشكال من الكهنة المعبودة في حالة الحذر .



٦ - أشكال من النصب الكهني معبودة في باب كدراسة .

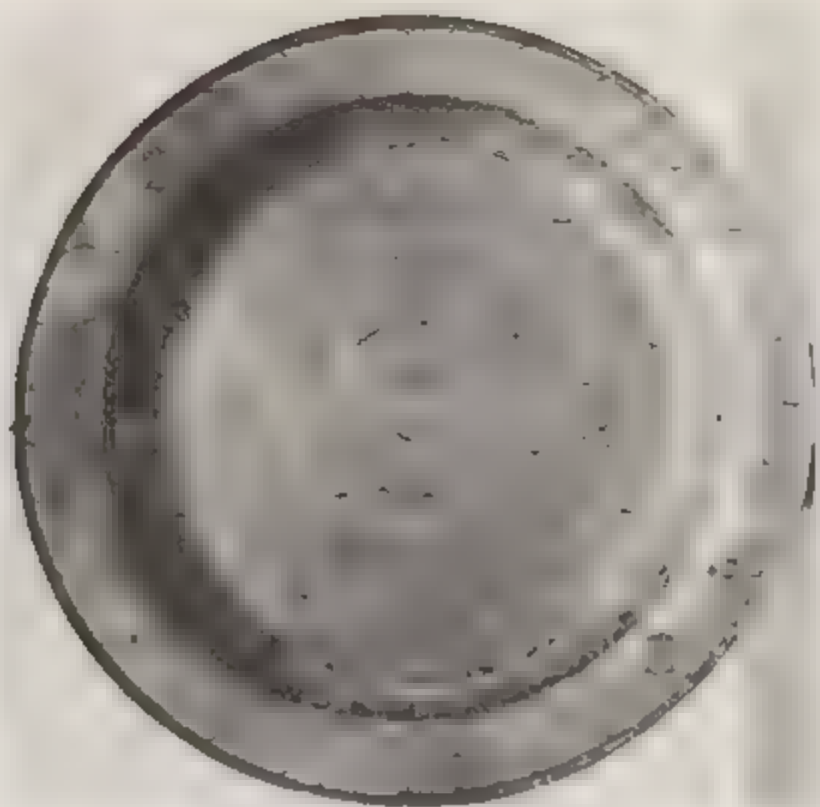


٨ - معبد إيلامه ذات أشكال هندسه في هذه فسيفسائي
الزمن احدها من قبل الفلاني



٩ - معبد إيلامه ذات رسوم حيوان في سور إيلام
من القرن احدها من قبل الفلاني

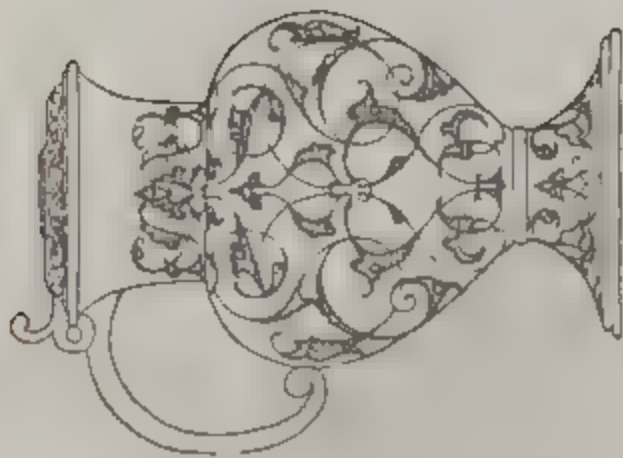
١٠ - قوس إسلاميه في صا مقصه عه سديه ١ سديه .



١١ - عقد وروبي صاعه الكب .

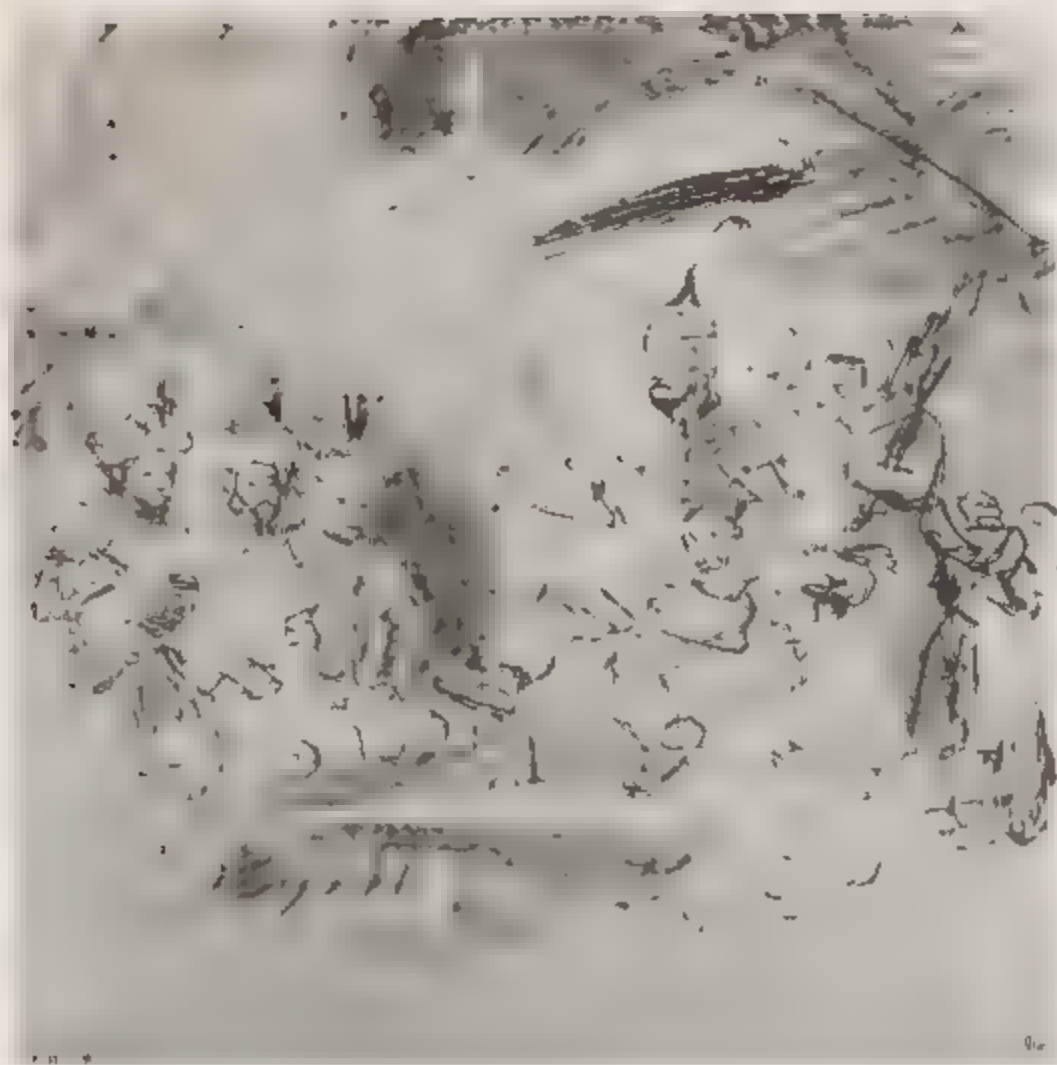


١٢ - زحرفه من أمهات إسلامه استعملها عير ما الأما في زحرفه
لواحي والأصاح .



١٣ - زحرفه ركه شهد زحرفه هولاس الأما .





١٤ - صورة من عمل رمشارد الهولندي راله على معرفة وإعانة من تصوير الاسلامي
في البلاط الملكي التيموري بالهند .



۱۵ - این معماری اسرکی می نظر این معماری الانجیری می بین سامن عسر الملاذی .





١٧ - بظرف رونا سكه اى سولج شهر من سادج المعمار الاسلامى مسجد اعظم
سده حرطه .



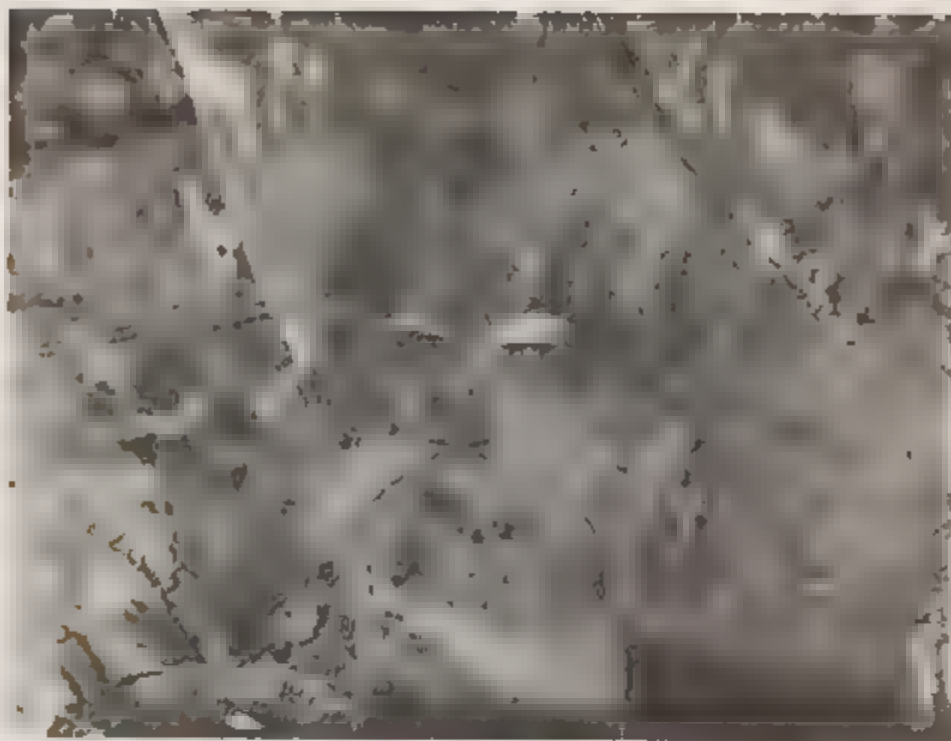
١٨ - سجن الآثار المصرية الإسلامية في مصر - القاهرة



۱۹ - تصویر از درون خانه ای در تهران - املاک



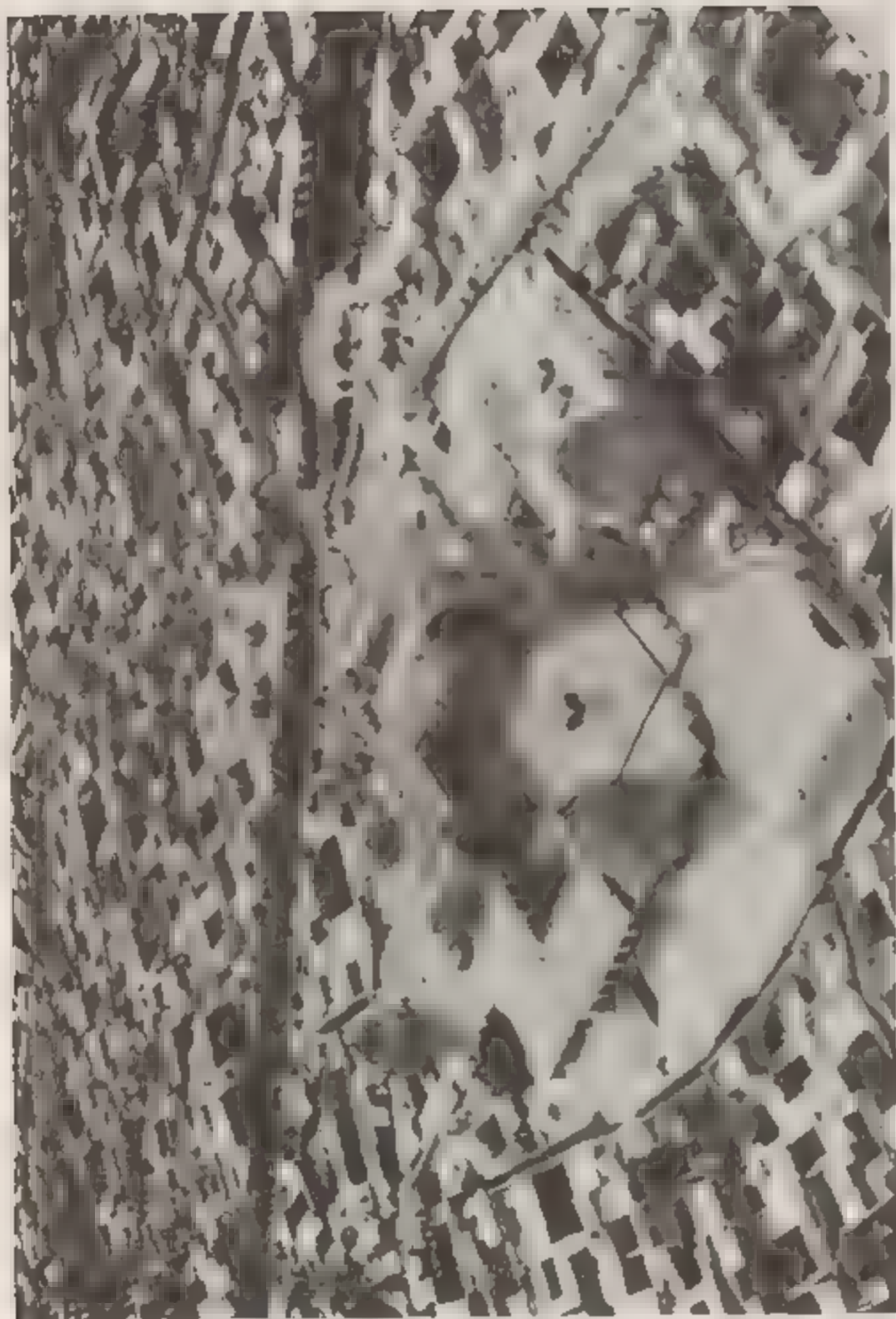
٢٠ - صورة قصر الملك في القاهرة



٢١ - صورة جوى بستان الراحه على نهر الغراب من القرن الثامن
اسلادى وهي شكل حداة الفرس .



٢٢ - صورة جوى بستان الساق بستانه مامرا ناصبه العباسى في
نهر السامع اسلاى ، والمندان سكن ورفه برسم
وسمه مكان اعضاء من المعرجين .



٤٣ - صورة حوى لحد - به إصهار برح الله الأملى وال مائه .



۷۱ - ۷۰ - ناز قسه من برای بر که عاقبه الفقه اصفیه احوه . می ندیده اند به هفتاد و پنج سالگی بهر آنکه .

على الظاهر لاعزاز دين الله (١٠٢١ - ١٠٣٦ م) تحولت من حلية لرقبة فرس الخليفة على الراحح الى أعلى جزء من حلق للفقران (Monstrance) من الفن القوطي المحدث (شكل ٣) .

وأغلب من هذا استعمالا أن أواني اسلامية من البللور الصخري صارت أوعية دينة في الكتدرائيات والكنائس ، وأشهر هذه الأواني التي غدت من تحف بيوت العبادة المسيحية وعاء الدم المقدس Reliquiario de Sanguie Miraculoso مكتدرائية القديس مرقص بمدينة البندقية بإيطاليا . اذ يحوى سطحه الأسطوانى على زخرفة عربية ، فضلا عن كتابة كوفية فيها اسم الله . ولم يمنع ذلك من استعماله وعاء لحفظ الدم المقدس . (شكل ٥) . الواقع أن عددا من الكنائس المسيحية يملك كثيرا من هذه الأوعية البلورية الشفافة ، وهي مستعملة لحفظ مخلفات العذراء ، أوحنا المعمدان ، أو مريم المجدلية ، وغير أولئك من القديسين والعديسات . أما موضع الأهمية في ذلك كله فهو أن هذه الأشياء الاسلامية لم تستخدم لأنها أواني زعيمة بحفظ مخلفات مقدسة ، بل لأنها بسبب شفافتها دلت عقول الناس في العصور الوسطى على رمز من رموز ميلاد المسيح من العذراء الطاهرة . ليس من الوارد في كتب السلف أن المسيح تجلّى في رؤيا للقديسة برديجت ، وقال : « انى صرت لحما ودما دون حطيئة أو شهوة ، اذ مررت في رحم العذراء كما يمر شعاع الشمس في حجر كريم ^(١) » .

وبحق نستطيع أن نذكر أدوات كسبية أخرى من أصول اسلامية . وهي مصنوعة من مواد مختلفة ، مثل العاج والمعدن ، لندل على مدى ما بلغ الاسلام من التأثير في فنون الغرب المسيحي عن طريق هذه التحف .

(٣) . انظر :

Lamm : Mittelalterliche Gläser und Steinschnittarbeiten aus dem Nahen Osten, Berlin, 1929-1930, vol. 1, p. 213, no. 21.

(٤) وردت هذه العبارة في قصة أول رؤيا روحية لهذه القديسة

الابرلندية ، انظر :

Meiss Light as Form and Symbol in Some Fifteenth Century Paintings Art Bulletin XXVII, 1945, p. 177.

ولكننا نملك عنها حشية الاطالة . وكذلك لسنا بحاجة الى الاشارة في شرح أشباه الكتابة العربية في مختلف المواد والأدوات الفنية في الكنائس (شكل ٦ - ٧) ، ولا سيما أن هذا النوع من النحلية في العصور الوسطى مثل موضع الدراسة منذ مائة وثلاثين من السنين (٥) . على أن واحدة من هذه التحف — وهي السجادة الشرقية — تستحق التخصيص بإشارة عابرة ، لأنها خلقت في الغرب إعجاباً متصلاً منذ أواخر العصور الوسطى الى العصر الحاضر . إذ اردات الصور الايطالية من أوائل قرن الرابع عشر الميلاد فصاعداً بأنواع من السجاد الشرقي من مختلف العصور الاسلامية تحت عرش العذراء . أو تحت أقدام القديسين . أو فوق أرضية الغرف والدهاليز ، أو فوق الموائد والمقاعد . أو غير ذلك من مواضع التزيين في هذه الصور . (شكل ٨ - ٩) . ثم أصبح صور هذا السجاد الشرقي من الأهمية الفنية بمكان . لأنها حفظت لنا نماذج سجادية لا وجود لأصولها في العصر الحاضر .

وفي عصر احياء العلوم في غرب أوروبا لم تكن الفنون الاسلامية ميداناً مغلقاً مجهولاً . برغم انصراف العقول في ذلك العصر الى الفنون الوثائقية والرومانية القديمة . بل أعجب الفنانون لأوريون بطرق الزخرفة في

(٥) يوضح من شكل ٧ هذا أن تقليد الكتابة العربية مكتوب بطريقة الحفر والنقش (hatching) ، وهذا الشكل رقم ٧ مأخوذ من كتاب عنوانه Longpérier L'Emploi des Caractères Arabes dans l'Ornementation chez les Peuples Chrétiens de l'Occident. Revue Archéologique, 11, 1845-1846, p. 700. — Reich : « Une Inscription Mamlouk sur un Dessin Italien du quinzième siècle », Bulletin de l'Institut d'Egypte, XXII, 1940, p. 127.

حيث يوجد قائمة بجميع المصادر في هذا الموضوع . وتنفي الإشارة الى أن Reich قصر بحثه في تلك المقالة (ص ١٢٣ - ١٣١) على صورة نقل فيها مصورها الأوربي — وهو من أساندة التصوير في البندقية في القرن الخامس عشر الميلادى — نص كتابه عربية من مشكاة مظلية بالمينا للسلطان الملك المؤيد شيخ (١٤١٢ - ١٤٢١ م) . وهذه الصورة وإن لم تكن فريدة في نوعها فهي نادرة ، وهي محفوظة الآن في متحف اللوفر بباريس .

الاسلام ، ولا سيما الزخرفة الباتية (arabesque ^(٦)) . من الدليل على ذلك ما حدث حين قدمت جماعة من أرباب الصناعات المعدنية من الشرق الأدنى الى البندقية في الصف الأول من القرن السادس عشر الميلادي . اذ أخذت هذه الجماعة تصنع أواني وصحائف (أطباق) ذات زخارف ناتئة بديعة التوزيع والفرع ، فلم يلبث الممانون البندقيون أن حكموا هذا النوع من الزخرفة . (شكل ١٠ — ١١) . ثم لم تلبث الزخرفة الباتية رغم تفرعاتها والتواءاتها وتعاريفها أن صارت أسلوبا محبوبا لدى الفنان في ذلك العصر الاحيائي ، حتى ان المصور الألماني هولباين الصغير — على استاذيته وجلالته — لم يتردد في استساغ نماذج للزخرفة من هذا الأسلوب . (شكل ١٢ — ١٣) ^(٧) .

ومن المعروف كذلك أن المصور العظيم رامبراند الهولندي — وهو أساذ مبداه وزمانه — كان من أوائل الذين اجتذبهم علو المستوى الفني في تصوير الأحياء في بعض الصور التي وصلت الى يده من إحدى بلاد الاسلام ، اذ امتدح منها رامبراند مجموعة عددها خمس وعشرون منحة مغولية سمورية ، وبلغ من إعجابه بها أن صور لنفسه نسخة منها . حين اضطرت ضائعة أحواله المالية الى بيعها سنة ١٦٥٦ ^(٨) م . ومن هذه المنمنمات المنسوحة واحدة في متحف اللوفر في باريس ، ويوضح

(٦) لم يصطحب علماء الآثار في بلاد العربية على ترجمة واحدة لهذه الكلمة المحدث في اللغات الأوروبية ، فهي عند بعضهم الزخرفة النباتية ، أو التوريقية ، وهي كذلك « الزخرفة الحائلة » ، بل اقترح بعضهم ترجمتها الى « الزخرفة الساكنة » تمييزا لها من الزخرفة بصور الكائنات الحية ، نظرا لما غلب على الزخرفة الاسلامية من استعداد اشكال الأحياء ، في الزخرفة والعنود عامة . ريادة .

(٧) انظر :

Jessen Der Ornamentstich Geschichte der Vorlagen des Kunsthandwerks seit dem Mittelalter Berlin, 1 20, pp. 63, 163, 105, 73, and figs. 41, 42, 72

وعن هذا الشكل الأخير نقلنا شكل ١٢ هنا . انظر كذلك شكل ٧٣ ، في كتاب (Jessen) . وتدل زخرفة فلاف الكتاب المتقدم على مبلغ الاهتمام بالزخرفة النباتية في أوربا في عصر أحياء العلوم ، اذ نقل المؤلف هذه الزخرفة من كتاب مطبوع في روبرخ عام ١٥٤٩ ، وهو Floetner Maureskenbuch وللتعريف بهذا الكتاب انظر كتاب (Jessen) ، ص ١٠٥ .

(٨) انظر :

Sarre « Rembrandts Zeichnungen nach indisch islamischen Miniaturen »

منها ومن اخواتها أن رامراندت استسخها كلها في سرعة . مع ادراك
خارق لكل ما فيها من تفصيلات فنية هامة . وهذه المُنسوخة تصور
أشخاص من السلالة السمورية اللامعة . قفى وسط الجزء الأيمن من
الصورة تيمورلنك نفسه جالسا تحت الجتر . أى لحظة السلطانية ، وهى
من شارات الملك . وأمامه السطانان آكر وحها نكير راكعان ، ووراءه
من ناحية اليسار ثلاثة سلاطين آخرين . عليهم عمر شيخ ، وبابر ، وهمايون .
(شكل ١٤) .

ومما يدل على أن امتلاك رامراندت لهذه المجموعة من المنمنمات
الاسلاميه لم يكن من دافع نزوة شخصية . بل من دافع اعجاب وتقدير ،
أن كثيرا من عظماء المصورين الانجليز في القرنين السابع عشر والثامن
عشر الميلادى . وأوائل القرن التاسع عشر كذلك . تداولوا امتلاك هذه
المنسوخات وأصولها ، وأن سير جوشوا رينولدز . رئيس المعهد الملكى
للفنانين (Royal Academy) فى لندن . أعجب بمجموعة أخرى من منمنمات
فاخره . وهى الآن من كنوز المحف البريطانى فى العاصمة الانجليزية .

لكن الاهتمام الأوربى العلمى بالآثار الاسلامية بدأ منذ القرن
الثامن عشر الميلادى . ومن أول ما وصل الى أورب من هذه الآثار مجموعة
من نقود ذوات سكة كوفية من القرن الثامن الى القرن الحادى عشر
الميلادى . وكانت هذه النقود وأشباهها مطلوبة أشد طلب فى الشمال
الشرقى من أورب أوئل العصور الوسطى . ولذا كثر ظهورها فى القرن
الثامن عشر الميلادى فى أعداد كبيرة بكثير من البلاد الواقعة حول
شواطئ البحر لسطى . وفى بلاد اسكندناوة . وشمال ألمانيا . وفى روسيا
كذلك . وأدى ظهور هذه المسكوكات الى بحوث حديه فى النميات
(النقود) الاسلامية . وبلغت حولها مؤلفات غير قليلة . وفى سنة ١٧٢٤م
ظهر فى لسزج بألمانيا بحث من تأليف جورج ياكوب كير^(٩) ، وهو بحث
أطلق عليه علماء الآثار اسم التأليف الأول فى علم النميات الاسلامية ،

(٩) انظر :

Kehr: Monarchiae Asiaticae-Saracenicae Status qualis VIII et IX.

لصحة قراءة المؤلف للكتابة فصلا عن جزالة الشروح ، وهذا البحث هو الأول كذلك في علوم الآثار الإسلامية عامة (١٠) .

على أن هذا القرن الثامن عشر الميلادي لم يضم حتى صار ندنا فوائمه (كتالوجات) لمجموعات من النميات الإسلامية بمختلف السلاسل الأوربية . ومن هذه المجموعة الكوفية في متحف بورجيا في روما ، ومجموعة متحف نانيانو في بادوا ، وكلاهما بإيطاليا . ثم مجموعة المكسة الملكية في جوتنجر بألمانيا ، ومجموعة استوكهلم بالسويد . ثم نهت هذه المرحلة الأولى من مراحل الدراسة في الآثار الإسلامية بتأليف فرايهرن أوائل القرن التاسع عشر الميلادي كتابا رتب فيه تعود الإسلامية ترتيبا تاريخيا . وهو على ما فيه من أخطاء تفصيلية صغرة ما برح غير مسبوق في ميدانه . بل لم يقم أحد بأية محاولة جديدة في تأليف آخر يحل محله (١١) .

ولا يزال البحث في دراسة النميات قائم حتى العصر الحاضر . إذ جعلها هذا سبق في الطليعة بالقياس الى الفروع الأخرى من الفنون والآثار الإسلامية . ففي السنوات الواقعة بين ١٨٧٥ و ١٨٩٥ م أخرج ستافلي لينبول كتالوج القود الشرقية بالمتحف البريطاني . في أحد عشر مجلدا . وأعقبته كتالوجات مشابهة في مجلدات أقل عددا لمجموعات بطرسبرج في روسيا سنة ١٨٨١ م . والمكتبة الأهلية في باريس (١٨٨٧ — ١٨٩٦ م) ، والمتحف السلطاني العثماني (١٨٩٤ — ١٩٠٣) ، والمتحف الملكي في برلين (١٨٩٨ — ١٩٠٢ م) . الواقع أن كثيرا من المستشرقين وعلماء النميات ظلوا يعملون في هذا الميدان طوال القرنين التاسع عشر والعشرين الميلاديين ، ولا حاجة لذكر أسمائهم أو أسماء اللامعين منهم ، ولا سيما

(١٠) انظر :

Mayer The Rise and Progress of Moslem Archaeology (in Hebrew), Jerusalem, 1935, p. 8.

وجدير بالذكر هنا أن ماير تعضل على مؤلف هذه السطور ترجمه انجليز به لتلك المقالة ، وهي أول محاضرة له في كرسي الاستاذية في تاريخ الفنون والآثار بالشرق الأدنى ، بالجامعة العربية ببيت المقدس . ولكتاب جورج يا كوب كذلك فضل كبير في اعداد هذا الفصل .

(١١) انظر المرجع السابق ، ص ٦-٧ .

بعد أن أخرج ليو ماير كتاب كشف النقود الإسلامية (Bibliography of Muslim Numismatics) لندن ١٩٣٩ م . وأحصى جميع مؤلفات هذا الموضوع حتى سنة ١٩٣٤ م . واجتذب ميدان النقود جماعة من علماء الولايات المتحدة الأمريكية . ودل كتاب تاريخ مدينة الري من مسكوكاتها . تألف مايلر (نيويورك ، ١٩٣٨ م) على طرق جديدة في ترسب النقود لخاصة بحد المراكز الإسلامية الكبرى ، وموازنة حقائقها بأخبار المؤرخين المسلمين .

غير أنه من المعروف الذي لا يحتاج إلى بيان أن النقود الإسلامية - على أهميتها من الناحية الأثرية - لا تستطيع أن تدخل في عداد الاتاج الفنية ، لأن غالبيتها العظمى لا تحتوى على شيء فني سوى الكتابة ثم إن النقود المصورة ، وهي التي تحتوى على صورة خليفة أو أمير . لا توجد إلا في النادر النادر . ومع هذا فالنقود فرع من الفروع المهمة في هذا الميدان ، لأنها تمد الباحث بحقائق تاريخية مادية .

ثم جاءت بعد البحث في النقود بحوث في نواح أخرى من الآثار الإسلامية تملأ عليها الصفه التاريخية . وأهمها النقوش ولحطوط . ففي سنة ١٧٧٢ م أخرج كارستن بيور قرآنه كوفيا مريبا ضمن كتابه وصف بلاد العرب (Beschreibung von Arabien) ؛ لكن البحوث المنظمة في هذا الميدان لم تبدأ إلا بعد حوالي خمسين سنة من ذلك التاريخ . ولواقع أن الكتابات الإسلامية لم تحتل مكانها من الأهمية العلمية إلا سنة ١٨٢٨ م . حين أخرج المؤلف رنبوه كناه المسمى « وصف الآثار الإسلامية في مجموعة دون بلاكس » . وهو أول كتاب هام يبحث في مجموعة كاملة من الآثار الفنية الإسلامية الصغرى . وفي سنة ١٨٣٨ م أخرج المستشرق الفحل يوسف فون هامر برجنشتال بحثا في كتابة كوفية من مسجد الحليعة الفاطمي الحاكم بامر الله . بالقاهرة . كما ألقى سنة ١٨٤٨ م محاضرة جامعية في موضوع الأحكام ، وهذه طبعت فيما بعد . وفي سنة ١٨٤٠ م ألف ميخائيل أنجلو لانشي كتابا في شواهد القبور

الإسلامية ، وأعقب ذلك سنة ١٨٤٥ - ١٨٤٦ بكتاب عنوانه بحث في الصور الرمزية العربية ، وفي تنوع الحروف الإسلامية في نقشها على المواد المختلفة (Trattato delle simboliche rappresentanze arabiche e della varia generazione de' musulmani caratteri sopra differente materie operati). وهو في ثلاثة مجلدات تبحث لا في مختلف أنواع الخطوط فحسب ، بل في تنظيمات رموز الكواكب في نماذج الفنون الصغرى ، والطلاسم ، والتعاويذ ، والأسلحة ، والرايات ، والملابس .

وأخيرا شهدت مطلع القرن التاسع عشر الميلادى يقظة الأوساط الأوروبية إلى أهمية الآثار الفنية الإسلامية . ولا سيما الآثار المعمارية . وكانت أسبانيا أول البلاد التي ثارت هذه اليقظة فذى ذلك إلى اسح مؤلفات ضخمة في مجلدات كبره . وأول رائد في هذا الميدان جيمس كافانا ميرفى . بكتابه الذى عنوانه الآثار الإسلامية في اسبانيا . وهو كتاب يتميز حساسة لكل شىء اسلامى . لا بصوراته الحميلة للمبنى الإسلامية وزخارفها وكتاباتهما فحسب . بل بعنايته بصفحة العنوان ، حيث سجل المؤلف السنة الهجرية (١٢٢٨ هـ) إلى جانب السنة الميلادية (١٨١٣ م) التى تم فيها طبع الكتاب (شكل ١٦) . وفى النصف الأول من القرن التاسع عشر الميلادى نشط مؤلفون آخرون إلى البحوث الأثرية في أسبانيا . وأخرجوا نائح بحوثهم في مطبوعات كثيرة . ومن أولئك دولابورد ، وچيرو ديرانجى ، چول حوروى ، وأوين چونس . وغيرهم (شكل ١٧) (١٢) . وحوالى ذلك الوقت كانت فئة أخرى من المؤلفين الذين امتد بحوثهم إلى الآثار الإسلامية بجزيرة صقلية ، وذلك عن طريق بحوثهم في الآثار الصقلية عامة .

(١٢) انظر :

De Laborde . Voyage Pittoresque et Historique de l'Espagne. Paris, 1806-1820.
De Prangey, G. : Monuments Arabes et Moresques de Cordoue, Séville et Grenade. Dessines et Mesurés en 1832 et 1833 Paris, 1836-1839
واطر لمؤلف
Essai sur l'Architecture des Arabes et des Mores en Espagne, en Séville et en Brabarie, Paris, 1841

Goury and Jones : Plans, Elevations ; Sections and Détails of the Alhambra, from Drawings Taken on the Spot in 1834, by the late Goury, in 1834, and in 1839 by Jones. (Arch., London, 1842-1845).

ولقارىء أن يستفهمها عن السبب الذى أثار هذا الاهتمام الجديد بالآثار والفنون الإسلامية . وهذا السبب لا ريب هو المعروف فى أوربا باسم الحركة الرومانيسكية — أى الإبداع — بما أثارته من الاهتمام بمعرفة المدينتين السابقتين المعده عن رومها ومحيطها . الواقع أن هذه الحركة التى أعجبت بتماثل النبلاء اليونانيين . وصور الفرسان الأتقياء من الأقباط . وشجعت أحياء الساذج اليونانية القديمة . والنماذج القوطية المعصور الوسطى . لم تسطع إلا أن تعجب كذلك بالفن الإسلامى الذى أسج عمائر ناسقة مثل قصر الحمراء فى غرناطة بأسبانيا الإسلامية . وهو « قصر منه يد روحانية بحلة ذهبية ، فصار كحلم من الأحلام ، وشاع فيه الانسجام والتناسب » (١٢) .

على أن هذا الاهتمام الجديد بالآثار الإسلامية لم يكن سوى فرع من تيار عمى أوربى تدف ضواهره الأولى سنة ١٧٦٢ م ، حين ظهر الجزء الأول من كتاب الآثار الأثينية . تأليف ستيوارت ورف (Stuart and Revett) ثم عدت أهدافه واضحة فيما أعقب ذلك من جهود لكشف أصول الأفكار المعمارية فى العصور القديمة . على أنه ينبغي أن نذكر هنا أن نوعا من الاهتمام بالمعائر الأجنبية العربية عمى لدوى الأوربى لم يكن معدوما حتى قبل هذه السنة من القرن الثامن عشر الميلادى . مع العلم بأن الغاية من هذا الاهتمام فى ذلك العصر المعروف فى تاريخ الفنون باسم العصر الرخرفى المبهرج (Rococo) . لم تعد تنبيه الأذهان والأذواق المصبة الى بناء المعائر الشبهة بالشرق . وإبتكار المناظر الهيجة ، ولا سيما فى تنظيم الحدائق . ولعل أوضح الأمثلة على ذلك النوع من الاهتمام أن المعمارى الانجليزى سير وليام تشامبرز وضع تصميمات الحدائق والمباني بسنده كيو . فى إقليم صرى قرب لندن — حوالى سنة ١٧٦١ م . على أن يكون من هذه المباني مجموعة من الفرائب المعمارية ، من معدد للآله اليونانى يان . وملهى للآله الرومانية أوجستا . وكندرائية قوطية ، وبيت

(١٢) جعل جودى وجونس هذه العبارة شعار الفلاف فى الكتاب المشار اليه فى الحاشية السابقة ، وهذا الشعار مطوع بحروف ذهبية كبيرة . وسط زخرفة الصفحة الأولى من المجلد الأول .

كوتشوشوسي . وياجودا صينية . وهكذا فضلا عن بناء أظفوا عليه اسم
 الهمبرا « الحمراء » . ورغم خلوه من أية هندسة معمارية اسلامية
 اسبانية (moorish) . وفلا عن مسجد من الأسلوب المعمارى التركى
 العثمانى . وهو أول بناء من نوعه في غرب أوروبا (شكل ١٥١) . ومع
 أن سير وليام تشامبرر طلب الى العالم الدكتور مورتون أن يمدّه بكتابات
 عربية صالحة للمسجد . فإن عدم وجود محراب داخل ذلك المسجد دل
 على قلة معرفة ذلك العصر بما تكون عليه بيوت العبادة عند المسلمين .
 لكن الغرض الذى تسوخه سير وليام تشامبرر له سطلب شئ سوى
 بهجة معمارية . مما تتصف به المباني التركية العثمانية (turquerie) .
 وبذا أحدث أسلوبا معماريا جديدا شاع في أوروبا (١٥) .

(١٤) انظر :

Chambers Plans Elevations Sections and Perspective Views in the
 Gardens and Buildings at Kew in Surrey, London 1763, pp. 5-6 pls. 20, 21, 27
 and 28. ١٨٢٤ م

(١٥) أعقب مسجد حدائق كيو مسجد آخر شيده دوقات البلاسات
 في حدائق القصر في شفترنجن بمدينة بادن قرب مانهايم بألمانيا ، وقام على
 بناء هذا المسجد نقولا دى بحاجه سنة ١٧٧٨ م والسنوات التالية .
 والمسجد لا يزال قائما ، وأسلوبه العلى على وجه التعميم فرنسى اتباعى
 - أى كلاسكى - وليس به من المعانى الشرقية التى أعجب بها ذلك العصر
 سوى المنحنيات والكنايات العربية . ومع عموم الأسلوب العلى الإسلامى
 في هذا المسجد الألمانى المعقد البناء . بالقياس الى المسجد الإحليرى السابق
 له . فهذان المبانى واتساهما على جانب عظيم من الأهمية للدلالة على قبول
 الروح العامة المحددة نحو الأساليب العلى الإسلاميه . انظر :

Martin Die Kunstdenkmäler des Amtsbezirks Mannheim, Stadt Schwet-
 zingen Karlsruhe, 1933, pp. 289-312.

ومبنى اسلام آخر على طراز تركى مما أعقب مباني حدائق كيو هو كوشك
 - أى قصر - في حدائق هاجا شمالي ستوكهلم بالسويد ، وكان تسده
 نمر من جنتاف الثالث ملك السويد سنة ١٨٧٦ م . بعد عدة تصميمات
 قدمها اليه المهندس المعمارى بير . وهذا المسجد لا يزال قائما . انظر :

Siren China and Gardens of Europe in the Eighteenth Century, NY
 1950, p. 192.

وكذلك اللوحة الملونة السابقة لصفحة ١٩٢ ، وكذا اللوحات ٣١ ، ١٦٤-١٦٦
 من ذلك الكتاب . ثم ان الكتب الخاصة بالحدائق دوات الأسلوب الجديد
 في القرن الثامن عشر الميلادى لا تقصر على نماذج من الأساليب الصينية
 الشائعة وقتذاك في أوروبا ، بل تحوى أحيانا على تصميمات ونماذج لمساحد
 واكشاك تركية . انظر :

Le Rouge : Détail des Nouveaux Jardins Paris 1776-1787

Lancaster: Oriental Forms in American Architecture, 1800-1870, Art
 Bulletin XXIX, 1947, pp. 185-90

لمعرفة ما به من البحث في تأثير الأسلوب العلى الإسلامى في العمارة الأمريكية .

وثمة دفع آخر ليقظة الأوساط العلمية الأوروبية الى دراسة الشرق
لأدبي وفنونه وآثاره . وهو دافع التوسع الاستعماري والسياسة
العسكرية في العصور الحديثة . مما يفعله الباحثون بعض الأحيان . مثال
ذلك حضار نابليون في حملته على مصر جماعة من العلماء لبحث شئون
البلاد المصرية بحث شاملا كاملا . اذ أعد أولئك العلماء رسوما تخطيطية
للمدن . والمباني . والعمائر الأثرية . ورسما مناظر معمارية للشوارع ،
والحصار . والمسجد . والدور . والحيوانات . والدروب . وأبواب
الأحاطة . ورسما كذلك مختلف الكتابات ، والنقوش ، والنقود ، ولم
يسر أن يعموا صورا توضيحية لأنواع لصناعات القائمة بمصر وقتذاك .
فصلا عن مختلف الأدواب المعملة في هذه الصناعات ، وكذلك الملابس ،
والآلات الموسيقية . وهكذا . وسبح عن هذه الأبحاث تأليف ضخم
حجم . وهو كتاب وصف مصر الذي استغرق طبعه من ١٨٠٩ الى
١٨٢٨ م . في تسع مجلدات . وعشر أخرى لرسوم والصور التوضيحية .
وانسب للجرائد الجغرافية . وهذا كتاب في مجموعه هو القاعده
الحصنه والمنبع الحقيقي لمعرفة الآثار الاسلاميه . (شكل ١٨ - ١٩) .
وبعد ذلك بضع سنين ، أي بعد أن اسولى فرنسون على بلاد الجزائر ،
سنة ١٨٣٠ م . استطاع يوجي دلاكروا أن يقوم برحلة الى مراكز
سنة ١٨٣٢ م . وهي الرحلة التي أودع في شرحها رسومه التخطيطية
الشهيرة لمناظر الحياة في المجمع المراكشي ^(١٦) الاسلامي ، كما استطاع
راقوازيه أن ينشر سنة ١٦٤٦ م كتابه الذي عنوانه « رحلة كشمية عمه
بلاد الجزائر في سنوات ١٨٤٠ - ١٨٤٢ - ١٨٤٣ م » . ومن هذه الحركة

١٦ يوجد من هذه الكتب دوات الرسوم التخطيطية ثلاثة في متحف
اللوفر . Paris. Musée National du Louvre. Exposition Eugène Delacroix .
Juin-Juillet, 1 30. Paris No. 773-775

ويوجد كتاب رابع منها بمتحف كوبنهاغن في شانتيني . انظر :
Le Voyage de Eugène Delacroix au Maroc
حرر من مجموعه قصر شانسبي نشره Guiffrey في باريس سنة ١٩١٢ .
ومد بضع سنوات حصلت مكتبة بيربونت مورجان على الكتاب الخامس
من هذه الكتب ، وفيه رسوم غير مطبوعة . انظر :

The Pierpont Morgan Library Review of the Activities and Acquisitions
of the Library, from 1930-1 40, N Y. 1941. pp. 62-64, and p. 1. XII

المدرجة بين سيطرة دولة من الدول الأوروبية سياسيا على بلد من بلاد الشرق الأدنى . وبين تشجيع هذه الدولة للبحوث الأثرية تشجيعا ناشطا في ذلك البلد ، ما هو قائم حتى العصر الحاضر . بدليل تأسيس دائرة الآثار الفلسطينية على يد البريطانيين ، سنة ١٩٢٥ م . بعد أن صار اليهم الانتداب على فلسطين ، واصدارهم مجلة ربع سنوية ذات قيمة علمية عالية أثرية مد سنة ١٩٣١ . ومهما تباينت الآراء بين الدافع والضار التي أدت إليها السيطرة الأوروبية في الشرق ، فإن هذا النشاط العلمي في ذاته أثمر أطيب الثمر .

وفي أواسط القرن التاسع عشر الميلادي ظهرت دراسات تفصيلية أخرى في العماثر والمخلفات الاسلامية التي كشفت عنها جهود القوامين على الآثار الاسلامية في الجزء الشرقي من البلاد الاسلامية . وهي دراسات قام على معظمها مهندسون معماريون ورسامون . ومن أوائل هذه جهود ياسكال كوست في كتابه الهندسة المعمارية الاسلامية . وهو الكتاب الذي جمع رسوما لآثار مدينة القاهرة من مقاييسها . ونم طبعه سنة ١٨٣٩ م . بعد أن قام كوست على مسح هذه الآثار وقياسها من سنة ١٨١٥ الى ١٨٢٥ م . وأعقب كوست كتابه هذا بسلسلة من الدراسات في الهندسة المعمارية الايرانية ، بالاشتراك مع المصور فلاندا . واستمر ظهور هذه السلسلة بين ١٨٥١ و ١٨٦٧ م . ثم امتدت هذه الجهود الى الآثار الاسلامية في مصر مرة أخرى . في مؤلفات بوجوان (١٨٧٣ - ١٨٩٢ م) . وكذلك بريس دافن (سنة ١٨٧٧ م) . وهي مؤلفات لا تقصر على العمارة محسب . بل تشمل مختلف الفنون الصغرى . فضلا عن دراسة تفصيلية دقيقة للأشكال الهندسية في الزخرفة المعمارية . في مؤلفات بوجوان . والرسوم التوضيحية في هذه المؤلفات تنم عن قيمة كبيرة ودراسة راعية بكل ثناء ، برغم ما يتسم به بعضها من غلو الخيال . وبرغم قصور المون في هذه المؤلفات نفسها عن مرتبة علمية عالية . ذلك أن هؤلاء المؤلفين لم يسبق لهم معرفة خيرة بالكتابات الواردة على الماني والأدوات سي تناولتها دراساتهم . ولم تنوهر لديهم الأساسيات التاريخية اللازمة بفهم

النام . وله تمنع جهودهم منع فهم اللروميات المعمارية الاسلامية . بل
غلب عليها تفضيل المتأخر المزوق عن المتقدم العارى عن التزيق والبريق ،
برغم التسليم باقتصار جهودهم على التواحي الفنية البحتة . مثال ذلك
أن كوست عى أكبر عناية بتصوير المباني فى كتابه الخاص بالمعمار
الايرونى . لكن تصويره لتصميم لمسجد الأعظم فى اصفهان أهمل الحجرة
ذو القبة الصغيرة التى ترجع الى سنة ١٠٨٨ م . وهى الحجرة التى تعد
فى العصر الحاضر فخر الفنون المعمارية الايرانية فى العصور الوسطى (١٧) .
ثم ان الرسوم التوضيحية عى جمالها وروقتها فى الأطلس الكبير الذى
هو جزء من كتاب « رحلة فى تركيا وايران » ، تأليف هومير دى هل
(شكل ٢٠) تسر الناظر اليها على أنها انطباعات فنان من أهل القرن
السابع عشر الميلادى يرور ايران . لا رسوم ذات قيمة وصفية دقيقة للآثار
المعمارية التى رآها . عى وتيرة ما قام به المعاصرون له فى رسوم المناظر
الايطالية . والواقع أن هذه الرسوم التوضيحية فى أطلس هوميردى هل
تشبه من هذه الناحية متبوع القالد فى سابق الأطلس الكبيرة التى
تصور الآثار الاسبانية وحولها جماعت من أهل اللاد ، من باب الاضافة
الى رخرقتها ومع هذا كله فلهؤلاء المؤلفين الأولين فى فنون الشرق
الادنى فضل لا يمحط . وهو أنهم أودعوا مؤلفاتهم معلومات ذات قيمة
علمية كبيرة عن مآل رالت بعد أيامهم تمام الزوال دون أن يبقى لها أثر .
أما مرحلة التحول الهائى نحو الدراسة للفنون الاسلامية فهى نتيجة
جهود رجلين صرف كل منهما حياته فى دراسة الناحية الأثرية من تاريخ
هذه الصور . وأول هذين الرجلين الاثنين يوسف فون كراباسك النمى
(١٨٤٥ — ١٩١٨ م) الذى شمل اختصاصه . لا علوم النمسات والنقوش
فحسب . بل يرجع اليه الفضل فى فتح مبادئ بحثية جديدة ، اذ هو
المؤسس لعلم الأدوات الأوروى البرديه العربية فى الدراسات الاسلامية .
وهو البدىء لبحوث علم الرنوك الاسلامية . ثم انه هو الذى افتتح

Coste Monuments Modernes de la Perse, Mesurés, Dessinés et (١٧)
Décrit, Paris 1867, p. 1 IV.

البحوث الهامة في كتابات المنسوجات الاسلامية . حين عكف على قراءة هذه الكتابات في الأقشة والملابس الكهنوتية بكنيسة مريم العذراء بمدينة داترج (١٨٧٠ م) . وهو كذلك الأول في استخراج الحقائق والاشارات التاريخية من المراجع العربية والایرانية لفهم أنواع السجاد الشرقي ، كما هو واضح في كتابه التصوير الايراني في صناعة السجاجيد (سنة ١٨٨١) . وصفوة القول ان كراباسك هو الرائد الأول في سبيل احلال الآثار الاسلامية محلا تاريخيا واسع الأفق . لانه أدرك تمام الادراك أهمية علم النقوش . فضلا عن المراجع العربية نفسها ، في تقدير الآثار الفنية . غير أنه من المؤسف أن نتائج البحوث التي قام عليها كراباسك جاء أغلبها ناقصا . أو خاطئا كل الخطأ ، بسبب غلوه في الاعتماد على جامع الخيال . ولذا فليس مما يدعو الى العجب أن إحدى خدماته الهامة غير المباشرة في ميدان التقدم في البحوث الأثرية الاسلامية جاءت عن طريق نقد جهوده . ولا سيما عن طرق البحوث والكشوف التي أثار هو معاصره ولاحقيه الى اتباعها . ثم ان كراباسك جدير بالاهتمام من ناحية أخرى ، اذ بفضل جهوده صار علم الآثار لأول مرة من العلوم المحترمة في دوائر المعرفة . وتقديرا لهذه الجهود أنعمت عليه الحكومة النموية برتبة الفروسية . وعينه مديرا للمكتبة الملكية (Hofbibliothek) وسكرتيرا للمجمع النموي في فينا (١٨) .

أما ثاني هذين الرجلين فهو ماكس فان يرشم السويسري (١٨٦٣ - ١٩٢١ م) . وهو في شخصيته مختلف كل الاختلاف عن كراباسك . وفي أستاذيته في النقوش العربية عميد لا نظير له . اذ بدأ حياته مستشرقاً مارفاً أحسن مران ، ولا سيما في الساريح . مفرماً بالفنون الاسلامية أعظم غرام . ثم تحول فان يرشم الى الآثار الاسلامية تحولا طبعيا لعمله ، بسب ما تراءى له في الآثار من وسيلة للتعق في الدراسة التاريخية . وكتب في ذلك سنة ١٨٩١ م يصف مختلف الفروع في

(١٨) راجع Becker Islamstudien, Leipzig, 1924-32, Vol II, pp. 491-498.

(١٩) هذا الاقتباس مأخوذ من فان برشم

المجلة الاسيوية، السلسلة الثامنة، ج ١٧ سنة ١٩٦١ ص ١٢٤٤-١٢٤٥.

واختص جاستون قيت بالمجلد الثاني المعلق بمصر. وبالإضافة إلى الإشراف على هذا العمل الهائل ، أخرج فان برشم عدة بحوث في نقوش مختلف العصور والأقاليم الإسلامية ، من مراكش على عهد بنى مرين إلى شوان شو بالصين على عهد المسلمين . دون أن يقلل ذلك من عنايته البالغة بمصر (٢٠) والشام . ثم توقف العمل في مواد هذه المجموعة الأثرية بسبب وفاة فان برشم سنة ١٩٢١ م ، لكن جاستون قيت وسوقاچيه يعملان حتى الآن على إخراج مجلدات جديدة متعلقة بمكة ، والمدينة . ودمشق ، وربما امتد عملهما إلى بروصة وإستانبول (٢١) .

وسوف يظل العمل مستمرا في ميدان النقوش ، بسبب ضخامة كمية المواد في مختلف البلاد الإسلامية ، وسوف تزداد البحوث فيه عمقا وتشعبا ، كلما تفحصت بلاد جديدة للكشف والدراسة . ويكفى أن نذكر هنا على سبيل البرهان أن قلبا من غير المسلمين استطاع أن يدخل المسجد الإيراني قبل سنة ١٩٢٠ م . وأن تصوير النقوش والكتابات الداخلة بهذه المساجد (٢٢) تصويرا شمسيا (فوتوغرافيا) كافيا لأغراض البحث لم يبدأ قبل هذه السنة . ثم إنه فضلا عن الكتب والمقالات الباحثة في نقوش المراكز الإسلامية الكبرى ظهرت مؤلفات أخرى لا تقل عن هذه أهمية ، وهي تبحث في نقوش بعض بلاد الأطراف الإسلامية . ومثل

(٢٠) انظر : هرتزفيلد وفان برشم ، مجلة الإسلام (Der Islam)

الألمانية ، ج ١٢ ، سنة ١٩٢٢ ، ص ٢٠٦-٢١٢ ؛ وانظر كذلك Boissier
Revue Archéologique في In Memoriam Max Van Berchem
الفرنسية ، حيث توجد قائمة مؤلفات فان برشم في السلسلة الخامسة ،
ج ٧ ، يناير - أبريل ١٩٢٣ ص ١٤٨-١٥٤ .

(٢١) انظر : Sauvaget L'Archéologie Musulmane en France de 1939-45
في مجلة Ars Islamica ، ج ١٣ - ١٤ « سنة ١٩٤٨ » ص ١٥٧ .
وبوي سوقاچيه فحاه بعد كتابة هذا الفصل ، وسوف تتأثر هذه المشروعات
بوفاته ، بل يبدو الآن أن أكمل هذه المشروعات يتطلب جيلا جديدا من
الأوروبيين .

(٢٢) لا تزال جميع مساجد مراكش وبعض مساجد تونس مملوكة على
غير المسلمين ، وهذا ما يجعل لمطوعات مارسية وتراس وغيرهما من الباحثين
الفرنسيين أهمية كبيرة .

ذلك كتاب النقوش الهندية الإسلامية (Epigraphia Indo-Islamica) تأليف هورفتر (١٩٠٩ - ١٩١٢ م) ، و غلام يزداني بعده (١٩١٣ م) ، ثم كتاب النقوش والكتابات العربية الآسائية . تأليف ليثى بروثنسال (ليدن وباريس ١٩٣١ م) ، فضلا عن المطبوعات الخاصة بالنقوش والكتابات العربية في البلاد الروسية . والمجموعات الى نشرتها مدام فيرا كراتشكوفسكايا .

و حديثا هبا جاستون ثبت مشروعا عظم الفائدة مشاركة مع اتين كومب وسوقاچيه ، لاخراج المجموعة التاريخية للنقوش العربية التي ظهر منها حتى الآن ثلاثة عشر مجلدا تشمل جميع النقوش العربية المعروفة حتى سنة ٧٠٥ هـ ، أى ١٣٠٥ م ، وعددها ٥٢٠٠ قطعة (القاهرة ١٩٣١ - ١٩٤٤) . وأحدث من هذا مشروع لاصدار سلسلة من مطبوعات تشمل النقوش الشرقية عامة ، لا النقوش الإسلامية فحسب ، وتنشرها مدام كراتشكوفسكايا ، ويحتوى العدد الأول (١٩٤٧ م) — وهو الذى وصل الى العالم العربى من هذه السلسلة حتى الآن — على مادة معظمها اسلامى . ومع أن رداة الأسلوب اللغوى والرسوم التوضيحية في هذا العدد قلت من القيمة المنتظرة من هذه السلسلة ، وهى رداة عدى عليه مع الأسف على كثير من المطبوعات الروسية الحديثة ، ولا سيما بعد أن صارب حالة من الملغصاف الفرنسيه الى جرت العادة على تذييل المتنون الروسيه بها ، فان استمرار ظهور هذه السلسلة سوف يكون — على الرغم من ذلك كله — منبع فائدة لدراسة النقوش .

غير أنه على حين يبدو واضحا مما تقدم هنا أن دراسات النقوش أصبحت من الدراسات المستقرة القواعد بين الباحثين ، لم تعد الحوث فى ميدان الخطوط مرحلة الطعولة الأولى ، على قريبا من ميدان لنقوش . ومصدق ذلك أنه اذا استثنينا الدراسات العميقة للأوراق البردية العربية التي يحتل فيها أدولف جروهمان مكانة الأخصائى

الراسخ البارز ، فليس لدينا ما نستطيع الاشارة اليه في علم الخطوط سوى مجموعات لأنواع معينة من الكتابة العربية . جمعها كل من وليم رايت ، ومورتز وشارل ايوار . وثيران . وآرثر آربري ، وكونل . ودلافيدا ، وغيرهم . وباستثناء بحوث الآتية سية أبوت في أشكال الخط الكوفي في العصور الاسلامية الأولى ، ولاسيما بحوثها في كتابها الذي عنوانه « ظهور الكتابة العربية في شمال بلاد العرب » (شكاحو ١٩٣٩ م) . فليس يوجد لدينا من البحوث العلمية القاهمة في عصور هذا الميدان سوى الضئيل القليل ، وبخاصة فيما بعد القرن الثالث الهجري . وهذا يؤسف له كل الأسف ، لأن علو مكانة الخط في البلاد الاسلامية ينبغي أن يجتذب دراسات متصلة في هذا الميدان الهام .

وثمة فرع آخر من فروع الدراسات التاريخية الداخلة في دائرة الآثار الاسلامية ، وهو علم الرنوك ، وهذا يستأهل تويها خاصا به في هذه المجالة القصيرة في الآثار الاسلامية ، لأنه موضوع أصبح مدته معروفا تمام المعرفة تقريبا . اذ بعد قيام عقوب آرتمس بحوث تمهيدية فيه من سنة ١٨٨٧ الى ١٩١٢ م أخرج ليو ماير سنة ١٩٣٣ م تأليفه النمودحي الذي عنوانه الرنوك الاسلامية (Saracenic Heraldry) . وأودع فيه بحوثه الدقيقة في هذه المنشأة الايوبية المملوكية . معتمدا على مختلف المراجع العربية التاريخية المعاصرة ، وجميع ما كشفه الكاشفون حتى تلك السنة من الآثار والأدوات ذوات الرنوك . ثم أعقب ماير ذلك التأليف بمقالات تكميلية لبحوثه السابقة ، مبتغيا من ذلك أن يشرح بعض الرنوك المستعصية شرحا جديدا ، وأن يضيف الى مواده ما جد عليه من أدوات ذوات شارات رنكية .

ومن المعنيين بالآثار الاسلامية كذلك جماعة من العلماء أخذوا في دراسة مواد هذه الآثار من الناحية الفنية فقط . فابعوا بذلك طريقا مختلفا عن طرق سائر الدين تقدمت أسماؤهم في دراسة الفنون والآثار الاسلامية . ولم تغلب بحوث هذه الجماعة من الحفائي

تاريخية سوى أسماء الحنفاء والسلاطين والأمراء ، وتواريخ عهودهم
ومسكناتهم ، وأسماء الفنانين في قصورهم ، ليجعلوا منها هيكلا أو
أصرا لبحوثهم . أما المقاييس والوسائل التي استعانت بها هذه الجماعة
على تدوير موادهم وشرح قيمتها ، فهي الأسلوب الفني وعدم الصور
(iconography) والصنعة . وأعظم شخصية بين هذه الجماعة فردريش
ررد (١٨٦٥ - ١٩٤٥) الذي عكف مدسة ١٨٩٥ م فصاعدا على
دراسة الآثار الإسلامية من آسيا إلى الهند . لا من نواحي المعمار
والتصوير والفنون الصغرى فحسب ، بل من نواحي الأصول الفنية
السابقة لهذه الآثار الإسلامية تاريخيا ، أي نواحي علاقتها بالفنون
وعساعات الفنية في أوروبا والشرق الأقصى . وذلك في نحو مائتين
من الكتب والمصالاب . وفي كثير من هذه البحوث الدقيقة التي اشترك
معه غالبا في اخراجها علماء ممتازون في القشوش ، استطاع فردريش
ررد . أن يعين الوضع التاريخي والجغرافي لمجموعات من الآثار والأدوات
الإسلامية تعيينا آثرا عليه بعض الأحيان معارضات لم يلبث أن ظهر
بطلانها وعدم صحتها . ونظرا لما اطوت عليه بحوثه في المعاني والأهميات
تسحق من الطبيعي أن يكون أول بحث في هذا الميدان نشر لمؤلفاته
المتعددة النواحي فهرس مشروح .

ولدينا في سالادان وجاستون ميخون شخصيتان أخريان ذاتا أهمية
في هذا الميدان . إذ أخرجتا تاليفا اسمه « كتاب في الفن الإسلامي » في
محررين (باريس ١٩٠٧ م) وتناولاه فيه كل فن من الفنون الإسلامية
على حدة . من معمار وتصوير وفنون صغرى . متبعين في ذلك طريقه
بحث الباكر الذي قام عليه ستانلي لينبول في كتابه « فن المسلمين في
مصر » . وهذان المجلدان اللذان أخرجهما سالادان وميخون قبل الأوان ،
بصرف لقيمة المواد المعروفة لهما وقتذاك . يدلان على مبلغ روح الاقدام في
درس الرجلين . بل الواقع أن بحوث سالادان في المعمار لم يستطع أحد

أن يصيف إليها من الناحية العامة. وهي لا تزال موضع أهمية معينة .
 بدليل طبع هذا الكتاب طبعة ثانية سنة ١٩٢٧ م . ومع أن كل فصل من
 فصول هذه الطبعة الثانية جاء ضعف حجمه في الطبعة الأصلية الأولى .
 لم يستطع القائمون على هذه الطبعة الثانية أن يستوعبوا فيها جميع
 المواد الأثرية التي أضحت في متناول الباحثين . مثال ذلك أن الفصول
 المعمارية الفائقة التي كتبها مارسيس لم تعد المغرب وإسبانيا وصقلية
 الإسلامية . وأن المجلدين اللذين كتبهما ميحيون لم تغل محتوياتهما من
 بعض الخطأ . على أن هذا الكتاب الحافل أصبح نموذجاً ومنعاً كذلك
 لكثير من المؤلفين في الفنون الإسلامية عامة . ومن أولئك ديز (١٩١٧ م) .
 وكونل (١٩٢٥) . وجلوك وديتز بالمشاركة (١٩٢٥ م) . وآخرهم ديساندا
 الذي جاء كتابه (١٩٣٠) أول تأليف في اللغة الانجليزية في الصور
 والفنون الصغرى . وكذلك أول تأليف يعتمد كل الاعتماد في مادته على
 مجموعة أثرية واحدة . وهي مجموعة متحف منروبوليان في مدينة نيويورك^(٢٤) .
 وفي بلاد العربية هذا ركي حسن ذلك الحذو . في كتابه ذي الصور
 التوضيحية الجيدة في فنون إيران الإسلامية . وعنوانه الفنون الإيرانية
 في العصر الإسلامي (القاهرة طبعة ثالثة ١٩٤٦ م ١٢٥) . ومن

(٢٤) أنظر :

Die Kunst der Islamischen Völker.

Kühnel Islamische Kunst und Bilder Berlin 1917 Kleinkunst Berlin, 1925

Glück and Diez: Die Kunst des Islams Berlin 1925

Imam: A Handbook of Mohammedan Decorative Art. New York

Handbook of Mohammedan Art : هذا الكتاب عنوانها :
 وقام أحمد عيسى أمين المكتبة العامة بحاميه القاهرة على نقل هذا الكتاب
 إلى اللغة العربية لمؤسسه فرانكلين . والكتاب الآن تحت الطبع . وعنوانه
 الفنون الإسلامية . زيادة .

(٢٥) ظهرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب سنة ١٩٤٠ م ، وقبل ذلك

— أي ١٩٣٥ م — أخرج المؤلف الجزء الأول من تاريخ الفن الإسلامي في مصر .
 وهذا الكتابان اللذان أخرجهما ركي حسن ، من مطبوعات متحف الفن
 الإسلامي في القاهرة (دار الآثار العربية سابقاً) . وحديثاً أخرج هذا المؤلف
 كتاباً في فنون البلاد الإسلامية فاطمة . سماه : فنون الإسلام ، القاهرة .
 ١٩٤٨) غير أن كاتب هذه السطور لم يطلع على هذا الكتاب الأخير .

الملحوظ في هذه الكتب أن المعيار — وهو في بعض هذه الكتب لا كلها —
 يحل فصولا مستقلة عن التصوير والفنون الصغرى . وأن الفنون
 الصغرى نفسها مفصلة إلى مواد متنوعة لشرحها واحدة بعد أخرى .
 وواقع أن هذا الترتيب العام سري إلى موسوعة الفن الإيراني التي
 قام على نشرها يوب عام (١٩٣٨ - ١٩٣٩ م) (Survey of Persian Art)
 وهي في سب مجلدات ضخمة اسعرض فيها مؤلفوها وعددهم
 تسع وستون مؤلفا - مختلف أطوار الفن الإيراني من العصر الحجري
 إلى القرن التاسع عشر الميلادي . غير أن هذه الطريقة على الرغم من
 سببها فهم النظم الفني في متنوع مواد الآثار . تجعل من المستحيل على
 الباحث أن يستخلص منها منظورا تاريخيا صحيحا ، أو أن يستخرج منها
 صورة حقيقية للروح (zeitgeist) التي تنبئ عن نفسها في
 أسلوب مجموعته المواد الأثرية الخاصة بعصر على حدته ، وهي على أية
 حال طريقة تشبه تنظيم المباحث العامة في القرن التاسع عشر الميلادي .

وأول خارج على طريقة سالادان وميجيون من رجال الآثار هو كونل
 في الجزء الذي نشره به في تاريخ الفن (Handbuch der Kunstgeschichte)
 الذي قام على نشره شرنجر (سنة ١٩٢٩ م) . إذ عالج كونل في ذلك
 الجزء جميع الفنون لكل عصر بذاته من مختلف العصور ، واستطاع
 بذلك أن يبين حلقاب الاتصال من متنوع مراكز الفن ، وكذلك حلقات
 الاتصال بين مختلف الأدوات الأثرية . وحديثا أخرج مارسيه وحده
 الكتب الأولى من هذا النوع . واسمه الفن الإسلامي (باريس ١٩٤٦ م) .
 وهو مدخل مختصر دقيق بالغ الفائدة في موضوعه .

تأ أول الباحثين الذين مزجوا بين طرق البحث التاريخي والتحليل
 انشئ فهو رولست هرتزفيلد (١٨٧٩ — ١٩٤٨ م) ، وذلك لأنه تعلم
 تعليمًا نظميًا ليكون معماريا ومؤرخا للفنون ومستشرقًا ، وبهذا اجتمعت
 فيه صفات جعلته مؤهلا أكمل تأهيل للمزج بين صرامة طرق البحث
 التاريخي المستند إلى فهم محتويات المؤلفات التاريخية والنقوش والنقود

وبين التقدير الذاتى الخاص للمستوى الفنى فى الآثار . وعلى مقتضيات هذه الطريقة بحث هرترفلد آثار ايران والعراق والشام . ولا سيما عمائرهما ، وزخارفهما وتصاويرها ، وتقوشها ، فى عدة رحلات الى الشرق الأدنى . حيث قام على عدد من الحفائر والأعمال الاستكشافية : ومؤلفاته العديدة فى مختلف الموضوعات الاثرية أضحت فى الواقع مما لا يستغنى عنه كل باحث فى ميدان الآثار (٢٦) .

غير أن الجنوح الى التخصص الذى أصبح ظاهرة ملحوظة النمو فى مختلف العلوم والبحوث فى هذا القرن العشرين الميلادى ، أصبح ظاهره ملحوظة كذلك فى ميدان الفن والآثار الاسلامية . والدليل على ذلك جماعة الباحثين الذين يقصرون أنفسهم على اقليم واحد . أو مادة أثرية واحدة . ومع ما فى هذا التطور الجديد من وجوه النقص نتيجة ما يحتمل من اغفال الصلات الفنية بين مختلف مراكز الآثار الاسلامية ، فضلا عما يحتمل كذلك من قلة التقدير للأفكار الفنية المتبادلة بين أرباب الصناعات ، فلا محيص عن التخصص فى بعض الفروع الكبرى فى ميدان الآثار . أى المعمار . والتصوير ، وفنون المنسوجات . بل يبدو أن هذا التطور عامر بالفائدة الى حد معين . نظرا لكثرة عدد الموضوعات الواصفة للآثار والأدوات الفنية الأثرية كثرة مسنره . ومن طلبة هذه الفئة الجائحة الى هذا التخصص كرزويل مؤرخ العمارة الاسلامية . وتائع معظم بحوثه واضحة فى مؤلفه الصخم الذى عنوانه المعمار الاسلامى فى صدر الاسلام . فى ثلاثه مجلدات (اكسفورد . ١٩٣٢ - ١٩٥٠) ، وكذلك فى مؤلفاته المرتقبة الظهور فى المعمار الاسلامى المصرى . وبعض مدينون كذلك كثير من الفضل لها لمؤرخ معمارى آخر . وهو ألبير جابريل الذى أخرج دراساته فى الآثار المعمارية فى تركيا العثمانية فى عدة مجلدات .

Miles: The Writings of Ernest Herzfeld (٢٦)

فى مجلة Chrs. Islamica ، ج ٧ سنة ١٩٤٠ ، الصفحات ٨٢ - ٩٢
وسوف يظهر سحق مؤلفاته فى هذه الجلة ح ١٥-١٦ سنة ١٩٥١ م .

ومنهم كتاب الآثار التركية في الأناضول ، في مجلدين (باريس ، ١٩٣١ - ١٩٣٤ م) . وكتاب رحلات أثرية في تركيا . في مجلدين (باريس ، ١٩٣٤ م) . وكتاب القصور التركية حول شواطئ البوسفور (باريس ١٩٤٣) . ومن قام بخدمات جليلة كذلك في هذا الميدان جرتروود بل . وجيرلت . وروبرت . وكولن - وينر . وتراسي ، وهوردارد وسوقاچيه . وست . وولر ، وغيرهم . ومن المؤلف أنه يستحيل على كاتب هذا الفصل لقصور أن يذكر شيئا من فائق البحوث التي قام عليها مخلف الباحثين في كل فروع الآثار . ولابد من الاقتصار على أسماء بضعة فقط من أولئك الباحثين . فهي شاسع ميدان الفنون الزخرفية استطاع أن نشر أولا إلى اليهود التي قام عليها والسن ، وريجبل ، وود ، وثاندا إلى المطوعات النموذجية التي أخرجها رره وكولن ، وأخيرا إلى الدراسات العاليه التي قام عليها مارتان . وكوشلان ، ومارسيه . وفون فالكه . وريفيسال . وديماند . وأغا أوغلو . ولام . واردمان . ودي . ولين ، ورايس . وبهرامي . وغيرهم . واحدد التصوير عقول كثير من الباحثين والخبرين بالمصون . ومهم بلوشه . وشولز . ومارتو . وفنر . وسرتوماس رنولد . وساكسان . وسوكي . ودي لوري . ومونييه دي فيلار ، ودياكوف . وشرويدر ، وبوختال ، وأولئك بالاضافة إلى بنيون وولتكسون . وحرأي . الدين اشتر كوا ثلاثتهم في تأليف كتاب المنمنمات الإيرانية (لندن . ١٩٣٣ م) . وهو أحسن كتاب في موضوعه .

وثمة جماعة أخرى من الباحثين إلى التخصص هي جماعة العاردين لي وصف التراث الأثري في إقليم معين . ولهذه الجماعة يسبب جومير موريو ، وتوريس بالناس ، وفرانديس ، وهو الذي تركزت مسوله في الفن الاسلامي لمعربي (Hispano-Moresque) . ثم كومارازومي . وبراون ، وجوتز ، وهو الذي وصف الفنون الاسلامية في الهند . وأنتج الاهتمام الحديث بالكشف عن الماضي جماعة أخرى من أولئك الاختصاصيين

وهم عماء الحفائر . وعلى رأسهم هرتفولد الذي لا يدانه أحد ، ومهم
كذلك أبنون ، وهاورر وولكنسون ، وأولئك الثلاثة من الولايات المتحدة
أمريكية . ولعل أكثر هذه الجماعة كلها توفيقا ونجاحا شلومر حر
الألماني ..

نرى أن التطور والحنوح نحو هذه الماديين الاختصاصية يدل في ذاته
على ريداد الاهتمام بالنقن الاسلامى ، واستمرار التوفيق فى كشف
مواد فنية حديرة ، فضلا عن جديد الامعان فى شرحها . وبرهان ذلك
اعتماد فون لسنح سنة ١٨٧٧ م - أى حين نشر كتالوج السجاد الشرقى
فى الصور الأوربية فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلادى -
أن أصول ذلك السجاد غير موجودة ألبته . غير أن كتالوجا مطوعا لخمس
سنوات بعد ذلك التاريخ اشتمل على صور سب سجاجيد قديمه
محمولة لدى أصحابها مقطوع بوجودها . حتى اذا وصلنا الى
سنة ١٨٠٠ م ألفنا عدد السجاجيد المعروفة . والمصنوعة قبل هذا
التاريخ ، تزيد على الألف . بل لدينا قطع صغيرة وكبيرة من سجاجيد
يرجع تاريخها الى أوائل العصور الوسطى . ثم ان المؤلفات فى هذا
الميدان أضحت من الكثرة بحيث أصبح الباحث فى حاجة الى كتشاف
أو فهرس لارشاده . مع العلم بأن دور التحليل والشرح فى موضوع
السجاجيد الشرقى لا يزال كذلك فى دور الطعولة الاولى . وهذه المصنوعة
لا تقتصر على الإشارة الى دراسات الرسوم فحسب ، بل الى دراسات
الكتابات النظرية الايرانية .

ويوضح نمو مثل هذا الاهتمام فى دراسة التصوير ، ومن الدليل
على ذلك أن فان برشم لم يذكر التصوير قطعا سنة ١٨٩١ م ، حين رتب
فصول كتابه الذى أزمع تأليفه وتسميته « كتاب فى الآثار الاسلامية »
وذلك لأن شيئا لم يكن معروفا وقتذاك عن هذا الموضوع . والواقع
أن التصوير الاسلامى لم يصبح ذا موضوع بين الباحثين الا بعد أن
كشف موزيل مجموعة الصور الحائطية فى القصر الأموى فى قصر

عمره بالشام . سنة ١٨٩٨ م اذ أدى وصول أخبار هذه الصور الى دهشة وحيرة بين المستشرقين الأوربيين . نظرا لما هو معروف من الكراهية التقليدية والحريم الجمد للصور في الكتب الفقهية الاسلامية ، كما أدى الى جدل طويل حول الموقف الديني من التصوير في الاسلام . ثم أدب كشوف هرتزفلد لعدد من الصور الحائطية بعد ذلك بقليل في سامرا سنة ١٩١١ م الى اعتثار فن التصوير فاحية من نواحي الحضارة الاسلامية . حتى اذا عثر علماء الحفائر حديثا على صور ذات مقاييس كبره في قصر الحير العربي بالشام كذلك (١٩٣٦ م) . وفي نيسابور بايران (سنة ١٩٣٩ م) ، لم يبق وجود هذه الصور موضع دهشة أو حيرة بين الباحثين . بل تركز اهتمامهم في تحديد تواريخها ، وأساليبها . وقيمتها التصويرية الفنية . وليس أدل على مدى تقدم معرفتنا بالصور الاسلامية في العصر الحاضر من وجود فهرس تاريخي لمؤلفات الباحثين في هذا الفرع من فروع الفن الاسلامي . فأول قائمة شاملة لمجموعة من المنمنمات ، وهي مجموعة المكتبة الأهلية بباريس ، هي التي ظهرت على شكل كتاب ، من تأليف بلوشيه ، سنة ١٩٠٠ م^(٢٧) . أما أول كتاب في التصوير الاسلامي ومدارسه المعروفة نقلا عن المجموعات الكبرى للصور . فكان ظهوره سنة ١٩١٢ ، وهو من تأليف مارتان^(٢٨) . وشهدت السنة نفسها كذلك أول كتاب يبحث في مخطوط مزين بالرحرفة^(٢٩) . ولو أن المؤلفات الخاصة بمخطوط بذاته لم

Erdman . Orientalische Tierteppiche auf Bildern des XIV (٢٧)
and XV. Jahrhunderts Jahr d. Pruess
Kunstsamml : 1929, pp. 261-98

Inventaire et Description des Miniatures (مكررة في الأصل) بطر
des Manuscrits Orientaux Conservés à la Bibliothèque Nationale, Paris. 1900

Martin : The Miniature Painting and Painters of Persia, India (٢٨)
and Turkey from 8th to 18th Century, London 1912.

Les Miniatures de Behzad dans un (٢٩) والمؤلف المقدم كتاب :
Manuscrit Persan daté 1485. Munich, 1912

تكثر الا بعد سنة ١٩٢٥ (٣٠) م . على أن أول تأليف يبحث في صورة واحدة بذاتها لم يظهر الا سنة ١٩٤٨ م . وهو مؤلف مصري (٣١) من بلاد العربية ، على حين أن جميع المؤلفات المتقدمة جاءت من غرب أوروبا ، ومن مؤلفين أوروبيين

وعلى مر السنين أدى ازدياد اليقظة الى أهمية الفن الاسلامي في مختلف البلاد الاسلامية — الى اعداد القوائم الخاصة والكتالوجات المرتبة ترتيبا علميا . وهي قوائم المباني والمعائر ، وكتالوجات الأدوات الأثرية . وأول هذه ما قام عليه جماعة العلماء الملحقه بجيش نابليون في مصر . مما تقدمت الإشارة اليه فيما سبق . ثم انقضى ما يزيد على خمسين سنة قبل أن يبدأ العمل ثانيا في هذا النوع من البحث ، والرائد الأول بين فئة الاثريين الذين وقفوا جهودهم على البحث في آثار اقليم واحد بأسره هو فيكتور جيران الذي أخرج بحوثا في كثير من المباني والمواقع الأثرية في فلسطين . ومهد بذلك لبحوث دائرة الآثار الفلسطينية (٣٢) . وتحققت مرحلة أخرى في هذا الميدان سنة ١٨٨١ م . حين ألف جولوس فرانز وروجرز لجنة حفظ الآثار العربية في مصر . بأمر الخديو محمد توفيق ، على أن تكون هذه اللجنة تابعة لوزارة الاوقاف . وتعين أعمال هذه اللجنة في محضر أول اجتماع لها . أول فبراير سنة ١٨٨٢ م ومن نصه :

Gluck Die indische Miniaturen des Hamza-Romanes, Wien 1925

(٣٠) راجع

Arnold The Miniatures in Hilali's Poem, The King and the Dervish, Vienna 1926.

Martin Miniatures from the Period of Timur, Vienna, 1926. وانظر كذلك

Martin and Arnold The Nizami MS. Illuminated by Behzad. وكذلك
Mirak and Kazim Ali, British Museum, Or 6810, Vienna 1926.

(٣١) بشرقارس : مسممه دينية تمثل الرسول من اسلوب التصوير العربي العدادي ، مشورات الجمع العلمي المصري ، ح ٥١ ، القاهرة سنة ١٩٤٨ .

Leo Mayer : Saracenic Heraldry, p. 12.

(٣٢) انظر :

١ - اعداد قائمة بالمباني الاسلامية ذوات الاهمية المعمارية الفنية والتاريخية .

٢ - مراقبة ترميم وحفظ هذه المباني ، بتقديم مقترحات لوزير الاوقاف بشأن الاعمال اللازم اجراؤها لذلك ، والاشارة عليه بالحالات المستعجلة .

٣ - فحص مشروعات الترميم لهذه المباني ، والتصديق عليها ، والعناية بتنفيذها في دقة .

٤ - تحمل المسئولية في حفظ الاوراق لجميع هذه المشروعات في ارشيف وزاره الاوقاف والاشاره على وزير الاوقاف بما ينبغي نقله من الآثار المعمارية الى المتحف الاهلى (وقتذاك) لحفظه (٣٣) .

وهكذا لم تقتصر جهود هذه اللجنة على اعداد القوائم للآثار الاسلامية في مصر . بل تعدتها الى القيام على ترميمها وحفظها . ولا تزال اعمان هذه النجبه مستمره حتى العصر الحاضر ، ومطبوعاتها الثمانية والثلاثون المشتتة على مراحل نشاطها (وتاريخ آخرها ١٩٤٤ م) منابع هامة للمعلومات الاثرية .

ثم أخذت بلاد أخرى تحذو حذو مصر . فقامت في ايران مثلا جمعية الآثار الاهلية (أيجمن آثار ملي) . وحديثا قامت ادارات حكومية في عدة دول اسلامية على رصد آثارها ، وتركيز العناية نحو الآثار الهامة المفترقة منها الى الترميم بانجاز هذا الترميم .

ومنذ ثلاثين سنة تقريبا قام جماعة من الباحثين فضلا عن ذلك كله باعداد القوائم المؤرخة (check lists) للآثار الهامة ، وهذه القوائم تداة علمية عظيمة الفائدة للمعماري والمؤرخ معا . ومنها (مؤرخه الآثار الاسلامية في مصر حتى سنة ١٥١٧ م . تأليف كرزويل (١٩١٩ م) . وكشاف المباني الاثرية في حلب . وعددها مئة وواحد وعشرون مسمى

(٣٣) لجنة حفظ الآثار الاسلامية : محاضر الجلسات . القاهرة سنة ١٨٨٤ .

اسلاميا (١٩٣١) (٣٤) ، وقائمة المباني الأثرية في اصفهان ، تأليف جودارد (١٩٣٧ م) .

غير أن تأليف القوائم والكتالوجات لمختلف المجموعات الأثرية جاء أكثر صعوبة وتعقيدا من تأليف القوائم والكتالوجات للمباني والعمائر ، بسبب تنوع مواد المجموعات وبعثرتها في قارات الأرض . ولذا غدا ترتيبها ومضاهاتها بالمواد المشابهة من الصعوبة بمكان . وعلى الرغم من ذلك استطاع زرته (مشاركة مع متفوخ) أن يخرج كتالوج مجموعته من الأدوات المعدنية سنة ١٩٠٦ م . . وهو كتالوج لا يزال مرجعا هاما في موضوعه . على أن الادارة الحكومية الوحيدة التي استطاعت أن تخرج سلسلة كبيرة من الكتالوجات هي ادارة متحف الفن الاسلامي بالقاهرة ، اذ طبعت الآن ستة عشر مجلدا تتحللها رسوم مفصلة وحواشي تفسيرية دقيقة ضافية . وذلك بفضل ارشاد جاسون فيت ومشاركته الناشطة في اخراج هذه السلسلة (٣٥) وهذه المجلدات أضافت الى معلوماتنا اضافات طيبة في الفنون الصغرى ، ولا سيما بامدادنا بالحقائق التاريخية والنقشية المتعلقة بكل مادة من مواد هذه الفنون .

بقى علينا أن نذكر هنا أن كشف الأثرين في بلاد الشرق الأدنى سبقتها طلائع كشفية يرجع الفضل فيها الى مشاهير الرحالين منذ العصور

(٣٤) Sauvaget Inventaire des Monuments Musulmans de la Ville d'Alep. Etudes Islamiques, 1931, pp. 59-114.

(٣٥) مؤلفات جاستون فيت في هذه المطبوعات هي

Lampes et Bouteilles en Verre Émaillé, 1929.

Les objets en Cuivre, 1932.

Stèle funéraire vols II IV 1395, and Vols V-X 1937 1942.

اما الجداول الأولى والثالث فمن تأليف حسن الهواري وحسين راشد سنة ١٩٣٢ ، سنة ١٩٣٨ . وهناك مجلدات أخرى من تأليف

David Weill Les Bois à Epigraphes jusqu'à l'époque Mamlouke, 1931.

Les Bois à Epigraphes depuis l'Epoque Mamlouke, 1936.

Panty Les Bois sculptés jusqu'à l'Epoque Ayyoubide 1931.

Olmer Filtres des Gargoulettes. 1932.

وله كذلك
وكذا
وكذا

لوسطى حتى القرن الثامن عشر الميلادي . وهم ماركوبولو ،
ومشاردان . وتأثريه . وتقنوه . ودبروان ، وپورك وغيرهم . لكن
الملحوظات التي دونها أولئك الرحالون غدت ضئيلة تافهة بالقياس إلى
ملحوظات الكشافين والأثريين أمثال ديولافوا . وموزيل ، وياوسن ،
وساقتياك . وبرونو ، وفون دورماسزوفكي ، وجرتروود بل ، وزر
وهرتفند . وريشثال . وبرغم قلة المظهر في كثير من النقوش والأدواب
التي سجلها وشرحها أولئك الأثريون ، فهي في عرث ذوات قمتها
تاريخية عظيمة . وهذا القول ينطبق كذلك على المساني التي كشفوها .
برغم ما ران على أغلبها من الخراب حين بدأ كشفها .

وفي عشرات السنين الماضية من القرن العشرين أصيبت إلى قديم
الوسائل الكاشفة للآثار وسيلة جديدة . وهي الطائرة التي سهلت العثور
على المواضع الأثرية وفحص تكوينها فحص الطائر ، فضلا عن تسهيلها
دراسة الأشكال المختلفة في بناء المدن . ورؤية التطور المعقد في
نمو الحواضر ^(٣٦) (شكل ٢١ و ٢٣) .

ولكى يستطيع الباحث أن يرى أعماق الحياة والحضارة الإسلامية
في عز أيامها صار من المنعين المعروض عليه أن يحفر ، وأن يكشف بعض
المراكز الأثرية الشهيرة بالحفر العلمي . ولعل أول الأعمال الحفرية في
موضع إسلامي بحث هو الذي بدأه پلانتيه سنة ١٨٩٨ م . وعاد إليه
جرال بيليه سنة ١٩٠٨ م . في قلعة بني حماد ببلاد الحائر ، وهي
عاصمة الحماديين في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الميلادي . ثم بدأ
فلاسكوير بوسكو في الحفر حوالي سنة ١٩١٠ م ، في خرائب عاصمة
إسلامية أخرى ، وهي مدينة الزهراء التي سكنها الخلفاء من الأمويين
قرب عاصمتهم قرطبة بآندلس . أما أعظم أعمال الحفر أهمية فهي التي

(٣٦) انظر Schmidt Flights over Ancient Cities of Iran, (Chicago 1940)

وفي هذا الكتاب معلومات ذات أهمية عظيمة للباحث في تاريخ الآثار
الإسلامية .

قام عليها زره وهرتزلد من ١٩١١ الى ١٩١٣ م . في سامرا عاصمة
 العباسيين بعد بغداد ، لا لأن هذه الأعمال أتتحت معلومات فنية هامة
 فحسب ، بل لأنها عدت بفضل دقة التواريخ في منتجاتها دليلا لدرسه
 مراكز أثرية أخرى . ومرشدا لتحديد أرملة أدوات لم يكن من السهل
 تحديدها . وثمة حفائر أخرى أجريت في مدينة القسطنطينية ، وهي العاصمة
 الاسلامية الأولى في مصر العصور الوسطى ، وفي مدينة بركة سراي على
 نهر ائل (ثولجا) ، وهي عاصمة دولة القبيلة الذهبية الممولى . وفي مواضع
 اسلامية قديمة أخرى . مثل نيسابور . واصطخر . والري . وترمد ،
 وبالييس ، وقاهره ، وغيرها ، فضلا عن مواضع العصور الخليفية القديمة
 مثل خربة المنية ، وقصر الحير الغربي . وحرية المعجر . وغيرها .
 وبالإضافة الى ذلك كله أجريت حفائر في مواضع أخرى للكشف عن
 حضارات من التاريخ القديم تعلوها أكوام من الحضارة الاسلامية . اذ
 وجدت هذه الأكوام بعض الأحيان أثرا يفهمها ويعنى بتسجيل
 محتوياتها ، وهذا هو ما حدث في سوسة ، وملطية . وبعلبك ، وحماة ،
 وأنطاكية ، وعلى شار هوك ، وغيرها . ولكن نظرا لتسبب انتشار
 الحضارة الاسلامية وسعة توزيعها الجغرافي ، فالواقع أن عدد المواضع
 التي تمت أعمال الحفر فيها حتى العصر الحاضر لا يزال قليلا ، وأقل
 من ذلك مع الأسف مستوى المطبوعات الناتجة عن هذه الحفائر . لأن
 هذه المطبوعات على ضرورتها لمواصله البحث في كشفها لا تكاد تذكر
 شيئا عن مفردات هذه الكشوف ، ماعدا اسمائها ، ولأنها لا تظهر
 الا أجزاء في فيئات متقطعة . والمأمول أن تتطور هذه الحال الى ما هو أحسن
 منها ، ولو أن وفاة أصحاب هذه الحفائر يجعل هذا التطور أحيانا من
 المستحيلات الأسيفة . وما يدعو الى ضرورة الاتقان والدقة في الحفائر
 العلمية - زيادة عن ذي قبل - أن كثيرا من المدن الرئيسية مثل بغداد
 لا تبث شيئا من الأمل في حفائر مفيدة ، وأن مراكز أخرى هامة ، مثل
 الرقة أو الري ، عشت بها أيدي أرباب الحفائر التجارية ، وهم الذين
 أتلفوا معظم المادة التاريخية في هذه المراكز .

واذ تتح عن ازدياد الاهتمام بالفن الاسلامي وفرة من الأدوات
 اسلامية في دور المتاحف والمكتبات العامة . لم يكن بد من قيام فئة من
 الاحصائيين المقيمين . وهم المعروفون في هذه الدور باسم الأمناء
 لصين . من أمثال كونل . وهوبسون ، وولكنسون ، وديماند
 وجرای . وغيرهم . ممن أخذوا في ترتيب الأدوات الموكول اليهم حفظها
 وأمانتها . فعكفوا على دراستها وتحليلها واصدار المطبوعات الوصفية
 لها . ومن المعروف أن المجموعات العامة في متاحف أوروبا تكونت مما
 حصلت عليه هذه المتاحف من البلاد الاسلامية في الشرق الأدنى
 سى أضحت دولا مسقلة . أو من الكنوز التي بعثتها الأيام في الكنائس
 وسون الأمراء . أو من مشنريات السائحين والمقيمين بالشرق من الأوروبيين ،
 أو من مجلونات الأفراد الخبيرين أو المولعين بجمع الآثار . منذ أواخر
 القرن التاسع عشر الميلادي . أما تأسيس أقسام خاصة بالفن الاسلامي
 في متاحف الامريكية فهو مما يلفت النظر ، اذ بدأت أول علامات
 لاهتمام بالصور الشرقية عامه بظهور مجموعات منها في سون عظماء
 لاغنياء من المدين الامريكيين الذين اجتذبهم البذخ المتساهل في
 هذا النوع من الصور . وهو بذخ جعل هذه المجموعات صالحة لزيئة
 بيوتهم الشامخة . ثم نزل كثير من أولئك الأغنياء عن مجموعاتهم هذه
 للمتاحف العامة . ومن هؤلاء هنري والترز ، وشارل فريير (٣٧) ، على حين
 فضل آخرون أمثال حنا بيرينت مورجان ، وجورج هوايت مايرز ، أن
 يجعلوا لمجموعاتهم متاحف خاصة بها مفتوحة للجمهور (٣٨) .

وفي أوروبا مجموعات كبيرة من أدوات الفنون الاسلامية توجد عادة
 في المتاحف العامة بالمواضع الأوروبية فحسب ، على حين أن متاحف مدن
 لولايات المتحدة في طول البلاد وعرضها تحتوى على كميات من

(٣٧) هذه المجموعات هي الآن متحف والترز للفنسون في بليمور ،
 ومتحف فريير للفنون بواشنطن ، بالولايات المتحدة .

(٣٨) هذه المجموعات هي الآن مكتبة بيرمنت مورجان في نيويورك ،
 ومتحف المنسوجات في واشنطن .

الأدوات الفنية الإسلامية . وليس يرجع هذا الى وفرة الثروة الاهلية وسعة الاهتمام العام ، بل يرجع كذلك الى استطاعة عديد المتاحف بمختلف المدن ابان تأسيسها الحديث أن تشتري نماذج طيبة من الفنون الشرقية الواصلة اليها من آسيا . أو غيرها من المارات ، للبيع بثمن معتدلة ، بالقياس الى أثمان الصور والتماثيل الأوربية التي أخذت طريقها سابقا على أية حال الى المتاحف الأمريكية الكبرى . والحديث في المجموعات الاثرية الإسلامية لا يكمل الا بذكر المتاحف والمكتبات في عواصم الشرق الأدنى . وهي اسطنبول ، والقاهرة . وست المقدس . ودمشق ، وطهران ، وبعضها متاحف قديمة في قصور بالية عتيقة ، وبعضها متاحف حديثة في بنايات حديثة بنيت خصيصا لأغراض متحفية . وينبغي أن يضاف الى هذا العدد من المتاحف بعواصم الشرق الأدنى بضعة من المتاحف الاقليمية كذلك . وهي أحسن ضمانا لحفظ الكنوز الأثرية المحلية . وأحفظ لها من الضياع والنسيان في زوايا حوانيت الحريم في الآثار .

ثم انه نظرا لبعثرة مواد الفنون الإسلامية بين متاحف تفضها مسافات جغرافية بعيدة بعضها عن بعض ، لا يوجد في الواقع متحف واحد فيه من الغناء والوفرة في الآثار الفنية ما يعطى صورة كاملة للتطور الفني في هذه الآثار . ولهذا السبب فكر المعنيون بالفنون والآثار عامة ، منذ أواخر القرن التاسع عشر الميلادي ، في اقامة معارض دورية أو شبه دورية للفن الإسلامي في بعض المدن العالمية ، وأول هذه معرض الفنون الايرانية الإسلامية في نادي برلنجتون للفنون الجميلة في لندن ، سنة ١٨٨٥ م . وظلت هذه الفكرة موضع التنفيذ منذ هذه السنة في معظم البلاد الأوروبية والولايات المتحدة الأمريكية والشرق الأدنى كذلك ، حيث أقيم أول معرض من هذا النوع بمدينة الاسكندرية سنة ١٩٢٦ م .

على أن أول معرض ذي معنى هام هو الذي أقيم في مدينة ميونخ

بألمانيا سنة ١٩١٠ م . إذ أعقبه تأليف حافل أسهم فيه جميع الاختصاصيين
 البارزين وقد ذاك بمقالات متنوعة . ومن ذلك وحده يتضح مدى
 العناية الكبيرة التي أضفاها هذا المعرض على دراسات الفنون الإسلامية .
 ويصحب هذا القول على معرض الفن الإيراني في لندن . سنة ١٩٣١ م .
 إذ أعقبته كذلك سلسلة كاملة من المطبوعات الهامة ، المتصلة مباشرة
 أو غير مباشرة بهذا الفن . وفي أواخر القرن التاسع عشر الميلادي
 كذلك أقام بعض أصحاب المجموعات وبعض أرباب الأطلاع في الفنون
 معارض خاصة بمادة واحدة من المواد الفنية ، ومن هذه المعرض العظيم
 الذي أقيم في متحف الصناعات (Handelsmuseum) بمدينة فيينا
 سنة ١٨٩١ م . لسجاد الشرق الأدنى . وترقبت على هذا المعرض
 بداية البحوث في هذا الميدان . على حين أدى أول معرض للمنمنمات
 الإيرانية والهنديّة والتركيّة . في متحف الفنون الرخرقة في باريس سنة ١٩١٢ م
 إلى أول بادرة من بؤادر الاهتمام العام بهذا الميدان في دوائر أرباب
 المجموعات الفنية . وحديث أدى الجنوح والامعان في التخصص إلى
 قمة معارض في فرع واحد من مادة من المواد الفنية ، مثل معرض
 لسجاد المعروف باسم السجاد البولندي في متحف مروبوليتان
 (١٩٣٠ م) ومعرض السجاجيد الصينية ذوات الرسوم الأعوانية
 (dragon rups) . متحف المنسوجات في واشنطن . عاصمة
 الولايات المتحدة الأمريكية ، (١٩٤٨ م) .

ومنذ أوائل الاهتمام بالفن الإسلامي درج الأثريون على إخراج
 نتائج البحوث الأثرية التي لم تصل أحجامها إلى مرتبة الطبع في كتاب
 مستقل ، في مقالات تشر في المجالات الخاصة بالدراسات الشرقية . ثم أنه
 نظرا لاردياد المجموعات الأثرية في المتاحف العامة تعين طبع البحوث
 الوصفية لها ، مثل بحوث زراء وكونل في التقارير السنوية أو النشرات
 الدورية التي تصدرها هذه المتاحف . ثم أخذ مطبوعات المعاهد
 لأثرية الأوربية في الشرق الأدنى تحتوي كذلك على عدد مطرد الزيادة

من المقالات الخاصة بالعصر الاسلامي ، على حين أخذت النشرات
الرسمه الخاصه بدوائر الآثار التابعة لمختلف الحكومات بالشرق الأدنى
تعلن عن اكتشافات حديده أو بحوث أثرية حديثة في بلادها ، ومثل
ذلك مجله آثار ايران التي يشرف على نشرها جودارد . ومجله سومر
العراقية (٣٩) . وشجعت مجلة الفن الاسلامي (Ars Islamica) مواصلة
البحوث الأثرية تشجيع كبيراً ، وهي أول مجله مخصصه لدراسه
الفنون والآثار الاسلاميه . ومؤسسها محمد أغا أوغلو ، سنة ١٩٣٤ م .
وتولى اخراجها جامعه متشخان . وحديثاً بدأت الدائرة الشرقيه بمتحف
هرمباج في لسنجراد نوعاً جديداً من المطبوعات المتنازه بخطوها من
الخطوط الذي تصف به النشرات المحففيه الأوربيه ، والأمريكيه .
وأصدرت هذه الدائرة من سب١ ١٩٣٩ و١٩٤٧ أربعة مجلدات عنواها
بحوث الدائرة الشرقيه . وهي بحث في فنون كل من الشرق الأدنى
وآسيا عامه في العصور القديمه . وفي هذه المجلدات تشغل الفنون
والصناعات الفنيه في العصر الاسلامي والعصور السابقه له مباشره
صفحات كثيره . ونظراً لاختواء محف هرمباج وعيره من المساحف
الاقليميه في روسيا السوفيتيه على كميات كبيره من مواد أثرية هي على
أهميتها غير معروفه للباحثين ، فالمرجوا أن تظل هذه السلسلة متصله
الظهور . وأخيراً ينبغي أن نذكر هنا مجلتي على حاب من الأهميه
لدراسة الفن الأساني المغربي . وهما مجله الأندلس (Al-Andalus)
التي تشرف على اخراجها معاهد الدراسات الاسلاميه في مدريد وقرطاجه ،
ومجله المذكرات الأسبانيه (Notes Hispaniques) التي أخرجتها الجمعه
الأسبانيه في أمريكا من ١٩٤١ إلى ١٩٤٥ م . ولكنها لسوء الحظ
باتت محتجبه عن الظهور .

ومما ترقب على كثرة المطبوعات الأثرية الحديثه وتنوعها ، فضلاً

٣٩١. تتولى دائره حفظ الآثار في ايران طبع هذه المجله المذكوره هـ ،
وشرف الإدارة العامة للآثار القديمه في العراق على إصدار محف سومر
العراقية .

عن بعضه المؤلفين المعاصرين بين أقطار الأرض من الولايات المتحدة الى الهند . أن صار اخراج المؤلفات الراصدة لهذه المطبوعات (Bibliographies) ضرورة علمية واضحة . وبعد جهود متقطعة في هذا لسيل خال الأثريون أن المشكله انحلت حين أخرج ليومير الدليل السنوي لمراجع الفنون والآثار الاسلاميه منذ سنة ١٩٣٥ م . غير أن عام الحرب العالميه الثانيه أمت هذا العمل التعاوني . بعد أن صهر منه ثلاثه مجلدات . والأمل غير قليل أن تعود الحياة الى هذا العمل في المستقبل القريب . وثمة أمتيه أخرى جدره بالتحقيق . وهي تأليف كتاب شامل للمطبوعات والبحوث المفردة التي سبق اخراجها في الفنون والآثار . لأن أحثي ما تخشاه دوائر الأثريين أن تطفئ سرعة النسيان على كثير من البحوث والكشوف . ولا سيما ما نفع منها من روسيا واسبانيا وبلاد الهند . وهناك حاجة ماسة الى مرجع يحصى الجذاذاب (الفشاب) الدالة على الأصول . والصور الشمسية . والنقوش المنسوخة . والرسوم الحظطيه . التي خلفها المؤلفون الموفون . ومن هذه على سبيل المثال لا الحصر جذاذات فان برشم في مدينه جنيف . وجذاذاب ريمشتال في بويورك . وجذاذات هرتزفلد في واشنطن . وجذاذاب لو امتد هذا المشروع الى جذاذاب الأحياء من المؤلفين . وسوف يظل كثير من البحث معسدا على الاكتشافات التي تأتي بالصدفه . منهلكا للاوقات الطويله في غير حساب . حتى يتم هذا المشروع بالذات . بل ربما يؤدي عدم اتمامه الى تكرار البحث في موضوع سبق بحثه بحثا نهائيا حسنا .

وهنا ينبغي أن نخصص بضع عبارات لمسألة تدريس الآثار والفنون الاسلاميه ، وذلك لأنه مع ما هو معروف من أن معظم الباحثين الذين تموقوا في ميدان الفنون والآثار الاسلاميه لم يتلمدوا على أحد ، بل علموا أنفسهم بأنفسهم (autodidacts) . فالغايه التي يشدها الباحثون دائما هي تكوين جيل جديد من الباحثين الذين يتلقون تمرينا

بذكر في المؤهلات الخاصة والطرق الجديدة في البحوث الأثرية وربما كانت جامعة قبا أول جامعة نشأت كرسيا أستاذيا خاصا بدراسة « العلوم التاريخية الشرقية المساعدة » ، نظرا لاختصاصات أول أستاذ لهذا الكرسي ، وهو قون كراباتشك . ومنذئذ قام أثريون معروفون في عديد الكراسي الأستاذية بمختلف الجامعات في أنحاء العالم . ومنهم فان برشم . وجومر مورينو . ومارسيه . وكررول . وريشتال . وكوفل . وأغا أوغلو . وماير . وسوفاجيه . وركي حسن . وغيرهم واعتبر آخرون ، أمثال هرتزفلد وسبر توماس آرنولد ، أن الفنون والآثار الإسلامية موضوعا واحدا من موضوعات دراساتهم . ومن الملحوظ حتى العصر الحاضر أن علوم الفنون والآثار الإسلامية - فضلا عن المؤهلات الواسعة التي تطلبها - دلت على أنها ليست مما يسهل اقتناصه واستيعابه في سرعة . بدليل أن من جمهرة الدارسين الذين تأهلوا أحسن تأهل في هذه العلوم والمؤهلات لم يصل منهم إلى مستوى أساتذتهم سوى القليل .

وهذه الحقيقة تجعلنا وجها لوجه أمام المسائل التي ينبغي مناقشتها . إذا أردنا النظر إلى المستقبل ، وقصدنا إلى حساب حاجتنا المستقلة . ومبلغ ما نأمل من التوفيق في تحقيقها . ويوضح المقارىء ما تقدم هنا أن دراسة الفنون والآثار الإسلامية تستعد من أصلين اثنين . وهما المعرفة العامة بالدراسات الإسلامية . ثم المعرفة بتاريخ الفن . وفي المرحلة الأولى من مراحل التطور في دراسة الفنون والآثار الإسلامية نرى جماعة من النمين ، والنقشيين ، والمؤرخين . تأسسوا أحسن أساس . ولا سيما في اللغات ، والأدب . والتاريخ ؛ ولكم لم يعرفوا أي مران في تمييز الأساليب الفنية بعضها من بعض . ثم جاء من بعد أولئك فئة عارفة تمام المعرفة بتحليل الأسلوب الفني . ولكم أضفوا إلى علمهم كمية دافقة من الحماسة للأدوات والآثار الفنية ، ولعميراتهم الشخصية لها . دون كمية متساوية من المعرفة بالحياة الدينية ، والمراجع الأدبية . والحقائق

التاريخية . وكان مما لا محيص عنه أن يرتكب رجال هذه الفئة الثانية في بحوثهم أخطاء في التفاصيل التاريخية لا يعمرها رجال الفئة الأولى . برغم ما يكون في هذه البحوث من آراء وأفكار أساسية مقبولة . ويطبق هذا النقد في صورة خاصة على مؤلفات شير ريجوفسكى في الفنون الشرقية . بما في ذلك الفنون الإسلامية . لأن هذا المؤلف خلق عددا من الطريقتين المثيرة للدهشة . دون أية رعاية للتحقق الجرافى والتاريخية . وذلك أوائل القرن العشرين . وهى سواب المرحلة السكوبية في ميدان البحوث الفقه والأثرية . ومن ناحية أخرى لم يستطع الأثريون والنقشيون من رجال الفئة الأولى أن يبنوا نتائج بحوثهم دائما على حقائق تاريخية قطعية . بل اضطروا أحيانا إلى الاعتماد على أحاسيسهم وإطاعاتهم الشخصية . وأن يستخدموا التحليلات الأسلوبية استخدام مؤرخى الفن لها . وذلك كلما اضطدموا بأشياء فنية أثرية (artifacts) غير مؤرخة . وفصلا عن ذلك لم تكن طرق المستشرقين في مؤلفاتهم منحوتة من النقد دائما . برغم ما تسهم به هذه المؤلفات من الزامات الحقائق والصحة العلمية . وبصرف ذلك مثلا ، لصور المسوبة إلى بعض المصورين بعد قراءه مرعوم بوضعياتهم عليها دون اللجوء إلى احتمال إضافة هذه التوقيعات إلى تلك الصور المختلفة تمام الاختلاف في أسلوبها عن الصور المقطوع بنسبتها لأصحابها من المصورين ، وهو ما يتبين لمؤرخى الفن في وضوح بعد شيء من الفحص .

وربما قال قائل هنا إن نظرة خالصة إلى هذه الحال كان ينبغي لها أن تؤدي في هذه المرحلة من مراحل التطور في البحوث الفنية والأثرية إلى شيء من السراح بين هاتين الطريقتين ، كما حدث في كثير من التوفيق في ميدان الفنون الغربية الأوروبية . غير أنه برغم ما استعرضنا هنا من المحاولات في هذا السبيل ، سواء بقيام اثنين أو أكثر من الباحثين ، على غرار المؤلفات التى أنجتها مشاركة كل من ررته ومتقووخ ، وزرته وقان برشم ، أو بمرتب شخص تمرينا خاصا . كما يتضح من مؤلفات

هزترفد وكونل وسوقچيه . ولحلاف بين هاتين الطريقتين في التأليف أدى غالبا الى شيء من عدم الاعتبار وقلة الثقة بين الفئتين . وهذا بدوره أدى الى شيء من تضاد الشخصية في أرجاء ميدان البحث في الفنون والآثار الاسلامية ^(١٠) . والواقع أن هاتين الطريقتين لا ينبغي انفصالهما ، لأن كلا منهما تكمل الأخرى . ونحن ندرس الحضارة الاسلامية . لا لأجل أنها حضارة معية قامت بل لأجل أنها حضارة ذات منتجات وأفضال خاصة على البشرية . ولهذا يجب علينا أن ندرس هذه المنتجات كلها ، ما هو منها عام شائع ، وما هو خاص بدار . في أدوار الحضارة الاسلامية . لأن لدينا كميات هائلة من المواد ذوات الأهمية والمعنى الأثري ، وهي مواد تكشف لنا عن سالف العصور فحسب ، دون أن تشبع شيئا من حاسة الجمال فينا ، كما أن لدينا مواد كثيرة تكشف عن محاولات واضحة للخروج على الساذج الشائع . ونرى عن جهود عامده ومقدرة على ابتكار قطعه فنه . ومواد هذا النوع الثاني هي وثائق تاريخية مثل غيرها من المواد . ولكنها بأهل عناية خاصة . وطلب دراسته خاصة كذلك . اذا أردنا أن نصل الى معاسها وصولا تاما . وهذا فضلا عن أنها من مسكرات الأقداد من سائده الفن . ومن ذلك يصح أن دراسته المواد الأثرية لحضاره من الحضارات يطلب أولا عدم التقيد . لا بطرق الباحث الأثرى فحسب ، ولا بطرق مؤرخ الفن فحسب . ومن المعروف أن الفصل بين الطريقتين ليس في الامكان في متاحف الآثار ، والغاية السليمة هي أن تعمل على الوصول الى أحسن الطرق الصالحة لأنواع التحليل والتفسير ، وأن نسمو عن المستوى الذي يفرق في الاعتماد على الاحساس الذاتي . لا الموضوعي .

واذ نستطيع بعد ذلك أن نطرح اني الامام نرى ما سوف يخصص عنه الأيام من التطورات المستقلة في ميدان البحوث في الفنون والآثار الاسلامية . فعمل من الأكس والأحوط أن نصف هذه التطورات في

Sauvaget : Introduction à l'Histoire de l'Orient Musulman, (١٠)
Paris, 1943, pp. 51-53.

عبارات عامة حريا على المستوى العملي الذي وصفنا فيه تاريخ تقدم هذه البحوث في الصفحات السابقة . ويبدو أن هذا النحو من الوصف هو الأليق . ولا سيما بعد أن أخرج كونل تألفا حديثا عين فيه ما يجب على الأثريين أن يقوموا به في المستقبل . وبخاصة المواضع الأثرية المخلفة التي لا معدى للحفر فيها أن ينسج أطيب النتائج^(١١) . وفي محاضرة بجامعة برنستون بأمريكا أدلى كرزويل باقتراحات مماثلة لما أدلى به كونل في كتابه^(١٢) .

الواقع أن استمرار العمل في ميدان الفنون والآثار الإسلامية عن طريق التنقيب . والاستطلاع والفحص . والدراسة المعمقة في الأشياء الأثرية . سوف يظل الواجب الأول أمامنا . وليس في استطاعه أحد أن يعرف ما عسى تسوينا به مخبوءات الآثار والمخلفات الأثرية . أو مدى ما نعرفه هذه المخبوءات والمخلفات بعد كشفها من معلوماتنا في الحضارة الإسلامية . ونسوق لذلك أمثلة واضحة من الماضي القريب ، وهي حفائر القصور الأموية بالشام وفلسطين . فهي التي أمدتنا لا بمعلومات جديدة في أصول المعمار والزخرفة الجصية (Stucco decoration) فحسب ، بل ساعدتنا أكبر المساعدة على دحض خرافة انعدام النحت في تصوير الكائنات الحية في الفن الإسلامي . وعلى هذا كلما ارداد المواد الأثرية لدينا ارداد استحسانا لِمَاضِي دَقِّهِ وسلامته علميه . فهي شبه جزيرة العرب وأفغانستان مساحات لم تمسها أيدي الأثريين حتى العصر الحاضر . وفي استانول وحدها ما يربو على مئة وأربع وعشرين ألفا من المخطوطات معظمها لم يدرسه أحد دراسه وافيه بعد ، وبعضها يحتمل أن يحتوي على منسكات ذات أهمية بالغه . وفي استانول كذلك كنوز عظيمه من

(١١) Kuhnel Ergebnisse und Aufgabender Islamischen Archäologie in der Orient in Deutscher Forschung, Leipzig, 1944, pp. 255-259.

وكذلك Beiträge zur Arabistik, Semitistik und Islamwissenschaft Leipzig, 1944, pp. 254-263.

(١٢) نشر مجلة (Art Bulletin) فرنسا اقتراحات كرزويل في محاضراته.

المسوحات ، والأسلحة ، ومختلف الأدوات العسكرية ، من المفابر ،
والررود ، والتروس ، وهكذا (٤٣) ، بل ان المجموعات المخصوصة في
المتاحف العربية من مختلف الأدوات لا تزال تنطوي على كثير من الجديد
المثير للبحث والاستقصاء ، وفي بلاد الأطراف الاسلامية ، وهي تركستان
الروسية ، والقوقاز ، وباكستان ، والهند الاسلامية القديمة ، واسبانيا ،
ينبغي أن يكون العمل في هذه البلاد مزدوجا ، لأنه يتحتم أولا أن
يقوم على الكشف والتنقيب المبدئي كشافون وهانوت من أهلها ، ثم
أن يقوم آخرون على نشر نتائج هذا الكشف والتنقيب ، وبدون ذلك
يخشى أن يظل العمل المبدئي في هذه الأقاليم مجهولا لدى الأثريين
الغربيين ، مثلما حدث في كشف حفائر سراي بركة (شكل ٢٤-٢٥) ،
وخوارزم ، وغيرهما من البلاد .

واذ وضح للقارئ أن من المقصد دائما أن تكون نظرتنا الى العالم
الاسلامي شاملة لأوسع المعاني . بسبب سعة التاريخ والجغرافيه .
فلا ريب أن الفنون والآثار الاسلامية لا تستطيع كذلك الا أن تغطي
هذا المستوى من سعة الطر والشمول . وعلى هذا ليس يكفي لعلم
الفنون الاسلاميه على وجه كامل أن ندرس أشكالها فحسب ، لأن هذه
الأشكال لا تدل وحدها على جميع المعانيح اللازمة للوصول الى أصولها
وأوضاعها التاريخيه ، بل ينبغي علينا أن نعمل في بحث فنون الحصارا
السابقة والمعاصره لظهور الاسلام . وهي فنون أثرت في الفنون
الاسلاميه ثم انتشرت مسوعه . ومن هذه فنون مصر البيزنطيه لقسطنطينية ، ويران
الساسانية ، وفنون الشام في العصر الكلاسيكي الأخير . وفنون سهوب
وسط آسيا ، فضلا عن فنون الامبراطوريه البيزنطيه نفسها ، وأرمينية ،
والقوقاز ، والصين الواقع أن كشفا أثريا جديدا واحدا في أي من هذه

(٤٣) أنظر Tahsin O. P. : Türk Kuma ve Kadifeleri No. 1

استنابول ، سنة ١٩٤٦

وكذلك Die Waffenschatze in Topkapu Sarayı Müzesi zu
Istanbul. Ein Vorläufiger Bericht, Ars Islamica,
I. 1934

المبادئ يحصل أن يحدث عكسا هامة في بعض القواعد المصطلح عليها في الفنون الإسلامية . والحاصل أن الدراسات المستقبلية في الفنون والآثار الإسلامية لا تستطيع أن تبقى في معزل عن دراسات الفنون والآثار في غيرها من الميادين . وأن الفنون والآثار الإسلامية يلزمها أن تفرق كشوفها بكشوف الميادين التاريخية والجغرافية القريبة ، وربما البعيدة كذلك .

ثم إننا إذا أردنا أن تصور التيارات المستقبلية في البحث في الآثار والفنون الإسلامية ، فهي استطاعت أن تقول إن هذه التيارات سوف تدرك دراكها مطردا أن ليس يكفي أن نحلل أسلوب مبنى معماري ، أو صورة ، أو أداة من الأدوات الأثرية . وإن ليس يكفي أن نعرف خاصيات هذا وذاك ونموشه . أو بعبارة أخرى إن ليس يكفي أن ننظر إلى كل من هذه الأشياء الأثرية كأنما ننظر إلى شيء مستقل بذاته ، دون أي عيار للأحوال والأفكار التي أسهمت في ابتكاره وتكوينه وإنتاجه . فالديهي أن هذه العمارات والأدوات تم بنؤها أو صنعها لغرض خاص ، ولادخال السرور إلى قلوب أصحابها . وأنها ابتكرت في أحوال وأجواء اجتماعية خاصة ، لحمل في أجرائها أفكارا خاصة كذلك . ولهذا يتعين علينا أن ندرس العرض الذي من أحله بشئ المبني ، والمنفعة التي من أجلها صنع الشئ الأثري . وأن ندرس أحوال الحياة الاجتماعية والصناعية في عصر هذا وذاك . وأن نعرف المصدر الذي جاءت منه المادة الأثرية أو فكرتها . وكذا جمع المعاني التي ساعدت على ابتكار هذا المبنى وذاك الشئ الأثري ، سواء أكاف هذه دينية ، أو سحرية ، أو تجسيمية ، أو شعبية . ومن الواضح أنه مهما اتسمت به عمارة ، أو صورة ، أو أداة أثرية ، من سمات عامة أو زخارف موققة تسر العين ، فواجب الباحث أن ينظر كذلك إلى ما تنطوي عليه هذه الأشياء الأثرية من المعاني الأوسع والمدلولات الحضارية العامة . ما دامت غاية معرفة المعنى الحقيقي والمعزى الكامل في أداة من أدوات آثار الماضي .

ولس في هذه المخطوطات التوجيهية التي تتبناها لدراسات المسقبله
 في بحوث الأثرين شيء جديد فسرجه هنا لأول مرة . اذ الواقع أن عدد
 غير قليل من البحوث الحديثه يدل على ظهور هذا التيار . ونسوق من
 بضعة الأمثلة لبرهان على ذلك دراسه تكوين مدينه اسلاميه كبيره
 دراسه تستمد من الآثار والمتون التاريخيه معا (١١) ، أو بحث أدوات
 معدنيه معينه بحثا لا يقتصر على أشكال هذه الأدوات ودرخارفها وحسب .
 بل يتعدى الى بحث وضعيتها في المجتمع الاسلامي (١٢) . أو دراسه
 أصل رمز من الرموز الفلكيه ومدى تطور هذا الرمز في الاسلام (١٣) .
 فهذه الأمثلة كلها تستمد من روح واحده ، ولو أنها تختلف في طريقه
 استمدادها من هذه الروح في سبل حل مسائل محصه . ولا يحالجا
 شك في أن الغرب بين ميدان تاريخ الفنون الاسلاميه وميدان آثار
 الاسلاميه سوف يسبح نمادح كثيره من هذه البحوث السكاميه . وكما ساء
 فإن برشم سوف تصف هذه البحوث اصاب عظمه الى مسوى
 معرفتنا بالحضاره الاسلاميه التي تبلغ القس فيها مسهى آداب الجمال

ولعل من الواضح بعد ذلك أن هذه الروح الحديده سوف تؤدي
 الى ازدياد مدى معرفتنا واحساسنا بجمال العمائر والأدوات الأثرية
 الاسلاميه اريدها بالعا . وأنها سوف تفتح فضلا عن ذلك مادين حديده
 لبحوث لم تتاولها الايدي الأفيلاني العصر الحاضر ومن هذه
 ميدان علم التصوير (Iconology) . وهو علم بحث في فن الملامه
 والجمع بين الخيال والحقيقه في الصور وبين الأفكار المعاصره الماديه
 في الأدب . وثمة ميدان آخر هو علم الاصطلاحات المصه (terminology)
 ولم نرمه حتى الآن سوى بحوث محدثه مفرطه . ونحن فيه بحاجة الى
 بحوث شامله لا تزال في عالم العيب . ويصح من طبيعه العمل في ميدان
 الاصطلاحات الفنيه أن المرات والدراسه في فقه اللغات ليس بكفى . بل

Sauvaget : Alep, Essai sur le Développement d'une Grande (١١)
 Ville Syrienne, des Origines au Milieu du XIXe siècle. Paris, 1941.
 Aga-Aglu About a Type of Islamic Incense Burner, (Art (١٢)
 Bulletin, XXVII, 1945, pp. 28-45)

يجب استكمال هذا وذاك بمعرفة المواد الأثرية والطرائف الفنية معرفة
تامة . وأخيراً سوف تنشأ بحوث في الجمال المثالي الذي يسطع في
الأدب . وتنعكس أشعته في الفنون الرفيعة . ولعل مما يساعد على الإهداء
إلى معدن جديدة أن نقرن بين مستويات الجمال في الشرق ومثيلاتها في
الغرب . وهي مستويات يعطب أحلافها بعضها عن بعض . نظراً لاختلاف
العقلية والمسافات الزمنية والجغرافية .

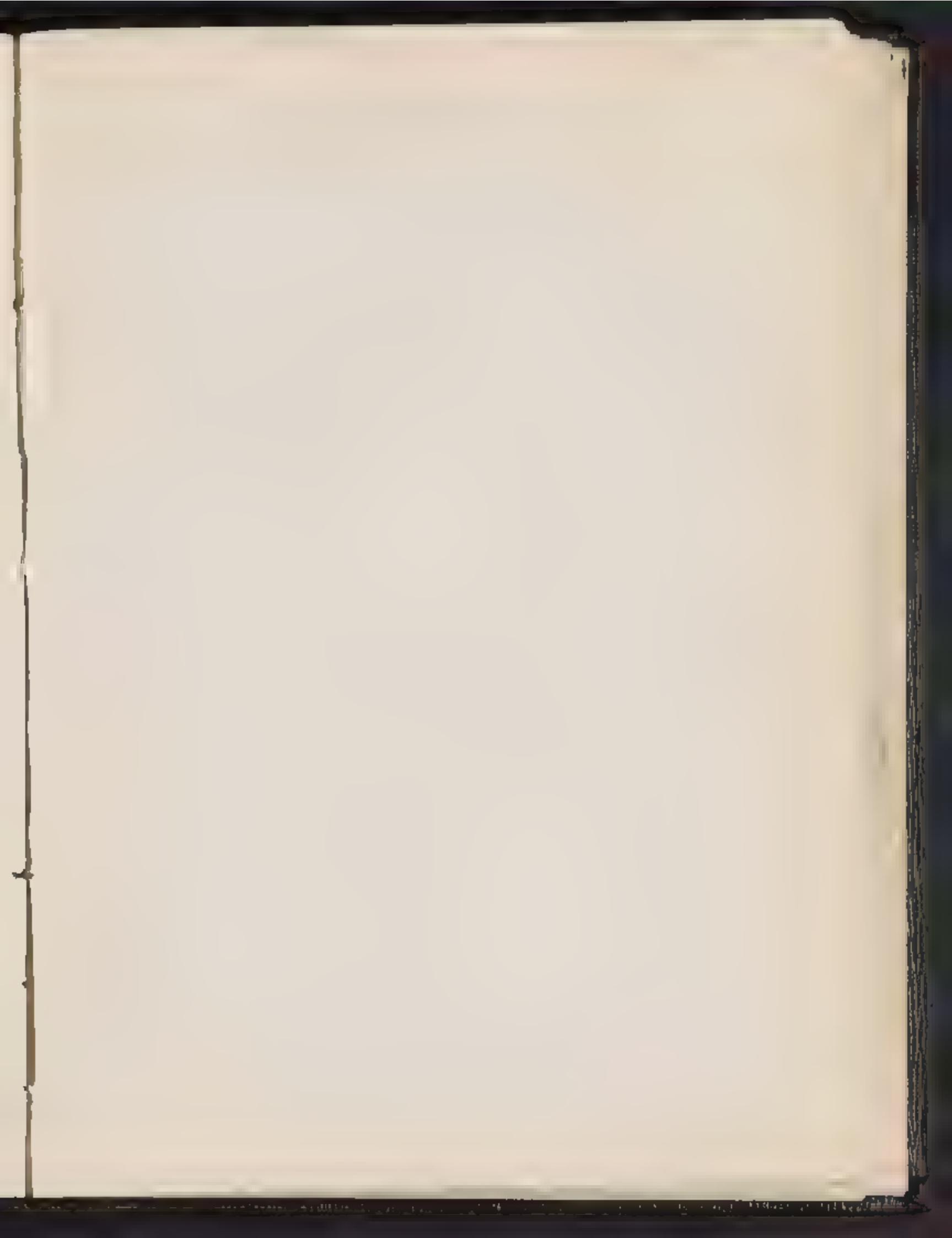
يبقى بعد ذلك كله سؤال للاستفهام . وهو هل دراسه الآثار
والفنون الاسلاميه جزء كمالى من الجهود السادرة فى سبيل المعرفة .
أو مصدر من مظاهر حب استطلاع الماضى . أم هناك معان أو أهيات
أخرى لهذه الدراسه ؟ الجواب على ذلك أن العلماء والفلاسفه المسلمين
آثروا فى العقل الأوربى فى العصور الوسطى تأثيراً بعيداً عن طريق
مؤلفات الرازى ، وابن سينا ، وابن رشد ، وكثيرين غيرهم ، وأن
الأدب والأفكار الاسلاميه غدت موضع إعجاب كبير فى القرنين الثامن
عشر والتاسع عشر الميلادى . بدليل الترجمات الكثيرة لقصة ألف ليلة
وليلة . كلها أو بعضها . وأولها ترجمه المستشرق الفرنسى جالاند التى
مهرت بين ١٧٠٤ و ١٧١٧ م . وهذا فضلاً عن ديوان الشرق والغرب
(Westöstlicher Diwan) تأليف حننه الألمانى . وقصيدة سهراب
ورسم . تأليف ماثيو آرنولد الانجليزى . ورباعيات عمر الخيام التى
منها فتر جيرلدا الايرلندى الأصل الى الانجليزية . ثم انه لا ريب أن
للمس الاسلامى دافئاً الى غير من الفنون جاذبه قوية بين العربيين من
هذه الجبل . وأن هذه الجاذبيه واضحه فى كثير من الحالات . والواجب
المسعن على مؤرخ المس الاسلامى — فى الغرب والشرق — أن يعمق
الشعور بهذه الحاذيه الى رغبة فى فهم جميع نواحي الحضارة الاسلاميه
التي تعيش فيها عدد جسيم من البشرية

Hartner, W. : The Pseudoplanetary Nodes of the Moon's Orbit in Hindu and Islamic Iconographies. Ars Islamica, V. 1938, pp. 113-154

وتستطيع الفنون الاسلامية وأربابها من الباحثين العربيين ان يؤدروا
خدمة كبيرة للعالم الاسلامي في العصر الحاضر . بعد أن أصبح واضحا
أن هذه الفنون هي العمل الثقافي الذي صادف هوى واعجاب عند
العربيين ، وذلك بأن ينصرف أولئك الباحثون الى أحيائها انصرافا
يتعوض الشرق به مؤقتا عن تأخره الحالي ، في العلوم النظرية والصناعات
المكنية . مما لا نستطيع حقول البترول الخام أو أهميات الموقع الحفري
أن تعوضه . ومهما يكن من شيء فلن يوجد سفير للسلام والوئام بين
الأمم أدكى من الفن ، وهذه المنحوسات وغيرها اذا اتسعت دوائر فهمها
اتساعا جديرا فسوف يقوم الفن الاسلامي بدور هام في مصائر المستقبل .

ابريل سنة ١٩٥٣

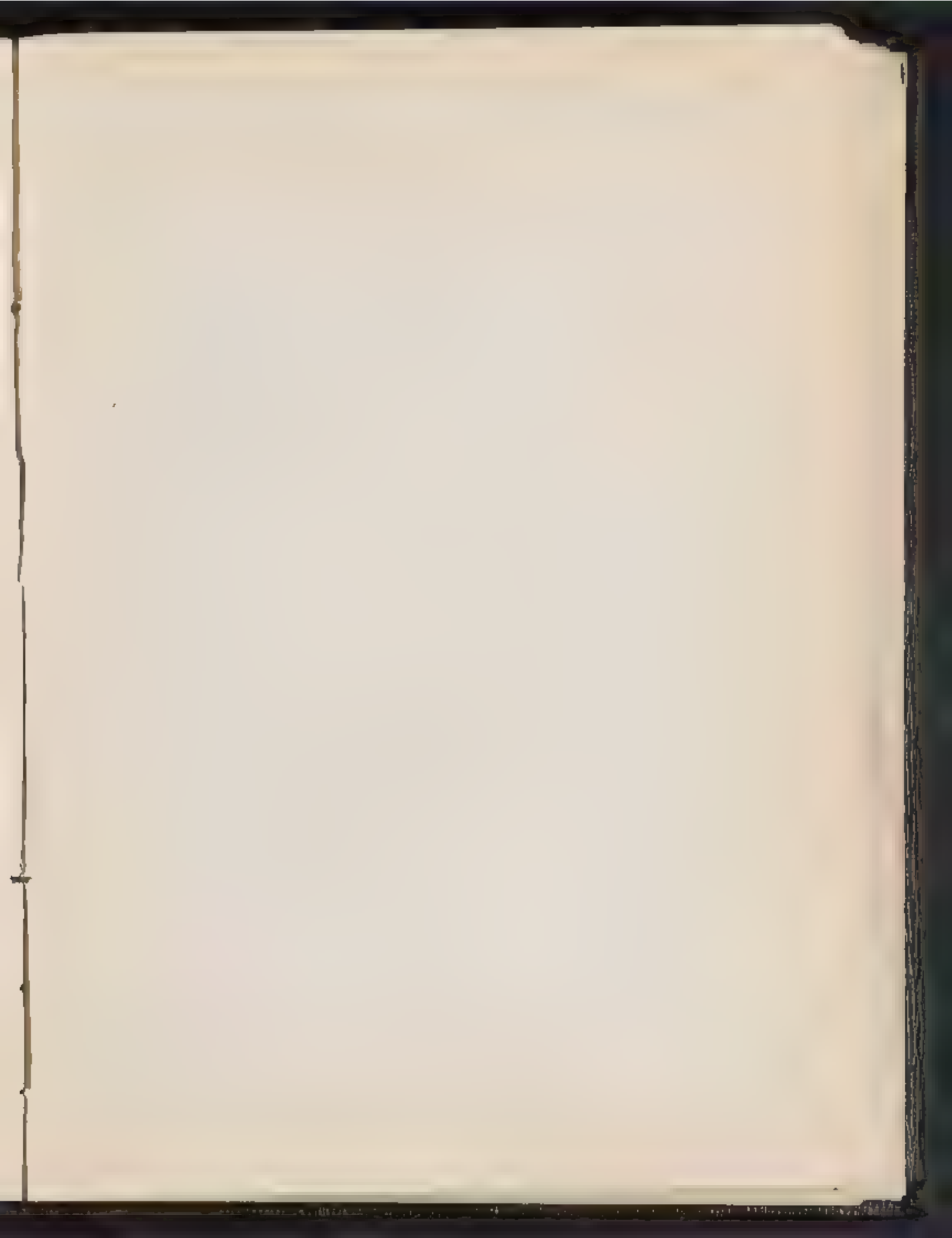
محمد مصطفى رابدة



السياسة الدولية في الشرق الأوسط

تأليف
كوينسي رايت

ترجمة
جعفر خياط



بعد الاعتراف بالأهم البلقانية دولاً أوربية مستقلة . وبعد فناء الحرب العالمية الثانية ، أضحت أسم الشرق الأوسط هو السارى فى المصطلح الدولى الحديث . للدلالة على منطقة من أهم مناطق لأرض ، وهى معظم ممتلكات الدولة العثمانية التى كانت فى آف وأفريقيا . فضلاً عن مساحات أسىوية وأفريقية أخرى . وعلى هذا شتمل الشرق الأوسط على ثلاثة أقاليم جغرافية . أولها إقليم الهضبات الأسىوية الممتدة من بحر ايجة الى باكستان . فيضم أفغانستان وإيران وتركى . ويحتوى على ربع مساحة الشرق الأوسط . وفيه ما يقرب من ثلث سكانه . وهم مسلمون فى الغالب . أما الإقليمان الآخران - أى إقليم بلاد العرب والهلال الخصيب وإقليم أفريقيا الشمالية ، فيؤلفان معا ثلثى المساحة . ولكنهما يشملان على ٣٩ ٪ فقط من سكان الشرق الأوسط كله وهؤلاء السكان الذين بلغ عددهم ٥٥٠ مليون نسمة وسكنوا هم فى الغالب مسلمون كذلك . ويتكلمون اللغة العربية وتسود بينهم المدنية العربية . عر أن عرب أفريقيا يختلفون عن عرب آسيا ، فعلى حين يجرى كثير من دم عرب الفاتحين الذين جاءوا من الجزيرة العربية فى عروق لأفريقيا . فإن هذا الدم احتلط على مقاييس مخلطه بكل من الدم المصرى والسودانى والبربرى والأوربى . وفى الساحل السورى نرى الدم العربى والحصارده العربية مخلطين بدماء السكان الأصليين اختلاطاً ساعدته الأوصاع والجزر الجغرافية والحوادث التاريخية معا . والبلاد العربية تقرب فى مساحتها من الولايات المتحدة الأمريكية . ويمكن تشبيهها بأرخبيل جزائره العراق . والساحل السورى . وساحل البحر الأحمر . وجنوب شبه جزيرة العرب . ووادى النيل . وساحل بربره . وتفصل بين هذه الجزائر وديان يسكنها حَضَر " مستقرون فى الواحات ، وبدو متجولون فى الصحارى على ظهور سفن البادية . أى الأبل .

ويمتد الشرق الأوسط فى ثلاث قارات ، ولا يفصل عن أية من هذه

القارات بحدود جغرافيه . ولكن أجزاءه تنفصل عما يجاورها من كل من هذه القارات من الأقاليم . يوضح ذلك أن جبال القوقاز والبحر الأسود والبحر الأبيض تنفصل الشرق الأوسط عن أوروبا . وجبال البامير ووديان جيحون والسد نفسه كذلك عن سائر انقاره الآسيوية والصحراء الكبرى ، ومرتفعات الحيشة تفصله كذلك عن سائر القارة الأفريقية .

وتقلصت حدود هذا الشرق الأوسط واسع تبعاً لمشيئات الحرب والسياسة خلال تاريخه الطويل ، وهو في الواقع أصول تاريخ . لأن الشرق الأوسط يحتوى عن مواقع أقدم المدن . وأقدم المدن التي أسست الكتابه . وأقدم السجلات . فضلاً عن أعرق النظم السياسية . وأقوام الشرق الأوسط هي التي أثبتت وتمهدت المدن المصرية والبابلية والآشورية والحيشية ، وتاجرت وتفاوضت وتطارت فيما بينها في هذه المظنه الشاسعه أثناء الألف الثامه قبل الميلاد . وعلى غرار ذلك فعل اليونانيون والفرس ، والرومانيون والسوريون . والمسيحيون والمسلمون . في القرون المتأخره . ومثل صانع هؤلاء وأولئك جميعاً مطبوعاً في حاضر المنطقة ، في أشكال مختلفه .

وفي الجلسة الخاصه التي عقدتها عصه الأمم في ٢٦ مايو سنة ١٩٣٧ أشار رئيس الجلسة التركي الى كثير من هذا التاريخ القديم السالف اشاره رمزيه . عندما رحب بمصر عضواً في العصه . حيث قال ان آدم معاهده ساسه في العالم هي التي عقدت بين قدماء المصريين والحشيين الذين بعدهم الأتراك أسلافهم الأقدمين . ثم أعقب ذلك خطب الهنئه من ممثلي العراق وايران واليونان . فأشار كل منهم الى قديم العلاقات التي تربط مدنه بلاده بالمدينه المصريه . وكان هذه الجلسة الخاصه رمزيه كذلك . اذ حضرها مندوبون عن خمسين دولة من مجموعه الدول الأعضاء في العصه ، وعددهم وقتذاك ثمانه وخمسون عضواً . منها عشر دول من الشرق الأوسط . أي أن هذه الجلسة كانت أقصى ما توسعت اليه العصه .

وبرغم انعدام الوحدة الجغرافية والدينية والحضارية بدا الشرق الأوسط متحدا سياسيا ، فالامبراطورية الفارسية على عهد در . والخلافان الأموية والعباسية . والامبراطورية العثمانية بعد ستمائة القانوني ، كل منها اتجه في فتوحه نحو الشرق . وكل منها حكم معظم هذه المنطقة . وكذا كان اتجاه اسكندر المقدوني والرومانين والبيزنطيين من الغرب الأوربي نحو الشرق ، وبذا تناوب الشرق والغرب السيطرة على الشرق الأوسط . غير أن تاريخ الشرق الأوسط في العصور الحديثة نابع من تفكك الوحدة السياسية التي خلقها المسخرون من أولئك الفاتحين . وهم الأتراك العثمانيون ، ويرجع هذا التفكك فيما يرجع الى قوى القومية والامبريالية والدولية ، وهذه كلها شأب في الغرب ، وامتدب روحها نحو الشرق الأوسط . فكوب لسكانه المشكبه الغربية .

حكمت تركيا منذ أواخر عهد سليمان القانوني . أي منذ أوائل القرن السادس عشر الى منتصف القرن الثامن عشر الميلادي . جميع التدع الداخلة في الشرق الأوسط . ماعدا مراكش . وحسوب شبه جزيرة العرب وايران ، وأفغانستان . وفي أثناء القرن التاسع عشر الميلادي ، احتلت فرنسا الجزائر وتونس ، كما احتلت بريطانيا مصر . وفي خلال القرن العشرين احتلت ايطاليا طرابلس العرب . وفي أعقاب الحرب العالمية الأولى تم الاعراف باستقلال الحجار وبعد . وهما الآن المشكبه العربية السعودية . كما تم الاعراف باستقلال مصر واليمن أما فلسطين والأردن وسوريا ولبنان والعراق . فصارت كلها تحت انشاداب عصه الأمم . ثم تحررت العراق من الانشاداب سنة ١٩٣٢ م . واسفلت كى من سوريا ولبنان خلال الحرب العالمية الثانية . كما استقلت الأردن واسرائيل بعد انتهائها . وتنتج عن ذلك كله أن تركيا أضحت مقصورة على شبه جزيرة الأناضول وأجزاء معينة من أرميسه وكردستان في آسيا ، فضلا عن بقعة صغيرة من أوربا حول اسانول . وشأب في تركيا جمهورية وطنية حديثة بفضل عبقرية كمال أتاتورك .

وهذه الحوادث المعروفة في التاريخ الأوربي باسم المسألة الشرقية لم تكن سوى تصفحه للدولة العثمانية ، وتخلل هذه الحوادث نمو نسوية في مصر وبلاد العرب وسورية ولبنان وتركيا وإيران . كما تخللها خصومات امبريالية وشباط ديبوماسي دائب في دوائر وزارات الخارجية الاوربية . فضلا عن عدد من الحروب . يضاف الى ذلك أن هذه المسألة الشرقية أضحت مشكلته المشاكل بين الدول الأوربية الكبرى . وتطلب حين زمامتها صداقة هذه الدول بعضها نحو بعضها الآخر . وعلى هذا أصحى الشرق الأوسط ميدان السياسة الأوربية الامبريالية ، حتى اذ نهت الحرب العالمية الأولى ورثت عصبه الأمم هذه المشاكل ، وبذا انصفت هذه المشاكل بصفه الدوليه .

ثم تولت هيئة الأمم المتحدة هذه المشاكل بذاتها . بعد انتهاء الحرب لعنه الثانية . غير أن نفوذ الشرق الأوسط في الدوائر الدولية ازداد في لوصوح والاضطراد منذ أواخر الحرب العالمية الأولى ، فعلى حين كانت تركيا وإيران هما الدولتان المستقلتان الوحيدتان في هذه الرقعة من الأرض ، أضحت دول الشرق الأوسط عشرا ذوات عضوية في عصبه الأمم . وفي هيئة الأمم المتحدة ارداد هذه الدول حتى صارب ثنى عشر دولة . وتؤديها في هذه الهيئة بعض الأحسان سب دول تسوية . ودولتان من دول أفريقيا الوسطى . فضلا عن عشرين دولة من أمريكا اللاتينية . وهذه المجموعة من الدول تطبع أن تصح ذات نفوذ فعال . لأنها تؤلف ثنى أعضاء المجلس العام في هيئة الأمم المتحدة .

وأهميه الشرق الأوسط ترتكز الى تاريخه ووضع الجغرافى معا ، فهو منبع الديارات العظمى ، ومصدر أقدم المدينيات التى اجتذبت اليها الاثريين والحجاج من جميع الأمم . وترجع لتاريخ الشرق الأوسط قبه لا تخضع لتقدير بالمقاييس الاقتصادية أو التعاريف القانونية ، وهذه القسم التى لا يريد الغرب الامبريالى أن يعترف بقوتها هى التى

جعلت التوفيق صعبا بين المطالب القانونيه والاقتصاديه والمطالب القومية التي لا محيص عن احترامها في الشرق الأوسط . ثم ان الشرق الأوسط يصل بين ثلاث قارات ويربط بين بحرين عظيمين . ويحتوى على نפט وافر . ولذا فهو كذلك موضع اهتمام الاستراتيجيين . فضلا عن الامرياليين وأصحاب رءوس الأموال .

وليس يشبه الشرق الأوسط في الوضغ السياسى العالمى سوى منطقتين أخريين من مناطق الأرض . وهما اقليم البحر الكاريبى . واقسم بحر الصين الحوييه وجنوب شرقى آسيا . ووجوه الشبه بين هذه المناطق الثلاث أن كلا منها يمر فيه طريق مائى ضيق . وهى قناة السويس وقناة بناما ، ومضيق مالقا ، وان كلا من هذه المناطق يعوزه الفحم والحديد اللذان يعديان التصنيع فى السلم والحرب الحديثة .

وكانت كل منطقة من هذه المناطق جزءا من امبراطورية قديمة ، وهى الامبراطوريات العثمانية والاسبانية والماشوية الصينية . كما احتوى كل منها على ترسبات تقطية ومنتجات استوائية هامة . وتتح عن ذلك كله أن أية منطقة من هذه المناطق غدت مسرحا للخصومات السياسية بين الدول الكبرى . ففى خلال القرون الثلاثة الأخيرة تورطت اسبانيا وبريطانيا وفرنسا وهولاندا والولايات المتحدة فى حروب متكررة من أجل منطقة البحر الكاريبى . ثم استطاعت الولايات المتحدة بفضل قربها الجغرافى ، وسيادتها على قناة بناما وبورتوريكو وجنرر العذراء ، وبحكم مبدأ منرو السارى على جميع الدول الأمريكية . أن تسيطر على هذه المنطقة خلال القرن العشرين . لكن ألمانيا تحدث هذه السيطرة بغواصاتها خلال الحربين العالميتين الأولى والثانية .

أما اقليم بحر الصين الجنوبي وجنوب شرق آسيا فتورطت فيه الصين والبرتغال وهولاندا وبريطانيا وفرنسا واسبانيا والولايات المتحدة ، ثم استطاعت بريطانيا بفضل سيطرتها على سنغافوره وهونج كنج . وتعاونها مع الولايات المتحدة فى مانلا بجراثر الصين . أن تسيطر

هي كذلك على هذه المنطقة في القرن العشرين . ثم تحدثت البسبب هذه
السطرة البريطانية . ويحدث في تحديها أثناء الحرب العالمية الثانية .
وعندما استفحلت الحرب الباردة في منتصف هذا القرن العشرين
أضحت الصين الشيوعية تحمل لواء التحدي القديم في هذه المنطقة .
وفي الشرق الأوسط اشتركت تركيا وروسيا وبريطانيا وفرنسا
وايطاليا وألمانيا والنمسا والولايات المتحدة في منازعات عديدة خلال
القرن التاسع عشر . فكان في وسع بريطانيا صاحبة القواعد الحربية
في جبل طارق ومالطة وعدن وفبرص والسويس والخليج الفارسي
أن تهيمن على الموقف كله . بأن آزرت تركيا ضد روسيا ، كما حصرت
الأسطول الروسي في البحر الأسود . ثم أدت السياسة التي اتتبعها
بريطانيا في الحرب العالمية الأولى إلى إضعاف تركيا العثمانية ، وتأييد
العرب ضد الأتراك . وترسيخ أقدامها في مصر وفلسطين والعراق . على
أن القواب الألمانية تحدث هذه السيطرة الشامخة في الحرب العالمية
الثانية بحركة كماشه جواره في ليبيا وروسيا . فضلا عن حركة
الدفاع أرمعها ألمانيا عن طريق تركيا . وهدفت ألمانيا بذلك كله أن
تصل جيوشها إلى ثقط الموصل والموصل . وإلى قناة السويس والخليج
الفارسي . لكن بريطانيا صامد هذا التحدي حتى كاد تزهق .
واضطرب بعد أن خرجت منهكة القوى من الحرب أن تشارك معها
الولايات المتحدة في مصائر المنطقة ومعالجة المطالب التي عرمت القوميات
المحلية النائرة على تحقيقها . وهي القوميات التركية والأيرانية . والعربية
والعبرية . وكان من نتائج ذلك أن أضحت البلاد العربية كله سياسية
هي جامعة الدول العربية .

والمعروف أن الأهداف السياسية والاجتماعية التي أزمع الشرق
الأوسط تحقيقها منذ نهضته القومية تغيرت بتغير الأحوال . وهي لا تزال
حتى العصر الحاضر في تغير وتطور نحو الكمال . بل إن ما يعنيه الشرق
الأوسط في المستقبل من التفرات والطورات لا يمكن تعريفه أو السكهن

به . ولأجل أن نحكم على هذا المستقبل يجب أن تأخذ بعين الاعتبار قوى القومية والدين في الشرق الأوسط من ناحية . ومن ناحية أخرى قوى الامبريالية الغربية . فضلا عما سوف يتبع عن تحرر الكليلين الديمقراطية والسوفييتية في الحرب الساردة داخل هيئة الأمم المتحدة وخارجها .

غير أن التنبؤ بالمستقبل يكون على درجه كبيره من الصعوبة برغم معرفه حقيقه القوى السياسيه المحليه والعالميه . وبرغم القدره على تصور وقع بعضها على بعض . ذلك أن الأمر هنا ليس كما يقبس الفلكي تأثير الشمس وتجاوب الكواكب والقمر بعضها في بعض . لتقدير سيرها وتعيين منازلها المقله . انما الذي يحدث في القوى السياسيه انها تدثر في كل عصر من العصور بأفكار الديناميه التي يؤيدها رأى عام . وبطريقه الالتقاء يصح بعض هذه الأفكار هو السائد . كما يصح البعض الآخر قليل الأهميه . لأن الناس يدلون رأيهم تسديلا غامضا . ولذا يصبح التنبؤ بالمستقبل أشد غموضا وإبهاما . وعلى هذا سحتم علينا أن نجتمع بين اعشار الاتجاهات التي تسير فيها القوى الكائنة حاليا . واعشار رغباتنا في المستقبل . فضلا عن خططنا التي توصل لحقق هذه الرغبات . وكما أصبح العالم مطما تطمنا سياسيا . كلما تصبح السياسه العالميه جهودا لتحقيق الخطط المختلفه الناتجه عن ذلك التنظيم . لا تتبعه القوى المساحرة في السياسه العالميه . ولذا سأل اذا أردنا الكهن بمسقبل الشرق الأوسط : ما الذي تنطوى عليه سياسه هيئة الأمم المتحدة المعبر عنها في الميثاق بشأن هذه المنطقه الجواب هو أن الرأى العالمى العام اذا عبيء بعنة منظمة وراء ميثاق هيئة الأمم المتحدة . واذا وضع رجال السياسه والحرب خططهم لمنع الخراب والدمار . وكبح استغلال القوى للضعيف . فان تقدما مستمرا سوف يؤدى بالشرق الأوسط الى تحقيق أهدافه .

ولهذا يتعين علينا هنا تحليل القوى السياسية ، واتجاهات الرأى
العالمى العام ، والمؤسسات الدولية وسياسة هذه الأمم المتحدة .

١ - القوى السياسية

أكثر القوى تأثيرا فى مصير الشرق الأوسط هى التى تصدر عن
الكتلتين المتحاصمتين ، وهما كتلة الديمقراطيات الغربية ، وكتلة
الدكتاتوريات السوفيتية . وتقوم سياسة الديمقراطيات على قاعدة
الاعتراف بالإمامى القومية والوطنية . وكفالة الحريات الأساسية للإنسان .
فى كل مكان . كما تقوم على سياسة التنظيم الدولى والزام ما تقرره
التنظيمات الدولية . رغبة فى استتباب السلم العام والأمن والاصلاح .
أما سياسة الاتحاد السوفيسى فيبدو أنها تصبو الى تكتيل الأمم جمعا
بواسطة الكومنترن الذى يسيطر عليه الكرملين فى روسيا ، وذلك
لأحداث ثوره انقلابية فى البناء الاجتماعى . وفى الصناعة والانساج
والاستهلاك . بغض النظر عن المنفعة الفردية كائنه ما كانت .

ومما لاشك فيه أن الوسائل والأغراض المحلية التى لا تتسجم مع
هاتين الكتلتين المتخاصمتين سوف تجعل التأثير العاجل لأية واحدة
مهما فى الشرق الأوسط شيئا صعبا . وهذا على فرض أن تحرز إحدى
الكتلتين المتخاصمتين انتصارا تاما فى حلبة التنافس الدولى . ولذا سوف
يظل مستقبل الشرق الأوسط متأثرا زمنا طويلا بسير الحرب
الباردة .

وربما كان بلاد الشرق الأوسط أقل قبولا لاتخاذ موقف ايجابى
معين من إحدى الكتلتين المتخاصمتين ومناهجهما من قبولها موقف الرعية
فى تحاشى العورط . فى أى نوع من منازعات الحرب الباردة ، نظرا
لما يربط بعض الدول فى الشرق الأوسط بدولة ما من الدول الكبرى .
أو بسبب الاغراء أو التهديد الذى تستطيعه إحدى هذه الدول الكبرى
فى المستقبل العاجل . من الأمثلة على ذلك أن تركيا انضمت الى حان

ألمانيا في الحرب العالمية الأولى . ثم بقيت على الحياد الى قبل انتهاء الحرب العالمية الثانية . ثم أكدت صداقتها لبريطانيا وفرنسا عشية نشوب القتال ضد المحور . ودلت مقابل التنازل لها عن القسم الشمالي من الانتداب الفرنسي في سوريا . ومن أجل خشيتها من روسيا . وبعد أن احتلت القوات الألمانية جزءا كبيرا من روسيا سنة ١٩٤١ عقدت تركيا مع ألمانيا معاهدة تجارية . ولكنها أخذت تميل ميلا واضحا نحو الأمم المتحدة حتى انضمت اليها . عندما أضحت النصر وشكا ضد الدول المحورية . أما الولايات المتحدة فعاضدت تركيا في مقاومتها للسياسة السوفيتية وأهدافها ضد الأراضي التركية . ولذا انضمت تركيا واليونان الى منظمة معاهدة شمال الاطلسي .

وفي أثناء الحرب العالمية الثانية عرفت بلاد العرب ويران من الامبريالية البريطانية والفرنسية ما لم تعرف من الامبريالية الألمانية والانتطالية . وأضمت محطات الاذاعة في دول المحور في اظهر مساويء الاستعمار . كما أن مفتي القدس ورشد عالي الكيلاني رئيس وزراء العراق ورضا بهلوي شاه ايران حاولوا التقرب الى دول المحور أملا في التخلص من مختلف ربقات الاستعمار . لكن التداير العسكرية السريعة التي اتخذتها بريطانيا بمساعدة روسيا قضت على حركات المحور في ايران . كما قضت تداير سريعة أخرى على الحكم الفرنسي الفشي في سورية ولبنان . ومما ساعد على نجاح ما قامت به بريطانيا في سوريا ولبنان أن العرب الذين انضموا الى الحلفاء في الحرب العالمية الأولى ، وحصلوا على شيء من الاستقلال لبلادهم وقدالك مالوا الى جانب بريطانيا في الحرب العالمية الثانية . وعملت السياسة البريطانية على استرضاء أولئك العرب بالاعتراف باستقلال كل من سوريا ولبنان . وبالجامعة العربية وبالعزم على انتهاء الانتداب والخروج من فلسطين . ثم أضحت سوريا ولبنان والمملكة العربية السعودية أعضاء أصليين في هيئة الأمم المتحدة .

وفي سنة ١٩٣٦ تم الاعتراف بمصر دولة مستقلة ذات سيادة ، ومع أن

مصر قلب بي حاب بريطانيا في الحرب العالمية الثانية . ورضت أن تكون
المعقل الرئيسي للقوات البريطانية وغيرها من القوات في الشرق الأوسط .
بل صارت أرضها مسرحا للحرب فعلا . فانها لم تدخل الحرب رسميا
ضد الدول المحورية حتى سنة ١٩٤٥ . ثم أصبح مصر عضوا أصليا
في هيئة الأمم المتحدة . ولكنها احتلت مع بريطانيا حول تفسير معاهدة
سنة ١٩٣٦ . وأدت أحوالها الداخلية الى نزول الملك فاروق عن العرش .
وتأسيس حكومة جمهورية يرأسها اللواء محمد نجيب سنة ١٩٥٢ .
وحافظت مصر التي هي أقوى الدول العربية على نوع من الرعامة
بين هذه الدول في هيئة الأمم المتحدة

وفي ليبيا ونوس والجزائر ومراكش تكشف اهتمامات اسر سبعة
لخلفاء بعد انحلالهم شمال أفريقيا . سنة ١٩٤٢ . ولما كانت هذه البلاد
خاضعة لحكم استعماري لس فيه الا القليل الصل من الحكم الذاتي .
فانها لم تكن ميقظة لأحوالها السياسية . بالقياس الى مصر وسائر
البلاد العربية عبر أن عرب لسا لم يكونوا راضين عن لسانسة الانطاله
التي اضطرت كثيرا منهم الى الهجره . لافساح المجال للمسنوطنين الانطالين
فل شوب الحرب العالمه الثانيه فلما انتهت الحرب . ونفضت انطالا
بدها من لسا . تناقشت الدول الكبرى في أمرها حتى ١٩٤٩ . وجعلها
خاصه لوصاية الأمم المتحدة مدة سنين . ثم أصبحت ليبيا دولة مستقله
سنة ١٩٥١ . ولكنها لم تدخل هيئة الأمم المتحدة . أما تونس والجزائر
ومراكش ، فارتبط كل منها بحماية فرنسا سنين عديدة ، ثم ثارت بلاد
الريف المراكشيه في العشرينات من هذا القرن العشرين ضد فرنسا
وألبانيا . وفي الحرب العالمه الثانيه وضحت أهمه شمال أفريقيا . وهذا
على حين سقطت فرنسا . ثم أعقب ذلك ازدياد شأن القومسة في مصر
وسائر البلاد العربية ، واستقلت ليبيا ، وهي أقل بلاد شمال أفريقيا
تقدما ، فتناذرت تونس والجزائر ومراكش بضرورة الحكم الذاتي والاستقلال
عن فرنسا ، وثارَت المنازعات مع السلطات الفرنسية . وبدلت الدول

العربية الأعضاء في هيئة الأمم المتحدة جهودا لعرض قضية هذه
البلاد على مجلس الأمم المتحدة عام ١٩٥٢

والقومية في الشرق الأوسط عموما قوة ذات أهمية . وهي لا تزال
في ارياد . و انتهت القومية في الشرق الأوسط طريق سائر القوميات
في التاريخ الحديث . اذ بدأت بتشكيل الجمعيات الأدبية والجماعات
السياسية لاهياء أمجاد الماضي العربي . واضهار العسف التركي العثماني .
وأدى ذلك الى قيام السلطات التركية العثمانية بشريد هذه الجمعيات
الأدبية والجماعات السياسية . فبدأ معظمها الى مصر . وصارت مصر
مركزا للدعاية وطبع المطبوعات لترويج القومية العربية . وفي المراحل
الأولى لهذه الحركة كانت بعض المؤسسات المسححة وهيئات البشروسيله
من وسائل نقل البذور القومية من الغرب الأوربي والأمريكي الى بلاد
الشرق الأوسط . ثم قام المسلمون والمسيحيون من أهل البلاد العربية
للمعمل حبا الى حنب . لأن زعماءهم أعلنوا أن العقيدة الدينية أمر يعود
الى وجدان الفرد .

ومما ساعد على تعذية القومية العربية أن الامبريالية التركية
العثمانية . وكذلك الامبريالية الأوربية بريطانيا وفرنسا
لم تأل جهدا في معارضة أمانى العرب . ولهذا انهمر البلاد العربية
المرصه خلال الحرب العالمية الأولى . ورجحت بالوعود البريطانية لفرنسيه .
وأعلنت انفصالها عن تركيا العثمانية . عر أن تصحبات العرب في تلك
الحرب . ونقص الاستقلال الذي حصل عليه كل منها . والاختلاف بين
بريطانيا وفرنسا والصهونيه . كل ذلك حفر القومية العربية الى الحركة
أثناء المدة الواقعة بين نهاية الحرب العالمية الأولى وبداية الحرب
العالمية الثانية . ومما ساعد على ارياد هذه الحركة ما استولى على
الامراطوريات البريطانية والفرنسيه والألمانيه والايطالية من الضعف
تبعه الحرب العالمية الثانية . وانتعال الغرب الأوربي كله بمقاومه
الشيوعية والامبريالية الروسيه . يضاف الى ذلك فشل الحرب

ضد إسرائيل . وقيام زعماء من العرب العارفين بتاريخ الشعوب العربية وطاقاتها الماضية ، ويقظة السياسيين العرب في هيئة الأمم المتحدة . وللقومى العربية اليوم زعماء ومنظمات وأدب خاص ، لكن مهجها لا يزال غير واضح تمام الوضوح . فهل هى تستهدف خلق أمة تجمع بين جميع العرب من أطراف إيران الى شاطئ المحيط الاطلنطى ، أو أمة تضم العرب الآسيويين فقط ، أو أمة من عرب البلاد الشمالية فقط . أو أنها تستهدف خلق عدة دول عربية مستقلة ، وهو ما تحقق أكثره ؟ غير أنه يبدو من غير المحتمل مثلا أن تستطيع القومية العربية خلق أمة واحدة من عرب آسيا وحدهم ، لأن ذلك لا يمكن أن يدخل في الحسبان قبل تحيين المواصلات وزوال الأمية . وقليل المروق بين العرب البادية والعرب المستقرين في المدن والحواضر والسواحل . ثم إن العراق وسوريا ولبنان والمملكة العربية السعودية واليمن ومصر والمملكة الهاشمية الأردنية وليبيا هي الآن دول عربية مستقلة . وجميعها عدا الدولتين الأخيرتين أعضاء في هيئة الأمم المتحدة . ثم إن هذه الدول كلها أعضاء في جامعة الدول العربية ، وإذا كان نظام الاستبداد الذى أشرفت عليه نصه الأمم مرحلة انتقالية من السيطرة الامبريالية الى الاستقلال لعرب آسيا ، فهل يقوم نظام الوصاية الذى تشرف عليه هيئة الأمم المتحدة بدور انتقالي نحو الاستقلال لعرب أفريقيا الشمالية ؟

وإذا نظرنا الى جيران الدول العربية نجد أن الشعور القومى خلق دولا مستقلا في تركيا وإيران وأفغانستان ، ولاشك أن الشعور القومى في كل من هذه الدول قوة ديناميكية هائلة . وهذه القوة كفيلة بمقاومة أى خطر يعرض له استقلالها في المستقبل . غير أن ميثاق سعد آباد الذى انضمت اليه تركيا وإيران والعراق وأفغانستان سنة ١٩٣٧ . والمعاهدات العربية التى عقدتها بريطانيا وغيرها سنتى ١٩٣٦ و ١٩٣٧ مع مصر والمملكة العربية السعودية والعراق واليمن كانت كلها محاولات ، ولم تهدف واحدة منها الى تكوينات اتحادية . وفي ذلك

دلاله على انعدام تماسكها الجغرافي . ثم ان بعض الدافع الى كثير من هذه المعاهدات كان عبارة عن الخطر الذي أخذ النظام السياسي العالمي يتعرض له في الشرق الأوسط باستيلاء موسوليني على الحبشة . يضاف الى ذلك أن جامعة الدول العربية التي تكونت سنة ١٩٤٥ وميثاق الضمان الجماعي الذي انعقد بين هذه الدول سنة ١٩٥٠ يسمى ايجاد تماسك يمهّد لشيء من النظام الاتحادي بين العرب . لكن الخلافات الموجودة بين بعض الدول الأعضاء لا تدل على امكان بلوغ هذا الهدف في زمن قريب ، ومع هذا كله فالمعروف على وجه التأكيد أن القومية في الشرق الأوسط سوف تقوم بدور هام في السياسة الدولية عن طريق الدول العربية . ما دامت هذه الدول تسير نحو تحقيق قوميها .

أما الامبريالية فهي قوة سياسية تدفع حكوماتها الى بسط نفوذها السياسي والاقتصادي . بشديد التكبر على حرية الرأي . وتمتد السيطرة على الموارد الاقتصادية الموجودة في ممتلكاتها . وغر ممتلكاتها . وتنشأ الامبريالية عن دافع بشري يدفع الفرد الى السيطرة على الغير . وقد سرب عدوى الامبريالية في بعض الأزمان الى الحكومات المبينة على نظريات التفوق الشخصي أو الطبقي أو الجنسي . غير أن درجة العدوى اختلفت باختلاف الحكومات . وبحسب تاريخ حكومة دون أخرى ، وربما تكون الامبريالية متممة للقومية في دولة من الدول . وربما تكون نتيجة من نتائجها .

غير أن القومية في ذاتها تقوم على أساس تعريف الفرد لنفسه . باندماجه في مجموعة من الأفراد الذين يشابهون عقليا . ويسعون لتظيم أحوالهم في اقليم من الأقاليم يتسع اتساعا كافيا . للحصول على درجة عالية من الحكم الذاتي السياسي والحضاري . فاذا نشأت حركة من الحركات القومية في إحدى ممتلكات دولة كبيرة . نهضت الامبريالية في هذه الدولة الكبيرة الى مقاومة هذه الحركة . للمحافظة على تكوينها ونظامها . حتى اذا نجحت الحركة القومية في التخلص من الامبريالية المتسلطة عليها .

فإنها تظل عادة وجها لوجه أمام هذه الامبريالية التي لا تزال تتحكم في ممتلكاتها الناقية . ومن أجل ذلك لا تكفى الأمة ذات الحركة القومية الناجحة بما حصلت عليه من الاستقلال . بل تظل متأثرة بالخطر الذي يهدد بعض حدودها من ناحية الامبرياليين القدماء أو غيرهم . وعدم كفاية مواردها الاقتصادية أو قلة سكانها . أو كثرتهم . ولذا تسعى الدولة لقومية الجديدة الى اخضاع مناطق مجاوره . وعلى هذه الشاكلة تتصل الى الامبريالية . غير أن هذه الفروض على صحتها لا تؤدي الى هذه النتيجة دائما الا اذا بلغت رتبة ذات الحركة القومية الناجحة مانع لامبرياليين في القود الحرة والاقتصادية . والحصارية كذلك . ثم ان رآهم الحديث العهد بالاستقلال تشب عادة بفضل مجهودات المطبات الدولية ، وتبلغ فضجها السياسى بفضل ما تبذل من جهود في سبل المعرفة بأن الاشراك السياسى والاقتصادى والثقافى . في هيئته أوسع حدودا ووفقا من حدود الأمة الواحدة وآفاقها ، هو الثمن الذى تدفعه كل أمة من الأمم الكسرة قبل الصغرة . لقاء الحرية في تكوين حضارتها ومؤسستها ومستقل سكانها . ومن هذا يصح أن بلوغ أية حركة قومية مبلغ الامبريالية لا يكون الا نادرا وعلى غير القياس .

ومع هذا يستطيع الباحث أن يلحظ المراحل المعاصرة في حياة الأمم على وجه العموم . وهي مرحلة الاستقلال القومى . ومرحلة الامبريالية القومية . ومرحلة التعاون الدولى . فأمم الشرق الأوسط هي على الأعلب في أول مرحلة من هذه المراحل . والأمم السوفياتية في المرحلة الثالثة . وأمم حلف شمال الأطلسي في المرحلة اشالة . على أن أمم حلف شمال الأطلسي اجازت مرحلة الامبريالية القومية . بالنسبة للعلاقات الى تربط بعضها ببعض . وهي تعمل الآن من أجل التعاون الدولى . وتريد أن تنظم علاقاتها على فاعده التعاون مع قوميات الشرق الناشئة .

وعلى هذا فإن شعوب الشرق الأوسط له تجابه في كفاحها من اجل الاستقلال الوطنى امراطوريه العثمانين وامبريالية بريطانيا وفرنسا

وايطاليا وألمانيا فقط ، بل انها تجابه الآن امبريالة روسية ، واهتماما
مرايدا من ناحية الولايات المتحدة وكانت المصالح الامبريالة الثلاث
من هذه الدول في الشرق الأوسط مختلفة . فاما جميعها أدركت الأهمية
الاستراتيجية والحاجات لطريق الشرق الأوسط في البحر . كما أدركت
في السنين الأخيرة أهميته موارد النفط الموجودة في تلك المنطقة .
لاعتماد بريطانيا على قوتها البحرية . ولأهميتها بالمشرق . الى الهدف
فان مصلحتها في هذه المنطقة انظر من مصلحة جميع الدول الأخرى .
مع العلم بأن روسيا التي تمتلك المصالح الرائدة بجانب مواضعها في البحر
الأسود تكاد تكون مصلحتها بالأهمية نفسها . فبالإضافة الى ذلك أن
القيصرية اضطلعت نفسها بدور الحامي للمسيحيين في دولهم في
بلاد الشام وتركيا وسوريا . وهذه مصلحة يجب عليها العمل من
السوفييتية . وبالنظر لأن امبريالة بريطانيا كانت منذ ان
المسلمين ، صادقت بريطانيا مسلمي الشرق الأوسط صدقة عديدة .
عندما بولت الأسناد اضطلعت بدور شونه الساقط . وهو دور الحامي
للنصارى في فلسطين . وحاولت ألمانيا بعد زياره القصر لدمشق سنة ١٨٩٨
أن تحل محل بريطانيا في دور الصديق الأول للمسلمين . كما أن فرنسا
تقالبدها التي تعود الى الوراثة حتى تصل الى أيام الصليبيين . واصبحت
الى انصاف اتصال وثيقا بالساكنين منذ الحرب العظمى الاولى .
كل منهما الاضطلاع بدور الحامي للكاثوليكين في الشرق .
عدد المسلمين الكبير الخاضع لحكم كل منهما . واليوم يفتك من
الدول السوفييتية التي تقودها موسكو ، والدول الديموقراطية التي
تقودها واشنحطن مناورات الكنتين في منطقة الشرق الأوسط .

وتعد المصلحة الدينية قوة كبيرة في الشرق الأوسط . بصرف النظر
عن ارتباطها بالامبريالة القومية . ذلك لأن المسلمين والنصارى واليهود
وهم في مجموعهم نصف سكان العالم يولون وجوههم شطر المدن مقدسة
في فلسطين والجزيرة بالعسارها أماكن ذات أهمية تاريخية . وقديسة واحدا
يحج اليها الحجاج . وجهت بعض المنظمات الدينية لكي تحفظ مسرى

على السيطرة على هذه المناطق . لتؤمن الحجاج ومستعمرات المستوطنين والأماكن المقدسة . ولم يناع أحد سيطرة المسلمين على مدينتي الحجاز المقدستين - مكة والمدينة - منذ أيام محمد صلى الله عليه وسلم حتى الآن . واحدم الزاع خلال أربعمائه سنة من العصور الوسطى بين المسيحيين والمسلمين على الأراضي المقدسة . لكنه كان نراعا لا طائل تحته . أما اليهود فابتهلوا منذ أيام السبي . بالقرب من حائط المبكى الكائن في موقع هكل سليمان في القدس . من أجل عودة السيطرة لهم على هذه البقعة المقدسة . ونجح الصهيونيون الحديثون في تعريض معظم الساسة الأوروبيين والأمريكيين بحق الشعب اليهودي في فلسطين . حتى أن كثيرا من الصهيونيين فسروا هذا الحق بأنه يطوى على فرض سيطرتهم على المسلمين أصحاب الحق الفعلي فيها منذ القرن السابع الميلادي . ثم انتقلت السيطرة على فلسطين من تركيا المسلمة إلى بريطانيا المسيحية . وهي التي يوجد في امبراطوريتها ما يكفي من الأصدقاء لكل من الجانبين المتأثر على ساسها . وينص الاسداب على فلسطين على سيطرة الدولة المنتدبة على الأماكن المقدسة . وعلى تشكيل لجنة يصادق عليها مجلس عصبة الأمم لتعين حقوق الطرفين . عبر أن هذه اللجنة لم تتشكل ، مع أن لجنة حاصه صادق على تشكيلها ذلك المجلس قدمت تقريرا عن الادعاءات الخاصة بحائط المبكى . ١٩٢٩ . ولم تكن الجهود البريطانية المبذولة لتوفيق بين مطالب اليهود والمسيحيين والمسلمين المتعارضة بالنسبة للسيطرة النهائية على الأراضي المقدسة ترتضها أية جهة من هذه الجهات ، فاللجنة العربية في فلسطين . ومفتى القدس الأكبر . وجمعية قآدليومي التي تنظم شأن اليهود في فلسطين . والمؤتمر الصهيوني العالمي ، وبطريك اللاتين في القدس ، والمستعمرين المسيحيين في فلسطين - كانوا كلهم ينتقدون الادارة البريطانية في فلسطين .

ثم أدى طلب الصهيونيين بعد أن وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها بتأسيس دولة مستقلة لهم . ومقاومة جامعة الدول العربية المؤسسة حديثا لذلك الطلب ، إلى حصول توتر شديد وإلى عرض القضية على هيئة الأمم

المتحدة وتوصية مجلسها العام في سنة ١٩٤٧ بتقسيم فلسطين وتأسيس دولة اسرائيل اليهودية . ثم تخلت بريطانيا عن الانتداب ، وعدل مجلس الأمن تنفيذ قرار المجلس بالقوة . فآدى ذلك الى وقوع حرب سافره تحت عن فور اسرائيل التى اعترف بها بصورة عامة عضوا فى هذه الأمم المتحدة .

٢ - اتجاهات الرأى العالمى

ليست هناك معلومات يمكن بواسطتها اجراء تقدير دقيق للدور الذى تحدثه اتجاهات الرأى العام فى الشرق الأوسط حاليا . ولم كانت اتجاهات الرأى العالمى تعتمد على آراء دولة تعرض للتبدل والغير السريع بواسطة التعليم والدعاية . فان المحاولات التى تدل لطبيب هذا التقدير على المستقبل لا بد أن تعرض لمقدار كبير من الخطأ .

غير انه من المعقول مثلا ان المواصلات الداخليه بين بلدان الشرق الأوسط نفسها ، والمواصلات بينها وسائر أنحاء العالم سوف تزداد ، وان ذلك سوف يصحبه ارياد فى تأثير الاتجاهات العالميه السائده فى العالم على بلاد الشرق الأوسط . والمعروف ان الحضاره العالميه منذ عهد النهضة الأوربيه اتجهت نحو الاعتراف بحرية الفرد فى اختيار الديانه التى يسميها ، والثقافه التى يتخذها لنفسه ، ونحو التسليم بالمساواة المعنويه بين البشر ، مع تخطئه المزايم القائله بالتفوق القبرى لأى طبقه أو صنف أو عصر أو قوميه . واتجهت الحضاره العالميه كذلك نحو التسليم بأن الطريقه العلميه هى السبيل الى المعرفه ، وان هذه الطريقه هى التى تضمن الفائده الاقتصاديه ، لأنها تضمن على تقاسيم العمل الوطنى والجغرافى والبدن المهنى أوسع معانيه الروحيه والجغرافيه . والفضل فى استقرار هذه القواعد يرجع الى التسليم بنسبه القيم الاساسيه الى الحضاره والباريخ . وبالفائده الاقتصاديه من الوجود المشترك لهذه قوميات محلقه تنص بعضها ببعض اتصالا معتدلا .

غير ان القوميات الحديثه أوديت فى بعض الأزمان والأمكن بسبب الاضطهادات والاضغاع بالاكراه . وقمع الأفكار والحكم المضيق .

والمصالحات الاستعمارية والديكتاتورية ومع هذا لم تش هذه المعائر اتجاهات الرأي العام عن السير نحو الحرية والانسانية. وفي الشرق الاوسط قامت سائبا عدة عقبات في سبيل اشياء هذه الاتجاهات. مثل حرارات الدينيه. وقلة المسؤولية الجماعية تجاه الاعداءات الخارجيه. وبغنا الاقطاع. وانعدام الرعامة التي تحمل روحية الشعور بالمصلحة العامة. والتأخر الموحود في التطور الاقتصادي والرأي العام والاداره لمدة. على أن الاتجاهات العالمية نحو الحرية والانسانية اذا استمر وجودها سوف تجعل الدين شأنا من شؤون الوجدان الفردي، لا قوة من تموى الساسة التي لها المقام الأول. وسيزداد تسليم القانون بسفلال الفرد ومسؤوليه. ويعظم شأن الشعور القومي باعساره قوة ساسة ذات أثر فعال بين سكان البلاد الذين تجمع بينهم صفات حصارية وجغرافية واضحة. ثم ن استخدام العلم في الشؤون الاقتصادية سردد. فعمل على انتشار التجارة الدولية والحصف من غلواء القوميه. وسببائل الامرناله. الاستعماريه فصح المجال للحكومات القوميه كي تكون مسؤوله عن الأمن واسطه محبا. كما تصح للمؤسسات لدولة لصح مسؤوله عن سويه الخلاص الدوله وتنظم التجارة عامنة. ومن الواضح أن السبل الى هذا ودالك ينحصر في تقوية هيئة الأمم المتحدة وسياستها التمشية مع اتجاه المدية العالمية.

٣ - المؤسسات الدولية

لعالم السياسي والقانوني يسير لوم في دور الانتقال، فمنذ عهد النهضة الأوروبية. وخاصة منذ معاهدة وساليا. أضحي القانون دولي يؤكد سياسة الدولة الاقليمية. ويفيد اتجاهات الدول التوسعية. وترك المحافظة على النظام القائم الى طيعة توارن القوى. وظلت هدم الأفكار ذات أهمية كيرة مد القرن السادس عشر. حين تألفت من الطبقة الارستقراطية وطبقة رجال الدين طبقات دولية ذات شأن ينترم عضوها بعض المقاييس الدولية المصطلح عليها بسهم. وفي القرنين السابع

عشر والثامن عشر كون التجار طبقه دولية خاصة ، يعيده نوعا ما عن الشؤون السياسية ، وبنوا لأنفسهم قهوا للمحافظة على مقاييس دولية معينة لحماية التجارة . ثم تغيرت معايير هذه الطبقات الاقتصادية وخاصة في القرن التاسع عشر ، ودخلت دول جديدة ذوات تقاليد حضارية مختلفة في أسرة الأمم ، وانحط شأن التأثير الأخلاقي الذي دعم النظام الدولي ، وأصبح النوارن المادي وحده أساسا للقانون الدولي .

وعلى الرغم من رداءه المواصلات وشؤون النقل والاقتصاديات في القرنين السابع عشر والثامن عشر استطاع المجتمع الأوربي ، برغم عدم انتظامه النسبي والانشقاق الذي ولدته الحروب ، أن يحافظ على احترام كاف للمقاييس الدولية القابويه والأخلاقية ، وأن يشر الاعتقاد بأن أوروبا مجتمع يسير قدما نحو التكوين الذاتي . واستمر القانون الدولي في القرن التاسع عشر على القيام بواجبه حتى بعد وقوع الثورة الصناعية . ونشر الطبقات الدولية السابقة في الشرق . ومن الأمثلة على ذلك أن بريطانيا استطاعت بقوتها البحرية ونفوذها المالي أن تسطر على حرية البحار لتجارتها ، وأن تخفف من غلواء الحواجز التجارية ، وتمنع غيرها من الاستيلاء المفرط على ما وراء البحار ، ثم تدعم توارن القوى في أوروبا . غير انه ثبت في القرن العشرين ان هذا النظام لا يفي بالمرام ، لأن اختراع القواصة والطيارة ، وتصنيع الولايات المتحدة وألمانيا واليابان حطم قدرة بريطانيا على تنظيم شؤون العالم حسب مشيئتها . يضاف الى ذلك ان اريداد السيطرة الديمقراطية على العلاقات الخارجية راد في تأثير المصالح الداخلية على سياسة الدول الخارجية ، فجعل توارن القوى أقل استقرارا ، كما ان نمو المبادئ الاشتراكية أواخر القرن التاسع عشر ، وارديد نفوذ العمال غير الملمين بقواعد علم الاقتصاد ، أدى الى اشتداد الضغط القديم لحماية التجارة . وتنج عن ذلك ان اردادت الحواجز التجارية على الحدود الوطنية . وتضعف صرح العالم السياسي ، واردادت المخاوف من الحرب وحالة الحصار ، وأخذت الدول تكرر اقتصادها

الوطني للاستعداد الحربي . وعلى هذه الشاكلة تعثر الاقتصاد العالمي في تأدية واجبه ، وأخذت كل أمة تكثر من اعتمادها على خطة مرسومة للتجارة العالمية . من أجل المحافظة على مستوى معيشتها . وامتد ذلك الفساد في النظام السياسي العالمي ، واندفاع العالم نحو أتون الحرب المستعرة .

ثم أدرك الساسة في المده التي وقعت فيها الحرب العالمية الأولى خطورة هذا الوضع . وخاصة وذررو ويلس ، فاقترح تعديل القانون الدولي في اتجاهات أربعة . أولها حفظ سيادة الدول مع الحد من هذه السيادة ، وتقييد حقها المطلق في شن الحروب والبقاء على الحياد . وثانيها تقييد الحق المطلق في حكم كل دولة من الداخل لرعاياها داخل بلادها . بمعاهدات الأقليات ومؤسسة العمل الدولي وسائر المؤسسات الدولية والانسانية . وثالثها تقييد الحق المطلق للدولة الاستعمارية في حكم المستعمرات ، بقواعد نظام الاسداب . ورالاتفاقيات المخصصة بالرقيق وتجارته . وسائر الاسعمالات التي تنزل بالشعوب المتأخره . ورابعها تقييد التجارة الدولية . وبحرة التراسل . واشمل ميثاق عصه الأمم . كما اشتملت اتفاقية باريس على هذه التعديلات التي وضعت موضع النقد عن طريق عدد من المؤثرات الدولية الاقتصادية .

ولوضع الأسس السياسية لهذه التعديلات تقرر أن تحل عصبة الأمم محل التوازن الدولي المرتكز الى المحالقات والمؤتمرات السياسية ولسيطرة الحرية الرئاسية . فقوم العصبة بنظيم العمل الجماعي ضد الاعتداء ، وفرض السوية للمنازعات الدولية . وتسهيل المداولة المستمرة بين الدول لتعزيز التوازن السياسي . وخلق رأى عالمي عن طريق اجراء مباحثات بين حين وآخر بين ممثلي الأمم في مجلس عالمي . وأدركت دول العصبة أهمية القوانين الجديدة التي شرعتها ضد الحرب واضطهاد الأقليات . والامريالية والحواجر التجارية . لكن الدول التي أخذت تولي وجهها شطر الأمن الجماعي ، واحترام حقوق الانسان ، واستقلال

الشعوب، والتجارة الحرة، أحست بأن القوانين الجديدة شديدة التحديد، ضيقة المجال، غير وافية بالمرام، وأن الساسة والرأي العام في معظم الدول الكبرى ما يزالون يذكرون بعقلية القوانين القديمة. وتتح عن ذلك أن عادت أمريكا إلى عزلتها القديمة، وعادت الدول إلى مزاوله أساليبها البالية. والسير على مقتضى الرجعية، فكانت النتيجة وقوع حرب عالمية ثانية. ثم أدت هذه الحرب إلى محاولة تنظيم الشؤون العالمية بميثاق الأطلاتنى (١٩٤١) أولا، وبإعلان تأسيس هيئة الأمم المتحدة (١٩٤٢)، ثم بميثاق الأمم المتحدة (١٩٤٥).

وبرغم الفشل الذى ميب به مبادئ عصه الأمم قبل الحرب العالمية الثانية. فمما لا شك فيه أن ما حدث بفصل هذه المبادئ في المده اواقعه بين الحربين العالميتين لم يخل من فائدة، برهان ذلك في الشرق الأوسط أن نظام الانتداب ساعد العراق على أن يصحح دولة مستقرة. على أن هذا النظام كان أقل نجاحا في سوريا ولبنان، لأن سياسة فرنسا عملت على المحافظة على وضعها الاستعماري القديم في مناطق انتدابها، وهذا على حين أخذ الرأي العام في كل من سوريا ولبنان يسير مسرعا في الطريق إلى سار فيها العراق. ففي سنة ١٩٣٦ امتنع البرلمان الفرنسي عن المصادقة على معاهدتى التحرر المنعقدتين مع سوريا ولبنان، وفي سنة ١٩٣٩ خالفت الحكومة الفرنسية شروط انتدابها بتنازلها عن الاسكندرويه إلى تركيا. ثم جاءت الحرب العالمية الثانية، فلم تلبث سوريا ولبنان أن أصبحت دولتين مستقلتين. ولم يلبث استقلال هاتين الدولتين أن اعرفت به جميع الدول، قل أن تضع الحرب العالمية الثانية أوزارها. ثم أصبحتا عضوين في هيئة الأمم المتحدة.

وتطلب الانتداب على فلسطين من الدوله المنتدبة أن تمهد للحكم الذاتى وحصول البلاد على الاستقلال في النهاية، كما جرى لسائر بلاد الشرق الأوسط التى خضعت للانتداب، على أن تساعد الدوله المسدبة في تكوين وطن قومى لليهود، مع اعتار ما يستحقه سائر السكان المحليين

من حقوق مدنية ودينية ، وما يلزم من الوسائل لحماية الأماكن المقدسة .
غير ان العرب الذين احتجوا على فصل فلسطين عن سوريا ، لأنهما كانتا
وحدة ادارية في ظل الحكم التركي ، أصروا على ان الانتداب لا يمكن أن
يتحقق الا بتأسيس حكومة عربية في البلاد . وهذا على حين اعتقد
الصهيونيون بأن الانتداب يسمح بكون دولة يهودية . وقال آخرون
ان شروط احترام الأماكن المقدسة تحول دون حصول هاتين السجيين ،
وازاء هذه المتناقضات اتهمت الادارة البريطانية في فلسطين سياسة
انهازية ، ف وقعت عدة حوادث عنيفة ، وشب الوطن القومي اليهودي ،
وبتأثير الضائقات التي حصلت في الثلاثينات السابقة للحرب العالمية الثانية
ارداد التوتر . وأخذت بريطانيا تراوح بين محاولة التوفيق بين العرب
واليهود ، أو تقسيم البلاد بين الطرفين . أو تكوين دولة يكون فيها اليهود
أقلية دائمة .

وأثار التاجه القانونيه من مشكله فلسطين عدة أسئلة وهي : أولا
هل كانت سوريا في الوعود البريطانية المعطاه للعرب تشتمل على فلسطين
أيضا ؟؟ هل كان يقصد بالوطن القومي لليهود أن تكون فلسطين كلها
وطنا قوما لهم ؟ هل كانت الحقوق المدنية والدينيه الموعوده للعرب
تشتمل على الحقوق السياسيه أيضا ؟ هل كان امتياز الهجرة اليهوديه الى
فلسطين يصب على قود بمصها اغنارات النظام السياسى في البلاد .
أو انه كان مرتبطا بالقيود التي تقتضها قابليه البلاد الاقتصادية على
استيعاب المهاجرين ؟ أما البريطانسون فصرحوا بأنهم لم يعنوا فلسطين
مطلقا في وعودهم المعطاه الى العرب . وانهم لم يعدوا اليهود قط بدوله
قومية في فلسطين . وان الحقوق المدنيه والدينيه تشتمل أيضا على الحقوق
السياسيه الضرورية لتأمينها .

والسؤال الخاص بالهجرة يضع المشكله أمام الأنظار وضعا عمليا ، اذ
أصرت السياسة البريطانيه المعمر عنها في الكتاب الأبيض ، المنشور سنة
١٩٣٩ . على ان الاعتبار السياسيه يجب أن تؤثر في الخطة الموصوعة

للهجرة . وان واجب المحافظة على النظام في البلاد لا يسمح باتخاذ سياسة تؤدي الى أن تتجاوز نسبة اليهود في البلاد ثلث عدد السكان الموحدين في البلاد ، وهي نسبة كانت موجودة تقريبا في ذلك الوقت . ثم ان هجرة شعب أجبي الى منطقة مسكونة تسبب حدوث اضطرابات سياسية ، عندما تتجاوز تلك الهجرة مقدارا معينا من الناس . ومع هذا يمكننا أن نشك فيما اذا كان الحديد القاطع لنسبة اليهود بثلث مجموع السكان متفقا عليه ، اذ المعروف ان كلا من اللجان البريطانية واليهودية قدرت العدد الممكن استيعابه تقديرا مخففا . ومثال ذلك أن بعض الصهيونيين يعتقد بأن مليونين آخرين من اليهود يمكن اسكانهم في فلسطين ، وهذا على الرغم من ان فلسطين وحدها لا يمكنها أن تحل مشكلة اضطهاد اليهود ، وان معظم اليهود يجب أن يعيشوا على الدوام خارج تلك البقعة الضيقة .

الحقيقة هي ان نظام حماية الأقليات الذي كان موضع الأمل في علاج هذه المشكلة دل على انه أقل نجحا من نظام لانداب . وهذا مع العلم بأن كلا من النظامين أعوزهما الكثير من الصراحة من جانب الدول الكبرى . يضاف الى ذلك ان نظام الأقليات كانت تنقصه لجنة فية مثل لجنة اللانداب الدائمة في عصبة الأمم . فكانت السجوة ان حصح مجلس العصبة الى التأكيد على السواحي السياسية لكل قصة من قضايا الأقليات ثم انه لا يمكن أن يقال مثلا ان الأقليات المسيحية في العراق استفادت بشيء من اليهود التي أضيفت الى شروط التحرر من لانداب ، كما لا يمكن أن يقال ان اليهود تمتعوا بالحماية التي كانت من حقهم في دول أوروبا الوسطى المرتبطة بمعاهدات الأقليات .

على ان نظام العصبة الموصوع لتسوية المنازعات السياسية نجح في مظهره الموصل ، حيث استخدمت طريقة تعيين لجنة تحقيقه في موضع الرابع ، وأخذ فيها رأى استشاري من محكمة العدل الدولية الدائمة . ثم استخرج الحكم النهائي من مجلس العصبة . وكانت السجوة ان وافقت تركيا آخر

الأمر على ضم هذه المنطقة الهامة الى العراق . ونظرت عصبة الأمم في مشاكل مشابهة ، ومنها فيما يخص الشرق الأوسط مشكلة امتياز النفط البريطاني في إيران . ومشكلة الحدود بين العراق وإيران ، ومطالبة تركيا بمنطقة الإسكندرونة ، وساعدت المؤتمرات التي انعقدت بمساعدة العصبة على تسوية مشكلتي المصايق التركية والامتيازات الأجنبية في مصر .

ومن ناحية الأمن الجماعي امتحنت عصبة الأمم امتحانا عسيرا بالهجوم الذي شنته إيطاليا على الحبشة الواقعة على حواشي الشرق الأوسط . ولا شك أن الفشل الذي ميس به نظام الأمن الجماعي ساعد كثيرا على انهيار العصبة . ونشوب الحرب العالمية الثانية . على أن نشاط العصبة بوجه عام خلال السنوات الخمس عشرة التي سبقت هذا الانحلال ساعد على شيء من الاستقرار في الشرق الأوسط ، كما ساعد على نمو القومية العربية . والتخفيف من علواء المنافسات الاستعمارية . فضلا عن تحسين شئون التجارة في الشرق الأوسط .

٤ - سياسة الأمم المتحدة

يؤم سياسة هيئة الأمم المتحدة على قاعدة تعميم مبادئ عصبة الأمم وتحقيقها عمليا . ذلك أن النصر الذي أحررته الأمم المتحدة في الحرب مهد لها السير في طريق عملي . كما أضافت الخبرة التي حصلت عليها الدول في عصبة الأمم الى مقدرتها الدبلوماسية على اختيار الأساليب الكفيلة بالجراح . على أن الانشقاق الحاصل بين روسيا والدول الغربية على أثر الانتصار المشترك كان شيئا أكيدا . كما أن انقلاب هذا الانشقاق الى حرب باردة بعد ١٩٤٧ أضر كثيرا بقدره المبطان التي تأسست بموجب ميثاق هيئة الأمم المتحدة ١٩٤٥ . وتنحصر غايات الميثاق فيما يلي : (١) المحافظة على السلم الدولي . وتوطيد دعائم الأمن عن طريق العمل الجماعي الذي يستهدف مع الأعداء والحيولة دون وقوعه . وحسم المنازعات الدولية بالطرق السلمية (المادة الأولى ١ - ٣٣ - ٥٤) . (٢) اعطاء الشعوب المستقلة حقوقا متساوية وحكما ذاتيا ، لتبادر الى ترويج التقدم السياسي

والاقتصادي ، والاجتماعي . والتعليمي ، لتلك الشعوب وتمتعها بالحكم الذاتي أو الاستقلال في النهاية (المادة الأولى ٢ - ٧٣ - ٨٥) . (٣) احترام حقوق الانسان والحريات الأساسية للجميع ، دون تفرق بين عنصر أو جنس أو لغة أو دين (المادة الأولى ٣ - ٥٥ - ٥٦) . (٤) تحقيق التعاون الدولي لرفع مستويات المعيشة ، وتهئة الأحوال المناسبة للتقدم الاقتصادي والاجتماعي ، وحل المشاكل الدولية الاقتصادية ، والاجتماعية ، والحضارية ، والعلمية (المادة الأولى ٣ - ٥٥ - ٦٥) . وبدأت الأمم المتحدة في تحقيق هذه الغايات جميعها بتدرج من مصلحته من النجاح في بلاد الشرق الأوسط .

وللمحافظة على السلم والأمن تدخلت الأمم المتحدة في الاشتباكات التي وقعت بين الدول العربية واسرائيل ، ونجحت في عقد الهدنة التي تدخل فيها وسيط الأمم المتحدة بين اسرائيل والدول العربية لوقف القتال ، لكنها لم تحقق السلم في فلسطين . وسعت هيئة الأمم المتحدة في حسم النزاع الناشب بين بريطانيا وايران بشأن تأميم شركة النفط الانكلو ايرانية . وبين بريطانيا ومصر بشأن معاهدة ١٩٣٦ ، وبين فرنسا ومحميات شمال أفريقيا ، ولكنها لم تحسم واحدة من هذه المشاكل ، مع ان محكمة العدل الدولية اعترف بأهلية ايران لتأميم الشركة . على أن تلزم ايران بدفع التعويضات المطلوبة ، كما أن مصر ألغت المعاهدة المخلف بشأنها .

ومن الواضح ان عزم هذه الشعوب على الاستقلال هو محور هذه الاختلافات ، فتمكنت كل من مصر وايران من تحرير نفسها من القيود المفروضة عليها ، وحظيت تونس ومراكش بسماع قضيتهما في سبيل الحكم الذاتي في هيئة الأمم المتحدة ، غير انه لم تتخذ من أجل ذلك أية خطوات عملية سوى مناشدة فرنسا الاستمرار في المفاوضات . على ان استقلال ليبيا تحقق عن طريق الجهود التي بذلتها هيئة الأمم المتحدة . بعد أن عززت الدول الكبرى عن الاتفاق على وضع منهج ما لتلك البلاد .

على ان الجهود التي بذلتها هيئة الأمم المتحدة لترويج احترام حقوق الانسان كانت أقل أعمالها نجاحا . فالمبادئ التي سجلها الميثاق باعلان حقوق الانسان اعلانا عاما صادق عليه مجلس الهيئة سنة ١٩٤٨ ، ولكن أريد بذلك تعظيم شأن الخطط الموصوعة لحماية الأقليات في ظل عصبة الأمم وتعميمها في العالم . غير ان معاهدات حماية الأقليات التي انعقدت أيام عصبة الأمم لم تؤد في الواقع الى حماية الأقليات . فالأرمن في تركيا عدوا اضطهادا كثيرة . كما ان احراج الأقليات وتقتلهم بصورة وحشية في ألمانيا الهلرية وروسيا الستالينية تكرر وقوعهما في الشرق الأوسط أيام وجود هيئة الأمم المتحدة . ذلك أن قيام اسرائيل أدى الى هرب ما يزيد على نصف مليون عربي من تلك الدولة والتجائهم الى البلاد العربية المجاورة . وبذلك فرصت مشكلة اللاجئين العرب على هيئة الأمم المتحدة . كما هاجر اليهود في أعداد كبيرة من تركيا والعراق وأفريقيا الشمالية بالاكراه أحيانا . وقد حاولت هيئة الأمم المتحدة أن تنمي منح حقوق الانسان عن طريق اعداد موثيق تنص على أساليب فعالة لوضع تلك الحقوق موضع التنفيذ . غير انه برغم الجهود الحثي المذول في لجنة حقوق الانسان لم ينجر الا القليل في هذا الشأن ، والحقيقة هي ان عدة دول بما فيها الولايات المتحدة تخشى أن تصطدم هذه الموثيق بتشريعاتها الداخلي .

ولي مساهمتها للمساعدة الفعالة سعت هيئة الأمم المتحدة والولايات المتحدة أن تدخلا أساليب جديدة في الزراعة ، واصلاح الأراضي ، ومساعدة التقدم الصناعي ، وتحسين الحالة الصحية ، ورفع مستويات المعيشة في بلاد الشرق الأوسط . وتعاونت في هذا الجهود المنظمات المختصة ، ولاسيما اليونيسكو . ومظمة التغذية والزراعة ، ومنظمة العمل الدولي ، ومنظمة الصحة العالمية . وأصابت بعض هذه الجهود نجاحا غير يسير ، لكن مشاكل المقاومة السياسية والاجتماعية والثقافية . فضلا عن التخريبات التي سببتها الحرب في كثير من الاصقاع ، جعلت التقدم بطيئا .

ويشجع ميثاق الأمم المتحدة تأسيس تكتلات اقليمية لأغراض سياسية

واقتصادية معا (المواد ٥٣ - ٥٤) . ثم هو يسمح بتكوين تكتلات للدفع
الجماعي . (المادة ٥٢) . والمعروف أن الدول الأمريكية ، ودول الشرق
الأقصى . وبعض الدول الأوروبية الغربية . ومجموعة الدول السوفياتية ،
ورابطة الشعوب البريطانية ، أسست مؤسسات اقليمية قبل نشوب الحرب
العالمية الثانية . ثم قامت هذه الدول كلها على تنمية هذه المؤسسات مع
وجود هيئة الأمم المتحدة ؛ لكن الشرق الأوسط لم يفكر في اقر حاب
للتنظيم الاقليمي قبل الحرب العالمية الثانية . مع ان عددا من المحاولات
انمقدت بين دول تلك المنطقة خلال المدة الواقعة بين الحربين ؛ كما ان
بريطانيا عقدت معاهدات تحالف مع العراق (١٩٣٠) . والمملكة العربية
السعودية (١٩٢٧) ، والأردن (١٩٢٨) . ومصر (١٩٣٦) . ولا يزال
بعض هذه المعاهدات نافذ المفعول سما . ثم تأسست جامعة الدول
لعربية سنة ١٩٤٥ . وأتمت معاهدة الضمان لجمعي سنة ١٩٥٠ .
وهي تقوم بعملها في ظل هيئة الأمم المتحدة . وهي أكثر منظمات الشرق
الأوسط شمولا منذ زوال الامبراطورية العثمانية .

ويطلب النظام العالمي تدبير شؤون الشرق الأوسط بحزم فائق
ومساعدة مسمرة من ناحية المؤسسات العالمية . على عرار ما هو مطلوب
في منطقتي البحر الكاريبي وبحر الصين الجنوبيه . وفي استطاعة المؤسسات
العالمية أن تمهد السبيل لتقوم الدول الوطنية والمنظمات القومية .
كجامعة الدول العربية . بتوسيع أفق الشؤون الاقتصادية . وبذلك يروج
استتاب الأمن السياسي والتقدم الاجتماعي . ويقل اجتذاب الخصومات
الامبريالية نحو هذه المنطقة الهامة التي بقيت ضعيفة حتى الآن . ثم ان
التنظيم الدولي الذي يؤمن حقوق الملاحة الحرة في الطرق المائية الموجودة
في الشرق الأوسط سوف يلطف من حشية الأمم من الاختناق الجاري ؛
ويعمل على استقرار العالم .

غير ان هذا الاسعراض لقوى القومية والامبريالية والدين
والسياسات التي كانت تدفع دول العالم بتأييد من الرأي العام ومؤسسات

عصبة الأمم المتحدة — لا يعطى أى دليل يشير الى المستقبل الذى ينتظر هذه البقعة من العالم . وأهم العوامل الحاضرة جميعها هو الحرب الباردة التى تطلب من الدول المخلفة أن تجنب نحو احدى الكتلتين . أى الكتلة السوفياتية التى تسيطر عليها روسيا . وكتلة شمال الاطلانتى التى تسيطر عليها الولايات المتحدة . والشرق الأوسط منطقة ذات أهمية رئيسية فى هذا الخصم . كما كانت فى النزاع السابق الذى احتدم بين دول المحور والأمم المتحدة .

وكانت ميول هذه المنطقة متجهة نحو الغرب . لأن سياسة ترومان الى أعلنتها الولايات المتحدة فى مارس ١٩٤٧ ، شملت المساعدة العسكرية والاقتصادية لليونان وتركيا وإيران . وبصت فى الحقيقة على أن سياسة الولايات المتحدة ترمى الى تأييد الشعوب الحرة التى تقاوم الاخصاع بالاكراه أو بالضغط الخارجى . والمعروف أن الوضع الجغرافى الايرانى عرضة للطوارئ ، على الرغم من المساعدة الأمريكية . لأن إيران تشترك مع الاتحاد السوفياتى فى الحدود . كما أن حرب توده لموجود فيها حرب قوى يصطع بالصيغة الشيوعية . ثم أن إيران حابته قلاقل محلية خطيرة . وفى خلافها مريدا بالنظر لايقف العمل فى شركة النفط الانحلو ايرانية . وهى خلافها مع بريطانيا بشأن تعويض هذه الشركة غير محسوم . وكذلك وضع البلاد العربية غير معلوم . على انه من المصد للغرب أن العراق والمملكة العربية السعودية وبلادا عربية أخرى تستفيد من الأرباح التى تدفعها لها شركات النفط الغربية . وحصلت ليبيا على استقلالها عن طريق هيئة الأمم المتحدة . وانعمت معظم البلاد العربية من مساعدة الغرب القسمة . وتوظيف لأموال الغربية . ومن تعميم أنبائها فى العرب . ثم أن مبدأ الكرامة والمساواة بين البشر . واحترام الدين . مما يمار به العالم الاسلامى . من شأنه أن يجذب الشرق الأوسط الى الغرب . لا الى الدول السوفياتية . ومما يلفت النظر أن يذكر بأن أهم مناقشة بحثت فيها مبادئ المعسكرين الديموقراطى والشيوعى جرت فى جلسة من جلسات اليونسكو ، وكان يدافع فيها عن الجانب الديموقراطى شارل مالك من لبنان . وعن الجانب

الشيوعي رينكار من يوغوسلافيا ، وكلا البلدين مضم الى الغرب في الوقت الحاضر .

غير ان استياء البلاد العربية من تأييد اسرائيل في هيئة الأمم المتحدة ، وخاصة من قبل الولايات المتحدة الأمريكية ، أصحى مشكلة من المشاكل الدولية . ذلك أن استقلال تلك الدولة على غير رغبات أكثرية سكان فلسطين الأصليين ، ومخالفة ذلك لما جاء في شروط ميثاق الأمم المتحدة التي ضمنت حقوق الشعوب ، أساء الى الشعوب العربية أساءه غير معرفة النتائج والمستقبل . ولم تسترجع الدول العربية ثقتها بعد ما أصابها من الاندحار في حرب اسرائيل ، ثم انها تخشى أن تكون في اسرائيل اتجاهات توسعية نتيجة ازدياد السكان ، ولا يزال يساورها القسر بسبب تشتت شمل اللاجئين من فلسطين ، مع العلم بأنها لا تستطيع أن تعمل الا قليلا على تحسين الحالة . والشرق الأوسط مشغول أيضا من ضخامة حصة اسرائيل من المساعدة الفنية التي قدمتها الولايات المتحدة وهيئة الأمم المتحدة . بالقياس الى الحصة التي أصابت الدول العربية . برغم كثرة عدد سكانها . يضاف الى ذلك ان سير الخلاف الناشب بين بريطانيا ومصر وإيران ، وخلاف فرنسا مع تونس ومراكش ، يعسرهما العرب دليلا على دوام الامبريالية التي قاوموها ردحا طويلا من الزمن . ثم ان تردد الولايات المتحدة والدول الغربية في تأييد قضايا الاستقلال ، في هيئة الأمم المتحدة ، يقارن بمقارنه سيئه بموقف السوفيات في هذا الشأن . وأخيرا فان وجود الفلاحين العرب بمستوى معيشي وثقافي منخفض يخلق حالة اجتماعيه من النوع الذي تستفيد منه الدعايه الشيوعية بوجه عام .

وتدل المعارضة الشديدة التي تبذلها مصر وسائر الدول العربية ضد مشروع قيادة الشرق الأوسط التي اقترحتة الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى وفرنسا وتركيا في ١٩٥١ ، للدفاع ضد الاعتداء السوفياتي ، على ان مجموعة الدول العربية غير مستعدة للاجياز الى جانب الغرب . والظاهر ان هذا الموقف متأثر بما تذكره الدول العربية من

مركز تمويل الشرق الأوسط الذي سيطرت بريطانيا بواسطته على العرب سيطرة اقتصادية أثناء الحرب . ويدعو كذلك ان مجموعة الدول العربية تتوجس خيفة من ان يؤدي استخدام القواعد الجوية البريطانية التي تؤسس في المنطقة كلها . والتي يمكن أن تستخدمها أمريكا أيضا ، الى التدخل في الشؤون المحلية . وانزعجت مصر على الأخص من تقصير الدول الأربع في عدم استشارتها قبل التقدم بمشروع قيادة الشرق الأوسط . ومن علاقة المشروع بالاقتراح البريطاني الذي لا يرضى مصر بشأن السويس والسودان وسائر شؤون معاهدة ١٩٣٦ . ولذا رفضت مصر لمشروع رفضا قاطعا . وفسخت المعاهدة . ثم بادرت الدول العربية بقيادة مصر الى تعزيز منظمة الضمان الجماعي ، وربما قصد بذلك اتخاذ تدابير وقائية ضد اسرائيل ، لا ضد الاتحاد السوفياتي .

ولا شك أن الدول العربية ستحاول ، هي وفنلاندا والسويد والهند وبورما والهند الصينية ، أن تتحاشى توريط نفسها مع أحد الحائنين في الحرب الباردة . كما انها ستحاول أيضا تقوية حضارتها ، وقابلياتها في الدفاع ، واستقلالها السياسي في نطاق جامعة الدول العربية لدول الشرق الأوسط . وهيئة الأمم المتحدة لسائر الدول المذكورة هنا . غير أن نجاح دول الشرق الأوسط في مثل هذه الحيادية يبقى شيئا مشكلا بسبب ما للشرق الأوسط من أهميات استراتيجية واقتصادية عظيمة .

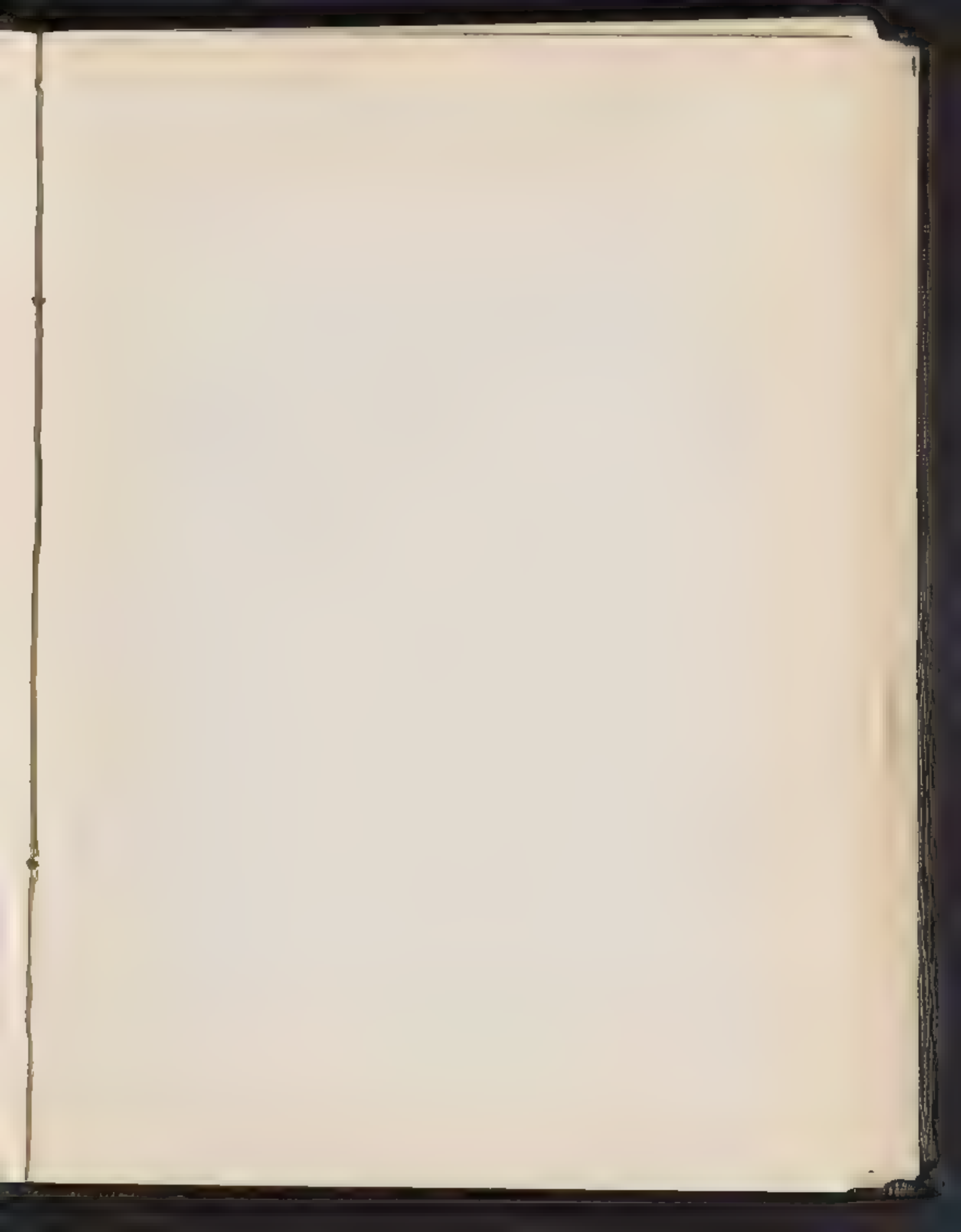
والذي يبدو ان مشروع الدفاع عن الشرق الأوسط ان لم يكن المشرفون عليه انصرفوا كلبه عن التفكير فيه . فابهم أطراحوه . وأعلنوا سنة ١٩٥٢ عن منظمه الدفاع عن الشرق الأوسط التي تنظم الدول الأربع صاحبة المشروع الذي رفضه مصر . مضافا اليه استراليا ونيوزيلاندا وجنوب أفريقيا . على أن يكون مقر قيادة الشرق الأوسط جزيرة قبرص ، وهي إحدى الممتلكات البريطانية منذ سنة ١٨٧٨ .

جعفر خياط

تطبيق مشاريع التنسي
في الشرق الأوسط

تأليف
فيلكس بوشنسكي ووليم دياموند

ترجمة
جعفر خياط



كلمة المحرر

الحوادث التي وقعت خلال السنين الثلاث التي مضت على كتابة هذا المقال لم تؤثر في الأسس التي عالج بها المؤلفان هذا الموضوع . غير ان عدة مشاريع طرأ عليها بعض التعديلات ، والعرض من المنحوصات الموحزه التاليه أن يصبح المقال شاملا لأحدث التطورات التعميرية في هذا المجال

فهو حوض النيل تجرى دراسات فيما يسمى بخزان السد العالي الذي سوف يتكون بإنشاء سد يقع على مسافة أميال جنوبى خزان سد أسوان العالى . وسوف تكون لهذا الخزان سعة هائلة للحرر . وهي ١٣٣ مليون قدم . بحسب ما تقوله بعض المصادر . كما انه سوف يضبط مياه الفيضان . وينظم رى المزروعات ، فضلا عن حرر القوة المائية . وسيقوم هذا السد مقام الخرابا الأخرى التي سبق ان وضعت تصاميمها . لكنه سوف لا يؤدي الى الاستغناء عن الحاجة لحرر مياه تحويل السد التي تجري الآن أعين تمهيدية أخرى من أحلها . ويقدم الآن لعمل في سد أوين تقدما مطردا .

وفي لبنان استؤنف العمل في مشروع الغاب لنصرف والرى . وفي مشروع استثمار حوض اللطاني . وتوصى بعض المطبوعات التي نشرت حديثا باستثمار المياه وجميع موارد القوة المائية الموجودة في لبنان (١) على سق مترابط الحلقات والمنافع أما في وادي الأردن فمشاريع العمر والاستثمار تجري الآن بالقرب من حدود الهدنة بين الأردن واسرائيل . والمشاريع التي أعدها للحكومة الأردنية سير مردخ ماكدونالد (٢) وهيئات

1 Maurice Gemaye La Planification des Eaux Libanaises. Beyrouth, 1951.

2 Sir Murdoch MacDonald & Partners. Report on the Proposed Extension of Irrigation in the Jordan Valley. (London, 1951)

النقطة الرابعة الأمريكية منية في العلف على الاستفادة من نهر يرموك قبل اتصانه بالأردن. وفيما عدا الأعمال الانشائية التي تجرى في مشروع وادي الثرثار بالعراق ، يتضمن التقدم الحاصل في شؤون التعمير احراء بحوث وأعمال أخرى تخص بعدد مشاريع الري، وهذه هي التي سيقوم بتمويلها مجلس التعمير العراقي .

ومنذ عدة سنوات قامت الحكومة الأمريكية على مشروع وادي التني . واسمه الرسمي (Tennessee Valley Authority). وذلك لضبط واستغلال مياه الحوض النهري المعروف باسم هذا الوادي التاسع بأواسط الولايات المتحدة الأمريكية . للزراعة والري والصرف . وحفظ التربة من التعرية . وتنظيم الحريج . وتوليد القوة الكهربائية . وصرفت حكومة الولايات المتحدة ، ولا تزال تصرف . على هذا المشروع المرامي الأطراف ملايين الدولارات ، وأوضحت نتائج هذه الجهود التعميرية واضحة لزائر هذه المنطقة . واستعان المؤلفان باسم هذا المشروع الحيوي وفكرته — على قول المترجم في حاشية اقتبسناها هنا — للبحث في مختلف مشاريع التعمير واستثمار المياه في الشرق الأوسط .

منطقة الشرق الأوسط زراعية قبل كل شيء . فان معظم سكانها يعيشون من الزراعة . والأعمال الزراعية هي المهن الرئيسية وأهم موارد الدخل . وفيما عدا النفط في إيران وبلاد العرب ، والفحم واللجنات ومعدن الكروم في تركيا ، وأملاح الفوسفات في مصر . والرابه (السمت) في جميع المنطقة ، ليس في أراضي الشرق الأوسط ترسبات معدنية معروفة ذات أهمية . وبينما تكون هذه المعادن وغيرها أساسا لنشوء صناعات محلية ، فليس من المحتمل أن يشهد الشرق الأوسط يوما ما تقدما دوليا في ميدان الصناعة . عدا الصاعات التي تحتص باستخراج المتوجات المختلفة من السلع الزراعيه ، أى المواد الزراعيه والمسوجات معا . ومما لا ريب فيه أن نمو هذه الصناعات المحليه متوقف على رفع مستوى المعيشة في الشرق الأوسط . على أن يتمشى هذا النمو مع تحسين في شؤون الرراعه والتوسع في الاتاح الزراعى . والواقع ان الضغط المزايد على الأرض ، بسبب النمو السريع في عدد النفوس في منطقة لا ينعدى فيها النظام الرراعى انتاج المحاصيل لسد مسويات الكفاف . يجعل للرراعه أهمية في المقام الأول . ويجعل الحاجة لقدمها شئنا مستعجلا .

على أن هناك عوامل شتى تحول دون تحسين الزراعة وتوسيعها في الشرق الأوسط . ومن هذه عوامل أساسيه في التربه والجو وبعض هذه الصعوبات لا ينبغى أن يسمعى على جهود الشرقيين غير أن أشد هذه الصعوبات وأكثرها استعصاء هو انعدام وجود الماء . فقبما عدا أجراء معينة من تركيا ومرتفعات بلاد الحبشة وجنوب السودان وسواحل بحر قزوين في إيران ، يعد الماء العامل الرئيسى الذى يقيد الامكانيات الانسانية في جميع أنحاء الشرق الأوسط . فاذا بدا الماء وافرا كما هي الحال في الأراضي التي تخرقها الأنهر الكبيره . فليس هناك فضلة كبيره من هذه المياه تزيد عن الحاجة الحالية . بحيث تكون كافية لسد حاجة

الريادات السكانية التي سوف يتأكد حصولها في الصف التالي من هذا القرن العشرين . (١) وفي الكتاب الذي عنوانه علوم الشرق الأوسط صوّر المؤلف ورذنجتون هذه الحال تصويراً واضحاً في قوله انه يوجد في الشرق الأوسط موردان جوفيان . لهما أهمية عظيمة هما الماء والنظ . ولبناء المرتبة الأولى في الأهمية . (٢) وبرهن ورذنجتون ببراءة على أهمية الماء للفرد . في مؤتمر يضم الخبراء الزراعيين في المنطقة . بالقول ان حوادث القل التي تقع في الشرق الأوسط بسبب الماء تكاد تبلغ في عددها حوادث القل الواقعة بسبب المرأة ، وهو قول فيه شيء كثير من الصحة . (٣) وعلى هذا يصحح أن يقال ان الماء وليس النظ هو الذهب السائل في الشرق الأوسط .

ولا غرو فالشرق الأوسط منطقة جافة توجد فيها بواد شاسعة يقل فيها المطر سنوياً حتى يصل الصفر ، وهي تتصف بوجه عام بموسم جاف صويل . وموسم قصير يسقط فيه المطر بكمية غير كافية للزراعة المحدية . ولدلت فان . فقط من أراضي الشرق الأوسط بأجمعه تخضع للزراعة (٤) على حين ينتشر السكان في المنطقة كلها انشماراً مشتتاً . لكنهم يحشدون حول الآبار وفي الوديان . ولقرب من الأنهر التي تسنزف المياه الجوفية . أو تنصرف اليها مياه المرتفعات التي بعدها الأمطار . وهي مرتفعات وقعة في حواشي منطقة الشرق الأوسط . وينسج عن ذلك ان أجزاء من الشرق الأوسط تعاني اردحاما خطيراً في السكن . على حين تكون مسافات شاسعة من الأراضي الخصبة — ومن البادية — غير مأهولة والحقيقة

(١) ورذنجتون : علوم الشرق الأوسط ، ص ٢٨ . (لندن ، ١٩٤٦) .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٨ .

(٣) مركز تموين الشرق الأوسط ، التقرير الزراعي رقم (٦) — محاضر جلسات المؤتمر المعقد حول التقدم الزراعي في الشرق الأوسط في القاهرة بتاريخ ٧-١٠ فبراير / ١٩٤٤ . (القاهرة ١٩٤٤) . ص ١٩٠ .

(٤) منظمه التغذية والزراعة (F.A.O) تقرير الدورة الرابعة للمؤتمر المعقدة في واشنطن في ١٥-٢٩ يونية ١٩٤٨ ، واشنطن ، ١٩٤٩ .

هي انه توجد الآن في الشرق الأوسط أراض ذات فائدة أكثر مما يمكن استغلاله والاستفادة منه ، أما لعدم وجود الأيدي العاملة أو لقلة المياه التي يمكن أن تتيسر ، وذلك بعد استخدام مياه جميع الأنهر وموارد المياه الجوفية المعروفة استخداما تاما .

وليست مشكلة المياه مشكله جديدة في الشرق الأوسط ، فتاريخ مصر هو قصة النيل نفسه . والمدونات التاريخيه والأثرية لشرق الأوسط كله تشير الى مدى استغلال موارد الماء والسيطرة عليها والاستفادة منها . ويرى عدد غير يسير من الخبراء ان هذه الجهود القديمة وفرت للشرق الأوسط الوسائل لاعاشه عدد أكبر من عدد السكان الذين يوجدون فيه الآن . مع عدم حصول تبدل هام معروف في الجو أو قلة في كمية الأمطار الهاطله . كما ان الرأي يجمع كذلك على ان سوء استعمال الانسان للماء والأرض بقطع أشجار الغابات . وعدم تنظيم شؤون الرعي ، وبالسماح بحصول التعرية . وسائر اشكال الهدم والانذار . كل ذلك عامل فعّال في تحويل كثير من الأصفاع الى بؤاد . وفي تضاؤل المساحات المزروعة . وكانت هذه التطورات تعتر خلال القرون الماضية جزءا من أسلوب العيش في الشرق الأوسط . على ان التقدم الفني في جهات العالم الأخرى خلال السنوات الأخيرة . وازدياد الشعور القومي في الشرق الأوسط بالذات . أدبا الى وحول انهاء على تحسين مستويات المعيشة في هذه المنطقة . وبدل الجهود البشرية للسطرة على الماء ، واجتناب سوء الاستعمال الذي مارسه الانسان ممارسة أدب الى تقليل انتاج الشرق الأوسط . واختص هذا الموضوع بدراسة غير قليلة ، غير انه لا تزال هناك فجوات واسعة في المعلومات الفنية الضرورية للاستفادة التامة من مياه الشرق الأوسط (١) .

ويوضح ضرورة استكمال هذه الدراسات ان موارد المياه في الشرق

(١) راجع مكتبه ورددنجتون في المرجع المشار اليه سابقا .

الأوسط شحيحة بالقياس الى مساحة البلاد ، وأن من هذه الموارد الشحيحة نسبياً يجب أن تستمد حاجات ما يقرب من تسعين مليوناً من الناس ، وهي حاجات مختلفة متنوعة . ومن المعلوم أن استهلاك البشر والحيوانات لا يتطلب غير كميات قليلة من الماء ، ولكنه يجب أن تسمح راحة هذا الاستهلاك على كل شيء آخر . ثم إن استعمال الماء لرى لمزروعات يأتي ثانياً في الأهمية ، لأن معيشة ٦٠ الى ٨٥ بالمائة من السكان تأتي من الأرض (١) . ويجب أن يحفظ الماء لمعظم الأغراض الرزعة في مستوى عال . ثم يطلق بحسب الحاجة ، على حين يتطلب استعماله لسويد القوة انحداراً سريعاً مطرداً . وعلى هذا فإن ما تتطلبه الزراعة لا يتفق على الدوام مع ما يتطلبه توليد القوة . ومتى وجد هذا الاختلاف يكون أمر توليد القوة شيئاً ثانوياً في أهميته ، بالقياس الى حاجة الشرق الأوسط الى الماء (٢) . ومن حسن الحظ أن المنطقة تتوفر فيها كميات وافرة من النفط ومقادير غير يسيرة من ترسبات الفحم ، وهي رخيصة الثمن في الأحوال المؤاتية . والواجب الأساسي الرابع للماء - أي النقل - لا يتناسب مع الأحوال في داخلية الشرق الأوسط الا قليلاً . حيث الملاحة النهرية فما عدا نهر النيل ، والقسم الأسفل من دجلة والفرات . شيء عديم الأهمية . وليس من المأمول أن يؤدي أي تطور معقول في الأنهر الأخرى الى جعل الملاحة على مقياس واسع شيئاً عملياً . ولذا فإن مشكلة تقدير حاجات الماء ، للاستهلاك البشري والزراعة ، وتوليد القوة ، بالقياس الى الكميات المحدودة في الأنهر والآبار والأمطار الساقطة ، هي مشكلة أساسية بالنسبة لتعمير الشرق (١) ذلك أن المياه التي تحرق للرى يمكن أن تصبح كذلك مصدراً للأسماك ، وهذا استعمال للماء كثيراً ما يهمل شأنه ، والواقع أن صناعة الأسماك يمكن أن تكون ذات فائدة كبيرة لسكان الشرق الأوسط الذين لا يستهلكون كثيراً من المواد الزلالية .

(٢) انظر ا. ح. موري : بعض المشاكل الاقتصادية المحلية في الشرق الأوسط ، في مجلة الشؤون الدولية ، ص ٢٣٢ (١٩٤٧) ص ١٢ - « يجب أن يؤكد أن طلبات الماء المرحجة في المطلق هي الطبقات المتفلسة للأفسراض البشرية ، ولتنمية المواد الغذائية ؛ وبذا يجب أن يبقى استعمال الماء للقوة شيئاً يأتي في الدرجة الثالثة » .

الأوسط وتقدمه . ذلك أن رفاهية السكان الحاليين والحاجات المستقبلية تجعل الاستفادة من المياه المتيسرة في أقصى ما يمكن من الاقتصاد والتدبير شيئا أساسيا (١) .

استأثرت بخيال الناس في العقدين الماضيين من السوات فكرة استثمار الأنهر بأجمعها ، فادى ذلك الى عقد آمال كبيرة على ضبط الأنهر في الشرق الأوسط ، لزيادة الانتاج والقوة الانتاجية . وتخفيف ضغط ازدياد السكان ، باستيعاب عدد أكبر منهم . مع تحسين الأحوال الاقتصادية بوجه عام . ولم يطلق اسم سلطة وادى التنسي على مشروع استثماري خاص في الولايات المتحدة فحسب ، بل أصبح رمزا لما يستطاع النهوض به لرفع مستوى المعيشة في الشرق الأوسط كله . تطويع الماء واستعماله . والواقع أن مشروع وادى التنسي شرارة الآمال الجديدة ، لاستثمار الموارد الطبيعية واستغلالها في وادى نهرى بأجمعه . ولاعتبار أى نهر من الأنهار لا مقدارا من الماء يجب أن ينحصر في مكانه . بل جهازا عظيما لقوه كامنة نافعة يمكن تسخيرها لمجموعة كبيرة من الفوائد البشرية . (٢) ثم ان الحاجة للماء والفكرة المطوية على مشروع وادى التنسي نشأ عليهما حافز جديد لدراسة أنهر الشرق الأوسط دراسة شاملة . ولذا يجرى الآن استقصاء عن امكانيات استثمار الأنهار وأحواضها ، للسيطرة على الفيضانات ، وتوسيع المساحة المروعة بالرى ، وتوليد القوة الكهربائية من مساقط المياه . ولا تزال دراسة استغلال الأرض في أول أدوارها . وهي دراسة يجب أن تسير جنبا الى جنب مع بحوث ضبط المياه والسيطره عليها لاستثمار الكهرباء ، لكن بداية ما حصلت فعلا .

ومما تجدر الاشارة اليه ، فضلا عن المشاريع التى تمت والننى

(١) راجع تقرير منظمة التغذية والزراعة المشار اليه هنا سابقا ، ص ١٥ .

(٢) راجع كتاب الغذاء والمجاعة ، للكانه ورد سيرد في الفصل الذى عنوانه

بحدى التجربة . (بيوبورك ، ١٩٤٠) . وأصحى مشروع وادى التنسي نموذجاً للشرق الأوسط عند ما تعين المستر جوردن كلاب رئيس مجلس مشروع وادى التنسي رئيسا لاحدى بعثات هيئة الأمم المتحدة في الشرق الأوسط .

سوف تستمر دراستها . أن هناك عقبات خطيرة تقف في طريق استثمار المياه بصورة شاملة ، بالإضافة الى العقبات الناشئة عن الأحوال الطبيعية . ومهما يكن من استطاعه الفن والعلم في تذليل العقبات بمرور الوقت بعد درسها دراسة مناسبة . فان يبدو ان القيود التي يفرضها الانسان على نفسه بالتعاون مع الأحوال الاقتصادية القائمة تزداد رسوخا في المنطقة بسبب ذلك التعاون . ولا شك أن أشد هذه القيود وضوحا هي الحدود الوطنية التي تحجز بلاد الشرق الأوسط بعضها عن بعض ، فهناك عدد قليل من التقسيمات الطبيعية - الجيولوجية السياسية في الشرق الأوسط . والأنهر الرئيسية كلها يعود أمرها لبلدين أو أكثر من البلاد . وعلى هذا فان استثمار حوض نهرى بكامله تقف في طريقه العقبات الناشئة عن الخصومات الوطنية ^(١) . وأكثر تأثيرا من هذه العقبة ما هنالك من النظام الاجتماعى المتأخر لقيامه على قواعد ليست من مبادئ علم الاقتصاد ، مثل نظام تملك الأرض الذي يخلد بقاء طبقة الفلاحين الفقيرة المثقلة بالديون دون أن تيسر لها الوسائل أو الحوافز لتحسين ملكياتها الصغيرة المجزأة المهتدة ، ودون أن يكون المالك الكبير المتغيب ، وهو الذى يهيمن على معظم أراضي الشرق الأوسط معنيا بالاجراءات والتدابير التي تؤدي الى تحسين حالة مستأجرى أراضيهم ، وهؤلاء يكونون أكثرية سكان الشرق الأوسط . يضاف الى ذلك أن ليست هناك في وجود الأحوال الحاضرة وسائل لتكوين رأس المال المحلى الضرورى لسد تكاليف المشاريع الباهظة ، كما لا تيسر بوجه عام رهوس الأموال الأجنبية بالطرق الاعتيادية .

ثم ان عدم وجود المعلومات الفنية والمهارة عقبه أساسية في ذلك

(١) أمترفت بهذه الحقيقة منظمة التغذية والزراعة في مؤتمرها الرابع ، اد طلبت الى حكومات الشرق الأوسط أن تهتم لبعض الأنهار والنهيرات للوصول الى اتفاقيات دائمة تحسن بموارد المياه ، وطلبت الى هذه الحكومات أن تتعاون في استثمار موارد المياه المشتركة واستغلالها . المرجع السابق ، ص ١٨ .

الشان (١) . والخلاصة ان العقبات الناشئة عن هذه الحقائق ، لا المصاعب الطبيعية ، هي التي تعرقل استثمار المياه في الشرق الأوسط .

ولا يحيط البحث التالي احاطة شاملة بإمكانات استثمار المياه في الشرق الأوسط . لأنه معنىً فقط بالمشاريع التي تشبه مشاريع وادي التمسى ، ويمكن أن تؤدي الى تهيئة الفرص للاتساح الزراعى على مقياس واسع . كما انه لا يمكن أن يكون هذا البحث كاملاً في هذا المجال الضيق . لأن امكانيات أخرى يمكن أن توجد بزيادة المعلومات عن موارد مياه الشرق الأوسط . وباردياد الدراسة العلمية عن طبائع أنهاره وأحوالها . وعلى هذا فالبحث التالي وصف موجز لعدد من المشاريع الكبيرة ذات الأعراض المعقدة ، لاستثمار المياه التي تكون في الوقت الحاضر موضوع البحث الجدى في الشرق الأوسط . والتي سبق أن بدىء ببعضها من قبل .

حوض النيل

يشمل حوض النيل مساحة تزيد على مليون ميل مربع . ويحوى على أجواء تفوق في تنوعها أجواء أى نهر آخر من أنهار العالم (٢) ، فهو يحضّر أوغندا وقسمًا من تنجانيقا والكونغو واللحمكة . وكنيا والحشة ، ومعظم السودان وأراضى مصر المزروعة . لكن درجة اعتماد هذه البلاد

(١) راجع تفصيل هذه المشاكل العامة في كتاب السدة دورين ويرنر وعنوانه الأرض والفقر في الشرق الأوسط (لندن ١٩٤٨) ، وكتاب تطور الزراعة في الشرق الأوسط مؤلفه ب. ا. كين (لندن ١٩٤٦) ، ونشرة منظمة المعونة والزراعة المشار اليها من قبل ، ص ١٥-٢٩ . وهناك ناحية من نواحي تملك الأرض تلمب الطر . وهي النظام المعد لحقوق الماء الذى سطرته الشرق الأوسط . راجع المرجعين السابقين وما كنه ر. ف. حاردين في كتابه الصبغ المحلى لموارد الماء في الشرق الأوسط ، مع اشارته خاصه الى الناحية القانونية ، « نشرة مركز نمون الشرق الأوسط المشار اليها سابقا ، ص ١٨١-١٩٠ .

(٢) للحصول على وصف اوفى لحوض النيل راجع ما كتبه دجلاس كراى بعنوان الحفرافا والسياسة في وادي النيل ، وهو منشور في مجلة الشرق الأوسط ، السنة الثالثة (١٩٤٦) ص ٢٦٠-٢٧٠ .

على النيل تختلف باختلاف مواقعها فتغزر الأمطار الهاطلة في مرتفعات
الحشة حول بحيرة تانا . ويبلغ معدلها زهاء ستين بوصة في السنة .
وتسقط في البلاد المحيطة بمنطقة البحيرات التابعة لمجاري النيل الاستوائية
كميات مماثلة من الأمطار ، وهذه تتوزع في شيء من التساوي على طول
أيام السنة . وفي السودان تهطل الأمطار هطولاً متفاوتاً ، فتناقص بالتدريج
في الاتجاه الشمالي حتى يبلغ في الخرطوم — أي درجة العرض ١٥ — حوالى
الثمانين بوصة في السنة . وفيما ما بين عطبرة والدلتا المصرية شمالاً ،
ينعدم هطول المطر تقريباً ، ويعتمد سكان هذه المنطقة الذين يبلغ عددهم
ما يقرب من عشرين مليوناً — أو ثلثى سكان حوض النيل بأجمعه — على
مياه النهر لسد حاجاتهم طول السنة . وعلى هذا فمن الطبيعي أن تعطى
مصالح مصر مقداراً من الأرجحية في القرارات التي تتخذ بشأن تنظيم
جريان النهر .

ومن الخطأ الشائع أن الزراعة المصرية لا تزال تتبع الأساليب
القديمة البائدة ، إذ الحقيقة أن ثورة رراعية وقعت في القرن الماضي .
فأثرت في انتقاء المحاصيل للزراع . كما أثرت في أساليب الري والعناية به .
ذلك أن القطر حل محل الحبوب لدرجة ما ، ليصح أعظم المحاصيل
قيمة ، واتسمت زراعة الأرز في المساحة والأهمية الاقتصادية ، وهناك أمل
في إرديا د هام في اتساج الخضروات والفواكه . والأهم من ذلك حصول
الانتقال من رى الحياض الى الري المستديم . لأن طريقة الحياض
التقليدية ، التي لم تكن تسمح الا بزراعة محصول واحد في السنة .
ولم تستطع تهيئة الوسائل الكافية لمعيشة السكان المتزايدين . استعاض
عنها بنظام الري المستديم وبهذا النظام بطل انغمار الحقول بالماء ، وصار
من الممكن امدادها به طوال أيام السنة . ورراعة عدة محاصيل خلال
سنة واحدة . ولا يصل الماء الى الحقول يجب أن يضخ من النهر .
ولا بد من رفع مستوى الرعة بواسطة القناطر . وفيما عدا هذه
القناطر الكثيره التي أنشئت على النيل وفي الدلتا ، توجد الآن خزانات
ثلاثة لخزن الماء خلال موسم الفيضان السنوى ، وهى خزان أسوان

الذى يطلق عليه أحيانا عنق مصر ، والذي تبلغ سعته خمسة بلايين من الأمتار المكعبة ، وخزانا جبل الأولياء وستار اللذان برغم بنائهما داخل حدود السودان يخضعان لإدارة مصرية . ويخزن أولهما بلونين ونصف من الأمتار المكعبة ، وثانيهما ستة أعشار البليون .

وهذه الخزانات . فضلا عن نظام الري المسديم الذى تم بسببها . جعلت من الممكن الحصول على قابلية هائلة فى الاقتاح الزراعى المصرى . وفى السكان كذلك . لكن هذه الخزانات لم تستطع دفع خطر الفيضان المفرط . كما أنها لا تستعمل مياه النيل استعمالا كلياً . ولتسخير النيل بوجه أتم بدأت دراسات لإنشاء مرافق اضافيه للخرن ، ووضعت الخطة لذلك منذ مدة من الزمن . وسيكون الغرض من الاضطلاع ببعض الأعمال الانشائية الجديدة . مثل خزان السد العالى ، ان يرداد الاستيعاب الحالى للتخزين السنوى الذى يقوم به خزان أسوان فى مصر ، وخزانا جبل الأولياء وستار فى السودان . وإذا لم تتم هذه الأعمال الانشائية . فستحتم على الخزانات القائمة فى البحيرات ، حول مسامع النيل الأبيض والنيل الأزرق أن تحفظ بالماء الرائد خلال سنوات الفيضان العالى . لتستعمل خلال سنوات الفيضان المنخفض . وبذا نطمس الى الخزن المائى الطويل المدى . ولما كان تعاقب الفيضانات العالية والمنخفضة لا يمكن الكهن به . اتخذ القرن أساسا للحساب فسمى خزن المياه على هذه القاعدة باسم الخزن « القرنى » . وأخيرا صممت قناة تحويل السد . لاجتناب التبدير الحالى الذى يضيع فيه مقدار (١٠٥٠) من مياه النيل الأبيض صياغا فى منفعات السد

وينألف فى الوقت الحاضر معدل النيل المائى المتيسر بين بدايه شهر فبراير ونهايه شهر يوليه . بموجب قياسه فى أسوان . ما يزيد على ١٥ بليون متر مكعب من جرى النهر الاعيادى . يضاف الى هذه الكمية حوالى ثمانية بلايين متر مكعب من الماء المخزن فى الخزانات الثلاثة الموجودة ، غير أن مجموع هذا المعدل يقصر عن سد حاجة مصر والسودان

المنتظرة بين شهرى فبراير ويوليه ، وهى التى تبلغ زهاء ثلاثين بليون متر مكعب . ومن المؤمل أن تسد الخطة الموضوعه للسيل هذه الحاجة الاضافية . بأن يضاف الى مجموع الثلاثة والعشرين بليون متر مكعب الحالية حوالى ثلاثة بلايين متر مكعب من خزان السد العالى ، وحوالى خمسة بلايين متر مكعب من بحيرة البرت أو بحيرة فكتوريا ، وحوالى بليونين متر مكعب من بحيرة تانا . ومن المقدر ان خزن الماء فى البحيرات . وفى خزان السد العالى . سيحصل من الممكن زراعة ثلاثة ملايين فدان اضافيه فى مصر والسودان . يضاف الى ذلك ان القوة التى سوف تولد بالقرب من هذه الخزانات ، وفى أسوان كذلك ، سوف تزود البلاد بمنبع من منابع التقدم الصناعى .

والبلاد الرئيسيه التى سوف تفيده من هذا المشروع هى مصر والسودان ، وسوف يستطيع كل منهما زيادة انتاجهما الزراعى زياده غير يسيرة . أما الحبشة وكينيا وأوغندا والكونغو البلجيكية . فيمكنها أن تصد من انشاء محطات لتوليد القوة الكهربائية المائية على خزانات البحيرات (١) غير ان صيغه المشروع الدوليه تتطلب عهد معاهدات قبل القيام بانشاء هذه المحطات . وقد حصل شئ من التقدم فى هذا الاتجاه ، بالمفاوضات التى جرت بين بريطانيا ومصر والسودان . وهذه تشمل على اتفاقيات حول المشاكل الغنيه والمشاركة المالىه . ففى سنة ١٩٤٩ جرى التوقيع على اتفقيه رسميه بين البلاد التى يعنىها الأمر بشأن سد شلالات أوين (أوغندا) . ويجب أن يتم الاتفاق مع الحكومتين البلجيكية والحبشيه حول المشاريع التى تمس المناطق التى تخصهما .

وسوف ينشأ حزان السد العالى فى مكان ما بين ملقى نهر عطبره ، وهو آخر روافد النيل ، وبين الحدود المصريه السودانيه فى وادى حلفا . ويجرى النظر الآن فى موقعين . أحدهما بالقرب من مروي ، والآخر فيما يقرب من

(١) بالنظر للمسافة البعيده بين مصر وهذه الأماكن يصعب على مصر ان تستفيد من هذه القوة ، لكنها تنوى انشاء محطة لقوة الكهربائية المائية بالقرب من خزان أسوان .

شلال دال . وسوف يزيد هذا الخزان في المعدل المائى المتيسر للمرى بين أوقات الفيضان . لكنه — بذاته — سوف لا يؤمن مستقبل مصر . لأنه سوف يهىء خزن المياه في مواسم الفيضان لاستعمالها في مواسم المنسوب الواطى . كما تفعل الخزانات الحالية . وإذا كان الفيضان غير عال في سنة استثنائية فسوف لا يتوفر الماء للخزن (٢) .

ولأجل اعداد خطة لخزن طويل الأمد ينظر الآن في سلسلة من المشاريع لانشاء خزانات بحيرات أفريقيا الوسطى — فكتوريا والبرب وكيوجا — وعلى بحيرات تانا في الحبشة . وفي سبتمبر سنة ١٩٤٩ اتخذت خطوه رئيسية لانجاز بعض هذه المشاريع ، حيث أعلنت مقالة لانشاء سد على شلالات أوين في مخرج بحيرة فكتوريا ، وسوف يسمح ذلك بتراكم مئى بلون متر مكعب اضافية من الماء . وسوف يضم ذلك انشاء محطة لتوليد القوة الكهربائية . والمأمول كذلك ان تتحول بحيرة البرت الى خزان للخزن القصرنى أو الدائم . باشاء سد في نيمولى الكائنه على مسافه ٢٣٥ كيلو متر شمالى البحيره داخل حدود السودان . أو في موتير الواقعة في أوغندا . والمنظر أن يكون استيعاب بحيرة البرت النهائى ١٤٥ بليون مكعب .

وفيما عدا امكانية الخزن العظيمة لهذه البحيرات . تنصح امكانيات توليد القوة الكهربائية من احلاف الارتفاع الموجود بها . وهو يبلغ حوالى ١٧٠٠ قدم .

ثم ان انشاء مثل هذه الخزانات العظمه يضمن نقل الماء دون صاع مرط ، لأن النل الأبيض يفقد حمسين بالمئة من حجمه بالتبخير وتتح النباتات النامية في مستنقعات السد الكائنة جنوبى نيمولى . وللحصوله دون هذا الضياع ، وضعت الخطة لحفر نهر لتحويل المياه ، وأصبح عليه اسم ممر جوتفلى ، وهو اسم القرية التى يسير فيها . وسوف يبلغ

(١) راجع التفاصيل فيما كتبه هرست وبلاك وسميكة في الكتاب الذى عنوانه حوض النيل . وزارة الاشغال العمومية المصرية ، المجلد ٧ . (القاهرة ١٩٤٦) .

مقدار المياه التي يحملها حوالي ٥٥ مليون متر مكعب في اليوم ،
على حين مجرى النهر القديم قادرا على حمل حد أقصى قدره ٤٥
مليون متر مكعب من الماء ، خارج موسم الطغيان ، وهي كمية تكفي
للسماح باستمرار الملاحة ^(١) . وهناك مشاريع بديلية تتضمن ضخ الماء من
مستقعات السد ، عوضا عن بناء نهر لتحويل المياه

أما مشروعا بحيرة ألبرت وبحيرة فكتوريا ، وكذلك مر لجونقلي .
فهو يؤثر في المقام الأول في نهر النيل الأبيض الذي يستوعب حوالي سبعة
مجموع المعدل الدائري لنهر النيل . ويصرف انصافا متساويا طوال أيام
السنة ، ومن المعلوم أن النيل الأبيض لا يستعمل في الوقت الحاضر
للرى بمقياس واسع في السودان . وهناك تصميم لمشروع مماثل للتخزين
الدائم « القرنى » ينشأ في بحيرة تانا على النيل الأزرق ، والمعروف أن
النيل الأزرق يأتي منه حوالي أربعة أسباع مياه النيل ، ويأتي السبع
لباقى من عطره . ولذا يكون النيل الأزرق في المقام الأول مصدرا
لميسان النيل . ولا يخدم النيل الأزرق مصر وحدها بل السودان
كذلك ، وعلى الأخص مشاريع الاستثمار السودانية في الجزيرة الكائنة
جنوب الخرطوم . وتقع بحيرة تانا في حوض فوق الهضبة الحبشية ، وهنا
يكون مقدار الأمطار مساويا لمقدار التبخر تقريبا . كما في بحيرات النيل
الأعلى . وعلى هذا فإن إنشاء خزان في بحيرة تانا سوف يسغل تصريف
لنيل الأزرق . وينم عملية حزن المياه في بحيرتي ألبرت وفكتوريا وهناك
بالإضافة إلى ذلك امكانيات توليد القوة الكهربائية المائية . لأن النيل
الأزرق يهبط هبوطا غير يسير .

ويبدو أن شلالات تنيسات التي تبعد عن بحيرة تانا مسافة غير
كبيرة هي على الأخص الموضع المناسب لتوليد القوة ، غير أنه المؤسف
أن توليد القوة الكهربائية من النيل الأزرق ربما يعارض مع عملية التخزين
الدائم « القرنى » . ولا بد له أن يقتصر على المدة المنحصرة بين
ديسمبر ويونيه

(١) راجع بعضلات ذلك في كتاب مشاريع النيل الأعلى . مشروع قناة
الجونقلي ، وزارة الأشغال العمومية ، القاهرة ، ١٩٣٦ .

ويوجد بصورة مستقلة تماما عن مشاريع تنظيم النيل مشروع مصرى
صرف لتوليد القوة الكهربائية المائية ، وهو يهدف الى الاستفادة من الفرق
في المستوى بين البحر الأبيض المتوسط ومنخفض القطارة الكائن في
منتصف الطريق تقريبا بين وادى النيل وحدود برقة . وخدمت المستنقعات
المالحة في هذا المنخفض جيوش الحلفاء في الحرب العالمية الثانية . اذ كانت
محورا للدفاع عن الأراضي الضيقة المنحصرة بين ساحل البحر والمنخفض .
وفصلا عن قيمتها الاستراتيجية ، تعد هذه البقعة في الوقت الحاضر ارضا
مواتا تماما . فاذا اقتيدت مياه البحر الأبيض المتوسط بقنوات وأنفاق
الى المنخفض ، فسوف يصبح في استطاعته المجرى المنحدر من علو
مئى قدم تقريبا أن يولد قوه كهربائية تكفى لفيذه قسم كبير من البلاد
المصرية . كما ان تبحر مياه البحر المراكمة في المنخفض سوف تجعل
من الممكن نشوء صناعة متسعة للملح (١) .

وادی الغور

في مواراة ساحل البحر الأبيض المتوسط الشرقى ، من تركيا الى حوض
العقبة ، يمتد خندق جيولوجى أو واد غائر تقع أعلى نقطة منه في لبنان
بالقرب من بعلبك القديمة ، كما تقع أخفض نقطة منه في منخفض البحر
الميت العميق . وتجري الأنهر الثلاثة : العاصى والسفلى والأردن -
معظم جريانها في هذا الوادى مع روافدها . وهى مصدر الجهاز المائى
الرئيسى للبنان وفلسطين . ولأقسام من سوريا والمملكة الأردنية . ومع
ان هذا الأنهر تحمل في مجراها مقدارا من الماء أقل بكثير مما يحمله النيل .
أو أنهر العراق الكبيرة . فأهميتها تزداد بكونها تجري في بلاد معشده
بالسكان احتشادا كثيفا (٢) .

(١) وردنجتون ، المرجع السابق ، ص ٦٢ .

(٢) وردنجتون ، المرجع السابق ص ٦٢ .

وربما كانت أعظم صفة تتصف بها المنطقة المحيطة بوادي الغور هي
الاختلاف الشديد في الجو ، وهو الاختلاف الناتج عن التباين الكبير
في الارتفاع ، وتنوع الحضارات التي ظهرت بين سكانها الذين لا يزالون
يمثلون خليطا من الأقوام والأمم والديانات . وينمو النخيل والموز وقصب
السكر في بعض أحرأ هذه المنطقة . كما يمكن أن توجد الفواكه الحضية
على طول الساحل بأجمعه . حيث يجود الزيتون والكروم والتفاح في
سفوح الجبال . كما تزرع مجموعة من المحاصيل الحقلية تتراوح بين
الحبوب وسحر السكر والبطا في الجهات العالية من البقاع ويعيش
في هذه البلاد خليط من المسيحيين واليهود ، والدروز والمسلمين السنة
والشعبة ، بين خرائب المعابد الوثنية . غير أن رراع بساتين الأشجار
الحضضية الحديثة ، ومزارعي فلاحية المصاطب ، وهم الذين يزرعون
الكروم والزيتون في السفوح الجبلية ، يشتغلون في جوار الرعاة البداه
الذين تؤثر معزهم وضأنهم في عملية تعرية التربة ، بآتلاف الأشجار
ولشجيرات . وبذا يعيقون الجهود المضنية التي بذلها جيرانهم المستقرون .
وفي أحوال كهذه يحدث انه على حين يتيسر عدد كبير من الأفكار
المضاربة حول استثمار المنبع المائية الموجودة ، لم يقم من المشاريع
الكبيرة الا القليل لاستغلال الأنهر بمجموعها استغلالا مترابطا . ولا يخفف
من صعوبة هذا الوضع ولو بعض الشيء كون هذه المنطقة يتقاسمها عدد
من الدول المستقلة ذات السيادة ، بل ازداد التعقيد بتقسيم فلسطين ،
وشدة الخلاف الذي أعقب الحرب الأخيرة بين العرب واليهود . وينطبق
كل هذا بلا شك على حوض الأردن أكثر مما ينطبق على النهرين الواقعين
أبعد من ذلك شمالا في الوادي .

وينبع نهر العاصي في لبنان الشمالي . بين سلسلتي لبنان الغربية
والشرقية ، في وادي البقاع الخصيب . ويتراوح مقدار الماء الذي يجري
في هذا النهر بين ستة وسبعة عشر مترا مكعبا في الثانية ، وهو يجري
شمالا في أراض لسانيه مسافة نحو الثلاثين ميلا . وفي هذا القطاع من مجرى
العاصي وضعت خطة لتحويل شيء من مياهه للري . ولاستغلال مساقطه

في توليد القوة الكهربائية ، بأشياء محطة صغيرة لهذا الغرض . وترداد قيمة هذا المشروع اذا ربطت المحطة بشبكة اسلاك المظنة كلها . بعد أن تنشأ محطة الليطاني الأكر في الجنوب . لأن بصريف اللطاني اذا في خلال الصيف الى ما يقرب من عشرة بالمئة من تصريفه الشتوي يبقى العاصي أكثر مشاركة في التصريف . لأنه يستمد جزءا من مياهه من ذوبان الثلوج .

وعندما يمر نهر العاصي الحدود السورية يدخل بحيرة حمص ، وهي في الحقيقة خزان اصطناعي تكون بشد قاطر في موقع سد روماني قديم ومن هناك يجري العاصي معها نحو الشمال حتى يدخل أرض تركيا ، ويصب في البحر الأبيض المتوسط . ويمكن القيام بعدة مشاريع على طول مجرى العاصي الرئيسي في سوريا ، مما تدرسه الآن الحكومة السورية . وأكثر هذه المشاريع فائدة مشروع تجفيف مستقع العاب الذي يتألف قاعه من تربة خصبة في أسفل سلسلة جبال العلويين . وهناك أيضا مشروع صرف (بزل) حوض الرح الواقع أبعد من ذلك شمالا . على أن مشاريع العاصي ، ومثلها مشاريع اللطاني . سطلب مقدار غير يسير من الأعمال الرأببة التي يساعد على إنجازها كثرة الأيدي العاملة الرخيصة الأجور . بالنسبة لأحوال الشرق الأوسط . وعلى هذا يبدو الآن تحقيق هذه المشاريع شيء مفر ، لأن البلدين معا يتوفر فيهما عدد كبير من الأيدي العاملة العاطلة عن العمل بوحود اللاجئين العرب من أهل فلسطين .

وينبع الليطاني ، كما ينبع العاصي . من مسيل مياه بعلبك . لكنه يسلك في انسيابه مجرى معاكسا يتجه نحو الجنوب محرقا وادي البقاع . ثم يدور الليطاني فيتجه الى الغرب ، ليصب في البحر الأبيض المتوسط . بالقرب من البلدة الفينيقية القديمة صور . ويقع منبع هذا النهر على ارتفاع يبلغ ثلاثة آلاف قدم . وينحدر انحدارا معتدلا مسافة خمسين ميلا من منبعه ، فصلا عن الخمسة والعشرين ميلا الأخيره قبل أن يصل

منصب . وعلى هذا تكون الأراضي التي يخترقها نهر الليطاني في هذين
القطعين - وعلى الأخص في القسم الأعلى من حوضه - صالحة للرى .
أما قطاعه الأوسط فهو شديد التحدّر ، وهو يصلح أن يكون موقعا لتوليد
القوة المائية ^(١) . ويرأوح تصريف النهر عند قياسه في المنصورة
بـتقرب من المبعـين ٣٢ مترا مكعبا في الثانية في شهر يناير وثلاثة أمتار
مكعبة في أغسطس . ويقل الماء الضروري لتوليد القوة الكهربائية حتى
عن هذا الحد الأدنى خلال أشهر الصيف ، عندما تتم الاجراءات لانحار
مشاريع رى أخرى . ولا يمكن التغلب على هذه الصعوبة الا بخزن
المياه بمقياس واسع في الشتاء . ويتطلب هذا الأمر اجراء استقصاءات
حولجية مفصلة . ليتسنى تعيين أنسب موقع أو موقعين ينشأ فيه
أو فيهما سد واحد أو سدان ، دون أن يحصل تأثير على نظام الرى في
أغالى النهر . والمعروف أن المكنت التي سوف تعمل لتوليد هذه القوة
المائية يمكن أن تبلغ قدرتها خمسين ألف كيلو واط .

والسلسلة الثالثة الممكن ربطها بشبكة القوة الكهربائية المسحقة
من نهري العاصى والليطاني تكون محطة توليد القوة الكهربائية من
تساقط المياه من بحيرة يمونة . وهي إحدى ملحقات اللطاني . وعند
ذلك يكون مجموع القوة الناتجة سنويا من محطات التوليد الثلاث
حوالى ٤٨٠ مليون كيلواط في الساعة . وستزيد هذه القوة عن الاستهلاك
الحالى للقوة الكهربائية في لندن بأكثر من ثمانى مرات . وتقرن مثل
هذه المشاريع عادة بأعمال الاستثمار الأخرى . وهذه سوف تؤدي
لزيادة استهلاك القوة في الداخل زياده وافرة ، أو بمشاريع تصدير القوة
الى البلاد المجاورة .

وينبع نهر الأردن من جداول اللدان والحاصاني وبانياس ، وهذه
تكون مأوها من العيون . ومن أنهر البريقت التي تنبثق من سفوح جبل

(١) راجع الى . عبد العال : الليطاني ، دراسة هيدرولوجية .

، بيروت ، ١٩٤٨ .

الشيخ في لبنان . وتلتقى في مستنقعات بردى العائدة لحيرة الحولة . ومن هناك تخرج هذه الجداول ، فكون الأردن الذي يحري الى بحيرة طبرية . وفي الأميال السعة بين بحيرتي الحولة وطبرية يهبط الأردن مقدار ٩٠٠ قدم . وفي أسفل بحيرة طبرية مباشرة يتصل نهر الأردن باليرموك الذي ينبع في سوريا ، فيكون الحدود بينها وبين الأردن لمسافة ما . والأردن اذ يجري عابرا الى البحر الميت المنخفض عن سطح البحر حوالي ١٣٠٠ قدم ، ينخفض مسواه ، تخفضا رفعا مسافة خمسة وسنين ملا . لكنه ينعرج تعرجا كثيرا فقطع في الواقع مسافة مئتي ميل .

ويتحكم الآن في الحصلة الدثية من نهر الاردن امصار شركة الكهرباء الفلسطينية ، وهي تمتلك حق استعمال الماء لأي غرض آخر ، ولو انها تستعمل هذا الحق بتبصر ^(١) . فعند اتصال اليرموك بالأردن يحتفظ بالماء بواسطة سد ، ثم يسمح لها بالهوط من علو يقارب الثمانين قدما ، وذلك لتوليد القوة الكهربائية التي تبلغ حوالي تسعة أعشار جمع استهلاك فلسطين .

وفي الهوة الموجودة تحت السد يكون عمق نهر الأردن محمضا عن فاع الوادي ، فجعل استعمال المياه للرعى شبا غير اقتصادي في الوقت الحاضر . ولذا تقتصر الافادة من الأردن في جنوب البحر الميت على بضع مضخات أهلية . تسهك معظمها تكاليف باهظة ، بالنظر للعلو الشاهي الذي يجب أن يرفع اليه الماء لنصل الى مستوى الوادي ^(٢) .

وأعظم المشاريع ذات الأغراض المتعددة للافادة من مياه نهر الأردن مشروع يقرن عادة باسم و . ك . لاودرميلك ، لأنه هو الذي سمي هذا

(١) لايشمل هذا الامتياز ماسح الاردن وروافده التي يأس أغلبها من خارج فلسطين ، حيث انشأت سوريا مثلا محطة صغيرة لتوليد القوة الكهربائية على اليرموك .

(٢) راجع ورذنجتون : المرجع السابق ، ص ٥٣ . وانظر ما كتبه وولتر كلي لاودرميلك في الفصل الثالث من كتاب فلسطين ، أرض الميعاد . (نيويورك ، ولندن ١٩٤٤) .

المشروع باسم سلطة وادي الأردن ، تقليدا لاسم مشروع وادي النسي في الولايات المتحدة . ولأنه هو الذي وضع تفاصيل التنفيذ للحكومة الأردنية .

وتنحصر أهداف هذا المشروع في تحويل مياه الأردن الى مستوى حران شركة الكهرباء الفلسطينية الكائن في أسفل بحيرة طبرية . بحفر قناة أو قناتين يرتفع مستواها أو مستواهما . بحيث تصبح واحدة في كل جانب من جانبي الوادي . ليسهل انساب الماء بالجاذبية الى الأراضي القابلة للري والراجورس . ولما كان هذا المشروع سوف يوفر من الماء أكثر مما بحاجة وادي الأردن . فان قسما من النهر يمكن أن يحول من فوق بحيرة الحولة . لارواء سهل صفد وسائر الوديان القريبة . ورأجل لمحافظة على مستوى البحر الميت . والاستمرار على توليد القوة الكهربائية . مع التوسع فيها بطريق النهر . سوف تتخذ التدابير ليجري الماء من البحر الأبيض المتوسط في قنوات واتفاق يرجح ان تبدأ من خليج حيفا الكائن على بعد خمسة وعشرين ميلا فقط . ويتوقع المستر لاودر ملك ان هبوط المياه الفعلي لتوليد القوة الكهربائية المائية في عدد من محطات التولد في الوادي سيستج حدا أدنى يتراوح بين ٧٦٠٠٠ و ١١٠٠٠٠ كيلو واط . وتلتحق بمشاريع الري وتوليد القوة هذه خطط لحفظ الماء . وضبط الفيضان ، والصرف (البزل) . وتنظيم الرعي . والتحريج (١) .

ومع ان دراسات كثيرة أجريت في مختلف سواحي سلطة وادي الأردن ، لا يزال هناك كثير مما يجب أن يدرس . والمشروع بأجمعه موضوع لنشراب ومطبوعات عديدة . والكثير مما كتب قابل للنقاش والجدل ، بالنظر للمصالح المتعارضة الكثيرة . فبغض النظر عن المشاكل الطبيعية والعقبات الثانوية . مثل ضرورة تسوية الأمر مع أصحاب الامتياز الحالي . فان هذا المشروع الجبار تعترضه صعوبتان رئيسيتان . أما

(١) لاودرملك : المرجع السابق ، الفصل الحادي عشر .

الصعوبة الأولى فهي أن الكايف باهظة جدا ، لا بالنظر لأن مياه البحر يجب أن تقاد في اتفاق تحفر في صخور مسامية . بل بالنظر لأن الوديان العديدة التي يتحكم على جداول لرى الجاسه اخراقها تمر بمنحدرات لوادى أيضا . ثم ان الفائدة الاقتصادية للمشروع لا تزال بحاجة للرهة عليها . ولعل أعقد من هذه لصعوبة التي هي من صنع يد الانسان والنتيجة عن جريان الأردن في واد تشترك فيه عدة دول . ان مساهمة تمجر في لبنان وسوريا . كما كان النهر نفسه يكون الحدود بين فلسطين والأردن ، وهو الآن يحرقى في اراض تسيطر عليها المملكة الأردنية من جهة واسرائيل من جهة أخرى . ومشروع في مثل هذه اوضاعه لا يمكن أن يضطلع به وسر بصورة ناجحة الا بحصول ابعاون لنام بن سكان المنطقة بأجمعها . فضلا عن حكوماتهم . وليس من المستطاع انماه الا بعد حصول مقدار من الوحدة الاقتصادية في المنطقة كلها على الأقل .

وفيما خلا المشاريع المخصصة لهذه الأنهر الثلاثة . هناك عدد كبير من المشاريع الصغرى ، وأهمها مشاريع توليد القوة الكهربائية من أنهر ابراهيم والبارد ، وسائر الأنهر الصغيرة التي تنبع من منحدرات لسان التربه . وهناك مشروع تحويل قسم من اليرموك الى جدول يحرقى نحو الجنوب . لارواء بعض أجزاء المملكة الأردنية ، وهو مشروع يعارض مع مشروع سلطه وادى الاردن ، ومشروع تجفيف مستقعات الحوله الكائنه في شمال فلسطين وريها فيما بعد ، ومشروع ارواء النصب بالماء المحول من الينابيع ، ومشروع نهر العوجة الذى يحرقى الى البحر الأبيض المتوسط فيما يقرب من تل أبيب .

تركيا

تسقط الأمطار بكميات وافرة في مناطق تركيا الساحلية . وخاصة سواحل البحر الأسود . وفي مرتفعاتها الشرقية كذلك . أما الهصبه الوسطى المنبسطة ، وهي التي تغزلها عن البحار سلاسل الجبال العالية ، فتقل فيها الأمطار عن عشرين بوصة في السنة . بل يبلغ مقدار المطر في

معظمها أقل من خمس عشرة بوصة . وفي قسم منها — أى في قلب الهضبة — أقل من ثمانى بوصات . ومما تتصف به الأناضول الوسطى ان الأراضي المزروعة تتألف من أشباه دوائر هندسية متقطعة مراكزها الآبار ، وانصاف أقطار مسافة يمكن أن يقطعها الثور في يوم عمل واحد . ونصف السواحل الغربية والجنوبية بالموسم الجاف الطويل الذى يتصف به جو البحر الأبيض المتوسط . وعلى هذا فينما لا تعاني معظم البلاد التركية قلة الماء بدرجة خطيرة ، ينبغي إيجاد الوسائل للمحافظة على المياه المتيسرة . والافادة منها فائدة تامة حتى يكون من الممكن توسيع الرقعة المزروعة . وزراعة محاصيل أكثر ، والحصول على علات أحسن ، وغذاء أفضل لاستهلاك البشر والحيوانات .

وتوجد امكانيات ممارة لاستثمار المياه في تركيا ، فهالك أسباب تدعو للاعتماد بأن البلاد فيها موارد عظيمة من المياه الجوفية ، لكنها لا تزال بحاجة الى دراسة مستظمة . أما موارد الماء الواضحة للعيان فهي الأنهر الواقعة جميعها تقريبا اما في الهضبة الوسطى . أو في جوب حواجزها الجبلية المقابله للرياح ، وهذه تجري جنوبا الى البحر الأسود أو بحر ايجه أو البحر المتوسط . وتظل كثير من انهار تركيا على حريان دائم ، وتضاءل بعضها أو تجف خلال الصيف . لكنها تحمل في مواسم معينة مقدارا من المياه يكفى لجعل الفائدة الزراعية منها شيئا ممكنا . وكميات الماء التى تحملها بعض هذه الأنهار وافره غريره ، وهى في نزلها السريع من الجبال الى البحر تفيض على الدوام . وكثيرا ما تدمر قسما من أغنى أراضي تركيا الزراعية ، وتجعل جزءا منها في احتياح دائم للصرف . وفي كثير من الحالات يحمل سقوط المياه الشديد من المرتفعات توليد القوة المائية امكانيه أكيدة ، ويشير هذا الملمح بنجاح عظيم في بلاد متعطشة لقوة الكهرباء . ومع ان بصع مناطق فقط في تركيا تتوفر فيها سون جاهزة للقوة الكهربائية . عدا مناطق اسطنبول وارمت وأنقره وارمير وأطنة ، فهناك عدد كبير من مراكز السكان والصناعة الكبيرة يمكنها أن

تفيد من أى مقدار من القوة الكهربائية ، وفى وسعها كلها أن تستعمل القوة المائية استعمالا مفيدا ، عوضا عن القوة الحرارية الغالية التكاليف .

وفى السنوات العشرين المنصرمة أدت الحاجة العاجلة للسيطرة على فيضان الأنهر ، فضلا عن الحاجة للقود لكهربائيه والرى الاضاق ، الى وفرة الدراسات الفنية وتعدد المشاريع . وكثير من هذه المشاريع قد درس الآن ، بل ان بعضا من هذه المشاريع سبق ان تمت دراسة . وتتوفر جميع الدلائل على ان الحكومة التركية مزمنة على أن تسير قدما فى تحصين خططها ، على أن هذه الحظ لم يعالج علاجا كاف .سى الآن ، كما ان ملابساتها الاقتصادية والرعائية لم تقدر تقديرا تاما بعد . يضاف الى ذلك أنه يعوزها الترابط ، لأن المشاريع فى بعض الأحيان يصطلم بها من دون الالتفات الى امكانيات المنطقة أو حاجاتها بوجه عام ، ويكون العمل الذى سبق فى بعض الحالات غير ملائم مع الاستثمار الشامل لحوض النهر كله . وفى حالة واحدة فقط أخرى اسقضاء استثمارى لحوض نهري بكامله . مع ان اسقضاء ثانيا مثل هذا توضع له الخطه الآن . ثم ان أعمال التحريج . ومكافحة تعرية التربة . يبدو أنها أهملت ، بسبب الانصراف الى تنظيم حالة الأنهر . الواقع أنه لم تتخذ مطلقا أية اجراءات فعالة فى تركيب مكافحة التعرية . ومعنى هذا أنه على حين أصح فكره مشروع وادى التنسى معروفة فى تركيا . يبدو ان مفهومها المعبر عن استثمار حوض أى نهر من الأنهار بأجمعه لم يبدأ تقديره الا حديثا .

وقىما يلى بيان موجز عن امكانيات عدد من الأنهر التى تبشر بحصول منافع شاملة من استعمالها ، بنظام وحكمة . فضلا عن اجراءات ضبط الفيضان التى تقتضيها .^(١) ويجب أن يكون ملحوظا ان جميع الأنهار

(١) راجع وصفا موجزا لمشاريع الحكومة التركية فى ما كنه ر . بابيه ، بعنوان أعمال هيدروليكية كيرة فى تركيا . فى محله الاشغال ، لسان حال جمعية هندسة الاشغال الفقيه العامة والاسميت المسلح . ديسمبر ١٩٤٨ ، ص ٦١١-٦١٨ . اطر كذلك ما شره مكتب الاسعلامات التركى بعنوان « مشاريع استثمار الكهربائيه المائية فى تركيا » فى مجلة « تركيا اليوم » رقم ٢ . نيويورك . ١٩٤٩ .

عد بعده شرقا (الفرات) تجري بكاملها في داخل حدود تركيا . وبذا تنتمي إحدى عقبات استثمار المياه بالقياس الى بلاد الشرق الأوسط المحاوره لها .

ومشروع وادي سيحان هو أكثر مشاريع استثمار المياه تقدما في تركيا . وسيحان أحد الأنهر الثلاثة (بردان وجيحان وسيحان) التي تجري نحو الجنوب من جبال طوروس ، فنخرق منطقه تشقورا أووا الرسوبية الخصبة . وهي إحدى المناطق الزراعية الغنية في تركيا . وتكون مثنا مقلوب يشير الى الزاوية الشمالية الشرقية من البحر الأبيض المتوسط . ومع ان الأنهر الثلاثة جمعها تفيض حيات . فان سيحان يحدث أشد المضائات خطورة وأكثرها اساءة . فبدمر سويا مساحات واسعة من الأراضي الزراعية على جابه . ويقضى على حياة الكثيرين ، ولذا فان مع الفيضانات وحده يعد سببا كافيا لذل الجهود في سبيل السيطرة على سيحان . لكن منافع غير يسيرة يمكن أن تستخلص بالاضافة الى ذلك من رى السهول الكائنة على جابه هذا النهر . ومثل ذلك السد العاطس الذى أنشئ على نهر سيحان على مسافة ست كيلو مترات فوق آطنة . وكذلك الجدولان الرئيسيان للرى . لكن مجموعة الجدول الثانوية والثالثية التى شفت حتى الآن تخدم جزءا من الجانب الأيمن فقط . وتزود ماء الرى لمساحة ١٧٠٠٠ هكتار فقط . فاذا تيسرت الوسائل لخزن المياه . فسوف يكون من الممكن ارواء ١٥٦٠٠٠ هكتار ، أو جميع سهل آطنة في الواقع .

ومع ما للزراعة من الأهمية الأولى في تشقور أووا ، فالمنطقة تيسر فيها أيضا أعمال التوسع والنمو لصناعات صغيرة ، وخاصة صناعات النسيج وحفظ الأغذية . ويعد عدم وجود القوة الكهربائية عاملا كبيرا في الحلولة دون حصول النمو الصناعى في هذه المنطقة . وهى بأجمعها تعاني الآن نقصا كبيرا في القوة . لأن ما يجري توليده كله تقريبا يعتمد على مكائن حرارية صغيرة تسعمل كل نوع من الوقود . ثم انه يمكن تسخير مقادير

المياه العذيرة المنهجرة في سيجان لتطمين الحاجات الحالية من القواء .
وما ينتظر أن تتطلبه المنطقة منها لعدة سنوات قادمة .

ولسد حاجات منطقة تشقور أووا وضعت الحطة لانشاء سد متعدد الأغراض على أحد منحنيات سيجان ، على مسافة ثمانية كيلو مترات تقريبا فوق آطنة ، وتتضمن التصميم انشاء سد بعلو يكفى للتوفيق بين متطلبات الري وتوليد القواء المتعارضة . وسينكون من ذلك خزان لضبط جميع الفيضانات التي تزيد على الألف متر مكعب في الثانية ، والتي لا بد من انشاء ضفاف عالية على طول النهر في أسفل السد لضيها . وبذا تتحقق امكانية الري الشامة في المنطقة . ويتسى تولد حوالى ٢١٠ كيلو واط في الساعة من القواء الابتدائية في السنة . بعد اقامه مصنع للقواء تبلغ سعته ٦٧٥٠٠ كيلو واط . وقد سبق للمصرف الدولي أن أبدى اهتماما بهذا المشروع . وأرسل خريف ١٩٤٩ مشاورا لدراسة التصميم في امكنتها المقترحة (١) .

ولم تنظم حتى الآن مشاريع مماثلة لنهرى بردان وجيجان الكثير على جناحي تشقور أووا الأيمن والأيسر ، على أن سدا ومجموعه من الجداول كانت موجودة على بردان ، لارواء حوالى ٢٠٠٠٠ هكتار من الأرض في سهل طرسوس . وقد تنصب يوما ما الأسيسات الكهربائية المائية فوق السد أو بقربه ، ويجرى الآن انشاء سدة طولها ٤٥ كيلو مترات على ضفاف جيجان لدرء الفيضانات ، على أن خطه موحدة لمنطقة تشقور أووا كلها تتناول موارد الأنهر الثلاثة بأجمعها لم توضع بعد .

(١) منح المصرف الدولي في ١٨ يوسه ١٩٥٢ قرصا لركيا مقداره ٢٥٢ مليون دولار ، لتمويل تكاليف العملة الخارجية التي يحتاجها مشروع سيجان . ويتضمن المشروع انشاء سد ترابى ، وانشاء محطة لتوليد القواء الكهربائية ينصب فيها مولدان كهربائيان تبلغ قوة كل منهما ١٨٠٠٠ كيلو واط ، فضلا عن مولد ثالث ينصب فيها فيما بعد . وشبكة لنقل القواء الى اطله وطرسوس ومرسين ، واكمال أعمال ضبط الفيضان ، وشن الجداول اللازمة للري التي كان العمل جاريا فيها في الوقت الذى منح فيه القرض .

وفيما عدا هذه الأنهار الثلاثة يوجد نهر سقاريا الذي ينح في القسم
الغربي من هضبة الأناضول . ثم يجري متجها الى الغرب والشمال
نحو البحر الأسود مسافة ٧٥ ميلا شرقي البوسفور . ويجري نهر
بور سوق . وهو الرافد الأكبر لنهر سقاريا نحو الشرق محترقا كوتاهية
واسكيشهر قبل أن ينصل بسقاريا . كما يجري أحد روافده الغربية
بالقرب من أنقرة . ويشتمل حوض مجموعة الأنهار هذه على قسم من
أحسن مناطق زراعة الحبوب في تركيا ، والخطه لاستثمارات مائية
معددة الأغراض تساؤل مجموعة أنهر سقاريا — بور سوق غير أن الهدف
الأول من هذه الخطه يقتصر على توليد القوة ، لأن هذه الأنهر واقعة في
منصف الطريق تقريبا بين أنقرة وإستانبول . وهي صالحة لتوليد
موارد كهربائية مائه في أمكنة استراتيجة يمكن أن تجهز القوة اللازمة
لأرقي المناطق الصناعية في تركيا . والحقيقة أن هذه المواقع أصبحت
مراكز هامة في شبكة أسلاك كهربائية يؤمل مدها . لتربط بلاد الأناضول
الشمالية الغربية سويا . وتمدها بالقوة اللازمة . أما الصرف والري
ومكافحة الفيضان . فهي كلها ذات أهمية ثانوية في ضوء امكانيات
القوة الكهربائية للمنطقة .

وأنشئ على هذه المجموعة النهرية سابقا سد من أحدث سدود
تركيا وأكثرها اتقاناً . وهو سد نهر تشوبوق بالقرب من أنقرة ويجري
الآن انشاء سد ثان في اسكيشهر على نهر بور سوق . لتكوين خزان
يسع ١٥٥ مليون متر مكعب . وسوف يقوم هذا السد بمنع وقوع
الفيضان الدوري . وببسيير رى سهل اسكيشهر كذلك . ولم تبذل
بالنسبة لنهر سقاريا نفسه إلا جهود متواضعة حتى الآن . لاتخاذ
ما يلزم للري والصرف في أعاليه على أن مشروعين رئيسيين وضعا
لهذا النهر وأولهما في صاري ير . ويتضمن انشاء سد ومصنع
للقوة الكهربائية المائية سعة ٧٥٠٠٠ كيلو واط ، ويستطيع توليد
حوالي أربعمئة مليون كيلو واط في الساعة سنويا ^(١) ، وثانيهما في
١) هذا السد ومحطة توليد القوة الكهربائية يجري انشاؤهما الآن .

جاءلارق . وينضم انشاء سدين يشغلان مصنعا واحدا سعة ٣٦٠.٠٠٠
كيلو واط . لتوليد ١٢٠ - ١٥٠ مليون كيلو واط في الساعة .
وتستدعى تصاميم الحكومة التركية ربط مصانع القوة هذه بغيرها من
مصانع القوة التي تستغل بالفحم والليجنات ، لتكوين شبكة تضم تركيا
الشمالية الغربية ، فتزود على هذه الشاكلة القوة لمناجم الفحم الكبيرة في
زونفلاق ، والمنطقة الصناعية الممتدة بين استانبول وأزميت ومركري
أنقرة وقرق قال الصناعيين (١) . وينتظر أن تنتج عن هذه المشاريع
حصيلتان ثانويتان كبيرتان ، لأن انشاء السدود سوف يدرأ الفيضان عن
وادي سقاريا الأسفل ، كما يؤمل أن تجعل مسافة ستين الى مئة ميل من
مصب النهر صالحة للمراكب الصغيرة من حمولة ٢٠٠ الى ٥٠٠ طن .

ومن أنهار تركيا نهر كديز الذي يجري غربا حتى يصب في بحر ايجه
شمالي أرمن مباشرة . ويمتد واديه مسورا كثيرا تقطع تركيا وسبعها
وفواكهها وثقلها وريث زنتونها . ولقد حسب لحساب صورته وصحة
في التصاميم الموصوعة لحوض هذا النهر لشؤون الري والصرف
ومكافحة الفيضان وتوليد القوة من الماء . وعلى هذا النهر نسب سائما
عدة سدود وجدول تحويلية . فالسد المقام أولا على نهر كدير . ولاحق
المقام في جامليكا على قوم شاي . ساعدان على تنظيم فضان كدير
الأسفل الذي يهدد بخطر سهول منمن ومعسبا الغصة . حيث يجري
المياه التي يصددها هذان السدان في جدول الى بحيرة مرمره . ويسى الآن
سد غاطس آخر على كديز في جنوب البحيرة مباشرة . وسوف يربط أيضا
بالبحيرة بواسطة جدول خاص . وعلى مسافة من أسفل النهر أقسم سداً كبير
لتحويل المياه في أمير عالم . كما شيدت سلسلة من الصراف ومجموعه من
الأقنية لارواء سهل منمن بأجمعه . وبالإضافة الى انعام هذه الأعمال
الانشائية ، فإن أكبر عمل يراد انجازه في حوض كديز هو انشاء سد كبير

(١) يكاد العمل ينتهي في هذه الشبكة لتوليد القوة الكهربائية في
هذه المنطقة الشمالية الغربية ، لأن السلطات التي يهتما انعام هذا العمل
جهزت العملة الخارجية اللازمة .

جديد بالقرب من أوالا على أن الهدف الأكبر لهذه الأعمال كلها هو مكافحة الفيضان وضبطه ، ولو أن إنشاء السد الجديد سوف يتصلص نصب تأسسات كهربائية مائة يكون في وسعها توليد ١٥٠ مليون كيلو واط في الساعة سنويا . وسوف تستعمل هذه القوة للرى بالمضخات في المناطق القريبة من مجيزيا ، وفي منطقة أزمير الصناعية .

على أن المشاريع التي أنجزت والتي وضعت لها الحطط اللازمة حتى لان في حوص كديز اضطلع بها على افراد . دون أن ترسم الخطة لاستثمارها بصورة مرابطة ، ويشبه وضع كديز في هذا الشأن جميع المشاريع الاستثمارية الأخرى في تركيا . على أن كديز ينفرد عن الأنهر الأخرى بأنه أول حوص نهري تبدل فيه الجهود الآن لوضع خطة استثمارية موحدة من جميع الوجوه ، وقد باشرت الشركة الأمريكية التي احفظ بها للقيام بهذا العمل سنة ١٩٤٩ ، وهي تأمل أن تنتهى من وضع تقريرها أوائل سنة ١٩٥٠ (١) .

ويجرى نهر المدرس الكبير . كما يجرى نهر كدير . من لهضة الغربية الى بحر ايجه . محترقا أراضي تنتج كثيرا من منجبات تركيا الزراعية ، وهو يمر كذلك بمرکز صاعى هم هو مرکز نازللى والمنطقة بأجمعها في حاجة الى حمايتها من الفيضان . كما أن الرى والصرف سوف يربدا كثيرا في المنافع التي تحنى من المنطقة . ويمكن أن تربط الامكانيات الكهربائية المائية في ودى المدرس الكبير بإمكانية نهر كديز . وبذا تتكون شبكة مشتركة تخدم منطقة بحر ايجه .

والمشاريع التي يؤمل ايجارها في هذا الحوض لا تتناول نهر المدرس الكبير نفسه فقط ، بل تتناول أيضا روافده ، وهي كوفي تشاي وديندلاس وآن تشاي وتشين تشاي .

(١) انتهت شركة ناين - تيببتهوتس الهندسية في نيويورك من الأعمال التمهيدية ، وقدمت تقريرها الى الحكومة التركية في ١٩٥٠ . ولاعتقاد الحكومة بأن هذا المشروع يستحق الترحيح والاولوية على غيره من المشاريع فانها اخذت تسعى للحصول على مساعدة من الخارج لتمويله .

وبدأ العمل في هذا الحوض بصرف الماخق الماخورد لايشكلى .
وتنشأ الآن الضفاف حول بحيرة ايشكلى . وهناك سد على بعد عدة أميال
فوق نازلى ، حيث يحول الماء الى جدولين في جانبي النهر لرى سهل
نازللى . وقد أنشأت مجموعة صغيرة من الأقنية في أعالي النهر . لارواء
سهل دنرلى . كما تنشأ الآن ضفاف واقية عبر سهل صوكاى حيث سهل
النهر بالبحر .

وتستهدف الحكومة التركية حمية هذا الحوض كله . لكن بعض
الأعمال الانشائية التى سبق ان أنجزت لبست سوى مشاريع منفرله
متفرقة . على ان الحكومة برهنت أخيرا على عزمها فى مسح الحوض بكامله
ليكون وحدة استثمارية . ومن أجل ذلك أجرى مسح سيجدى لهذه الحمايه .

مشاريع تركية أخرى

كانت أربعة حاض نهرية أخرى على الأقل موضع البحث فى دوائر
الحكومة التركية ، ومع ان أى حوض نهري من هذه الحاض لم يدرس
دراسة علميه منطبه . فان بعض المشاريع الخريته تم بأعمال انفراديه .
وأنجز العمل فى بعضها لصح فيما بعد أجراء من مشاريع استثماريه
عامة . مثال ذلك حوض صو صورلو للصرف ، وهو الواقع جنوبى بحر
مرمره مباشرة ، ويحتوى على مياه بحيرتى مانياس واولوناد ونهر
صو صورلو ونيلوفر وجوحة تشاي وكمال باشا مع روافدها والحاحان
الرئيسيتان فى هذه المنطقة هما الصرف ومكافحة امضان . وبست بعض
الأعمال لانشاء الضفاف والمدود على طول نهري صو صورلو
وكمال باشا ، وفيما حول بحيرة مانياس . ومع ان هذه المنطقة من
المناطق التى يكثر فيها الرى فى تركيا . فبان بعض مشاريع الرى تم
انجازها وتحققت فائدتها . وبعضها الآخر رست الخطة لانشائه . ومن
المأمول أيضا أن يتم ما يلزم لتوليد القوة . وجعل الملاحة ممكنة فى
القسم الأسفل من نهر صو صورلو .

ويجري نهر قرل أيرمق ويشيل أيرمن من الهضبة الوسطى ، فيخترقان مضائق صخرية عبر حاجز بوتيك الى البحر الأسود ، على جانبي ميناء سامسور الهام . وتكونت دلتاوات غنية في مصبي هذين النهرين ، لكنها دلتاوات مرزغية تتعرض للفيضانات . وسبق ان بدأ العمل في منشآت صغيرة للصرف والري في هذه المنطقة . لكن أعمالاً أكثر من هذه يؤمل انجازها في المستقبل . ثم ان امكانيات توليد القوة الكهربائية المائية صارت معروفة في هذه المنطقة كذلك ، لكن الخطط المفصلة لم توصل لها بعد .

ويكون المرب الأعلى وروافده في الأناضول الشرقية أطول مجموعة نهريه في تركيا ، اذ يسع بين أعلى الجبال الموجودة في البلاد . ثم يهبط بسرعة الى سهول تركيا الجنوبية الغربية ومنخفضات سوريا . ومما لا شك فيه ان امكانيه لتوليد القوة الكهربائية المائية عظيمة . لكنها لم تدرس حتى الآن . والمشاريع الوحيدة المضطلع بها في العصر الحاضر هي المشاريع التي تساعد على الري والصرف في سهل أرزنجان .

الهضبة الإيرانية

ليست قلة الماء التي تعانيها ايران ناشئة من الأحوال الجوية فقط ، بل من تكوينها الطبيعي كذلك . ففي ما بين ذراعي المساحة التي تشبه رقم ٧ . وهما الدراعان النذان تكونهما جبال البرز في الشمال وسلسلة الزاغور في الغرب تقع الهضبة الإيرانية التي يبلغ معدل ارتفاعها ٤٠٠٠ قدم . فوق مستوى سطح البحر . وتبدأ هذه الهضبة وعرة . ثم تنبسط بالتدريج فتكون بادية عظيمة تؤلف ما يقرب من ربع مساحة البلاد . ويبلغ مقدار المطر السنوي في منطقته لواء أقل من خمس بوصات ، وهو يزيد في معظم الهضبة على ١٢ بوصة . وأكثر سقوطها في أشهر الشتاء . على ان مناطق بحر قزوين الساحلية تغزر فيها الأمطار طول العام سنة . فبلغ معدلها حوالي خمسين بوصة . كما ان ايران الغربية أكثر فيها تساقط الثلوج والمطر خلال أشهر الشتاء . غير أن هذه الأمطار

المتكونة من جبهات جوية تتحرك من الجنوب الى الغرب تستهتك نفسها عادة . لأنها تنضب عند الحواجر الجبلية العظيمة . وعلى هذه الشاكلة لا يقل المطر داخل ايران فحسب ، بل تعود معظم المياه فتجري من الجبال الى مجموعات الصرف الخارجية ، ولا يمكن أن يستفاد منها الا في رقعة صغيرة من ايران . قبل أن تعبر الحدود أو الممرات الى البحر مباشرة . وهذا وضع لا يختلف عن الوصف الموجود في شرفى البحر الأبيض المتوسط ، حيث تعوق سلسلتا جبال لبنان جريان معظم الرياح الممسلىء بالرطوبة قبل أن يصل الى سوريا .

وقلة هطول الأمطار لا نعوض عنها الا بهر الى تجري قادمه من خارج ايران . حيث تجري كميات من الماء الى الداخل في مجار سطحه ترد من أفغانستان . ثم ان الأحوال الطبيعية لا تساعد كثيرا على الافادة من المياه الخوفه ، لأن معظم ايران — ما عدا راويتها الجنوبية الغربية — ينزل فيها مسوى الماء الحوى واطنا . بحيث لا يسمح بضغط الماء بفود الثيران من الآبار . كما يجري في الهند . أو في وادى النيل . وبالطرق لصعوبات التي ينضمونها استيراد المكاب . وتشغيلها وصانها في بلاد غير متقدمة في العمران . فان عدد المصخبات الى تشغيلها المحركات لا يزال محدودا . غير ان براعة الملاحين وخبرتهم أدت الى ابداع الماء الى تزيد مساحة الأرض الى تروبيها على المساحة المرواة بأية وسيلة أخرى . وتآلف الماء من اسطوانة أفقية محوطة تدفن في قاعده الجبل حتى تصل الى الطبقات الحاملة للماء الصالح . فيمل الماء بالجاذبية الأرضية الى أسفل ، حيث يسهله الناس والحيوانات للرى والسقى . ويعتمد الناس والزرايع في هذه المناطق من ايران اعتمادا تاما على مثل هذه القنواب . مع العلم بأن عشرة بالمئة من المياه الجوفية فقط تستخرج بهذه الطريقة .

ومن الممكن أن يزداد تجهيز ايران المائى ازديادا جوهريا ، بانجاز مشاريع الماء الحديثه والواصح ان توظيف المال لهذا الغرض ضرورة كبرى لأى تحسين في مستويات الصحة الشخصية والصحة العامة . ولتقدم

الزراعة التي تعد عمادا لاقتصاديات البلاد . ويتطلب حزن الماء السطحي ، فضلا عن استخراج المياه الجوفية على وجه أتم ، مصاريف جسيمة وتصميما مترابطا . وفي بضع السنوات الأخيرة بدأ العمل في التصميم لذلك كله بمساعدة فنيين أجانب . وأخيرا وضعت الحكومة الإيرانية «مشروع السنوات السبع للتعمير^(١)» والغرض منه أن يزداد الإنتاج ومقدار المتوجب المصدرة . مع إنتاج ما يحياحه السكان داخل البلاد . وإصلاح شأن الزراعة والصناعة ، واستغلال الموارد المعدنية وخاصة النفط . وتنمية المواصلات ، وتحسين الصحة العامة ، والقيام بكل شيء ضروري لتعمير البلاد ، ورفع مستوى المعيشة بين السكان ، وتقديم الرفاهية العامة . وخفض تكاليف المعيشة^(٢) . وحصلت الحكومة الإيرانية من مجموع النفقات التي تبلغ ٢١ بليون ريال مبلغ ٦٥٠ مليون دولار بسعر التحويل الرسمي . أي ٢٥٪ للزراعة ، وفي البقية صرف ٨٪ ، أي ١٨٥٠ بليون ريالا على شؤون الري وإنشاء السدود .

ويبدو من المعلومات الموفرة^(٣) أن مجموع معدل ما يتوفر من الماء سنويا في إيران يريد على ٤٥٠ بليون متر مكعب . يضع منه في الوقت الحاضر ناسخرو والانساح من الأنهر حوالي ثلاثة أرباعه . ولتحسين هذه الحال سوف يكون من الضروري الاستفادة من الماء المصاع بالانساح من الأنهر . وفتح منابع جديدة لاستخراج الماء الجوفية . للحصول على كميات أوفى مما يجري الآن بواسطة القنوات وعادة استعمال بعض الماء

(١) من الأحوط أن لا يؤكد كثير على عدد السنين المقرون باسم المشروع . فسيما على عن المشروع لأول مرة أوائل ١٩٤٧ . حين اتخذ شكله القانوني . قراره في البرلمان الإيراني في ١٥ فبراير ١٩٤٩ . ليس من العجيب أن يمتد هذا المجهود الواسع النطاق الى مدة أطول .

(٢) المصرف المالى الإيراني . النشرة رقم ٩٨ (فبراير - مارس ١٩٤٩) ، المجلد ١٦ ، ص ٢٨٠ .

(٣) يرغب المؤلفان في الاعراب عن شكرهما للسفارة الإيرانية في واشنطن . لسماحها لهما بالاستفادة من « تقرير عن مشروع السبع سنوات لتنظمة المشاريع الناحية لحكومة إيران الامبراطورية ، شركة مشاورى ما وراء البحار » (نيويورك ١٩٤٩) .

التي تتسرب من مشاريع الري الموحودة في أماكن مرشعة . لرى الأراضي
التي يقل ارتفاعها . ويؤمل بهذه الوسائل أن تسد الحاجة السنوية من
الماء . ومقدارها حوالى ٥٠٠ مليون متر مكعب في السنة . وسوف
ستهلك مقدار ٩٧' من هذا المقدار للأغراض الزراعية . والباقي ما تتطلبه
المدن والمرافق الصناعية وقدره مليون متر مكعب . كما أن حوالى ثمانية
بلايين متر مكعب سوف تحفظ مسوى الماء الكافى للملاحة في نهر قارون
الذى يحمل خارج إيران حوالى ٢٤ مليون متر مكعب في السنة
وتخصص كميات عظيمة من موارد الماء للزراعة أمر ترمده القاسية
الانحاحية العظيمة التي يؤمل حصولها . إذ نذل أوثق الاحتياط المسند
على أنه بوحده بالإضافة الى الأحد عشر مليون فدان من الأراضي المروثة
بالحاصل والتسعة والعشرين مليون فدان من الأراضي النورية . حوالى
اثنين وثمانين مليون فدان أخرى قابلة للزراعة أيضا .

وفيما يلي نورد خلاصه عن أهم امكاسات سحر موارد الماء لإيران
واستثمارها . كما وضعت في مشروع السنوات السبع . وأول هذه
الامكانيات يأتي من نهر قارون وهو أهم نهر في إيران . في الجانب الممدد
غربي أصفهان . وفي مجراه الأسفل يتعرج قارون في سهل خورستان محي
بحو لجنوب . ويجرى كنه في إيران ، لكنه يعد من لوجهه جغرافيه
جزءا من مجموعة نهري دجلة والفرات اللذين يشاركهما في منطقة
منسهما . أي شط العرب . ولا يستعمل قارون في الوقت الحاضر
استعمالا كافيا لرى السهول الرسوبية التي تهددها الفيضانات دورية .
وأوصى مهندس بريطاني سنة ١٩٤٤ بإنشاء سد ووق بالقرب من شستر .
حسب يخرج النهر من الحال . وبدا يكون من المتطاع حزن كمية من
الماء تقارب أربعة بلايين متر مكعب . وسوف يقلل هذا الخزان من خطر
الفيضان الذي يعرض له سهل خورستان . بل سوف يؤدي كذلك الى
تقليل لمساحة التي تعمرها المياه الفائضة من نهري دجلة والفرات سنويا .
بالخلص من الصعوبات التي يسببها قارون بصريفه غير المسيطر

عليه . وسوف تكون للسد امكانية لتوليد القوة الكهربائية ،
ومقدارها ثلاثين ألف كيلو واط . وهناك قيد النظر الآن . بالإضافة
الى هذا الخزان — عدة مشاريع لرى خوزستان . ومن الاقتراحات أيضا
ان قسما من النهر يمكن تحويله الى منطقة المستنقعات فيما وراء الأهوار .
لترسيب غرينه واستعمال مياهه لتكوين اراض جديدة لزراعة الأرز (١) .
ثم ان التقليل المقترح لجري النهر سوف لا يؤثر على امكان الملاحة فيه ،
كما ان كميات الغرين المترسب في الدلتا العراقية سوف تقل ، وهي
الكسب التي يحتم في الوقت الحاضر انائها بأعمال لكبرى الباهظة
التكاليف .

وهذا في طور الاشياء الذي سمعت الاشارة اليه في ايران مشروع آخر .
وهو اصغر بكثير من سائر المشاريع الايرانية . ويتناول بعض منابع
قارون . ففي غرب أصفهان — على مسافة ٤٥ ميلا — توجد رابه ضيعة
تقسم حوضين لتجمع المياه ، ويوجد في غرب الرابية أحد منابع قارون ،
كما يوجد في شرقها نهر زيانده رود الذي يضع نفسه في البادية لايرابه .
ولكن بعد ان يغمر بالمياه منطقة زراعية غنية تقع حول أصفهان . ويحفر
الآن حق يحرق هذا المسيل ، لتحويل بعض مياه قارون لزياده ماء
زيانده رود . ومن شأن هذا المشروع أن يزيد في أهمية المشاريع المعده
لحفظ مياه زيانده رود نفسه ، واستغلالها بوجه أحسن ، ولذا وصفت
الحكومة الايرانية باعطاء أرجحية فائقة في ميراثه مشروع السنوات
السبع للدراسات والاستقصاءات الممهدة لهذه الأعمال .

وفي ايران يضع عدد من الأنهر الصغيرة هباء في المستنقع والبحيرة
المالحين الكائنين جنوبي طهران ، وأكثر هذه الأنهار أهمية فاسراح
وحاجيرود ، وهي التي تجري من جبال البرز في شمال طهران ، وهي
برغم تصرفها المتواضع ذات أهمية للاستثمار المتعدد الأغراض . بما في
ذلك تجهيز الماء الصالح للشرب والقوة الكهربائية للعاصمة الايرانية ،

(١) وردنجنون : المرجع السابق ، ص ٥٢ .

مع رى الأراضي الزراعية القريبة . وتمتدى الشوج بهر قاراج فى الربيع وأوائل الصيف ، ولذا يجرى فى الجهات العالية ذواب الجو الجاف وهو خال نسيا من الغرين ، اذا قورن بمعظم الأنهر الايرانية ، كما ان هوضه بمقدار ألف قدم تقريبا فى مسافة ستة عشر ميلا فقط يجعل توليد القوة شيئا ناجحا . وكان قاراج منذ سنين يحهر طهران بمعظم مائها الذى يجرى حتى العصر الحاضر فى مجرى مكشوف غير ملط داخل العاصمة الايرانية . وبالإضافة الى عدم صلاحية هذه الطريقة ، يكون ماء قاراج غير كاف خلال قسم من السنة ، وسبقى كذلك حتى يدبر أمر خزن المياه . أما نهر جاجيرود الأصفر فدراسته منتهية لتوليد لقوة وريده التجهيزات المائية لرى سهل قرامين ، وهو بقعة تبلغ سعتها حوالى ربع مليون فدان من الأراضي المزروعة القيمة بالقرب من طهران . وترتبط هذه الامكانات بمشاريع مماثلة على نهر لار الذى يتفجر على مقربه من جاجيرود . لكنه يجرى الى بحر قزوين .

وتوجد تحت النظر عدة مشاريع أخرى للرى . وهى تحصى بمخفف أنحاء ايران ، ومنها حوضا نهري كور ومند .

وادی دجلة والفرات

النصف الشرقى من الهلال الخصيب المعروف فى التاريخ واد عظيم واحد يرويه نهران هما دجلة والفرات . وفى مجراهما لطويل من برك نى الخليج الفارسى يكون هذان النهران مع الأراضي الى يحرقانها امكانات زراعية هائلة ، بالقياس الى غيرها من امكانات شرق الأوسط كله . والنهران كلاهما ينبعان فى تركيا ، لكنهما تتصرف اليهما مياه قسم من سوريا ، وحدود ايران الغربية ، وجميع القسم المسكون من العراق . وبعد ان يجرى الفرات مسافة ٤٢٠ ميلا فى سوريا ، و ٧٥٠ ميلا فى العراق ، وبعد أن يجرى دجلة مسافة ٧٧٠ ميلا فى العراق ، يلتقى النهران أخيرا فى القرنة ، حيث يبدأ شط العرب الى الخليج الفارسى . وهما يخترقان

خلال قسم كبير من مجراها مناطق من أشد مناطق العالم حرارة ، وأكثرها جفافا .

وهناك بلا شك مجال للإفادة من هذين النهرين ، وخاصة الفرات ، في تركيا للزراعة وتوليد القوة معا . على أن الخطط لاستثمار دجلة و فرات في تركيا لم تتجاوز حتى الآن مرحلة البحث والدقيق ، والحقيقة هي أنه لا يعرف الا شيء قليل عن ذلك الجزء من مجرى هذين النهرين . وأي تنظيم أو خزن يجري في المستقبل لمياه النهرين في تركيا ، ولتابع روافد دجلة العظيمة الأربعة في إيران . سوف يؤثر تأثيرا خطيرا على مقدار المياه في النهرين وجرهما في الأقسام الوسطى والجنوبية منهما . نرى في سوريا والعراق . وعلى هذا فإن استغلال دجلة والفرات على الوجه الأنسب يتطلب عقد اتفاقية دولية تمهيدية بين البلاد الأربعة التي يمر بها الأمر .^(١) على أن دراسة غير ميسرة أجريت في الوقت نفسه حول امكانيات استثمار دجلة والفرات في العراق وشمال شرق سوريا^(٢) ، وهو ما يتعلق بالبحث التالي .

ذلك أن السهل الرسوبي الذي يجري فيه دجلة والفرات يشبه وادي النيل المصري ، فهنا أيضا تكون الأمطار غير كافية للزراعة التي تعتمد على لرى من الأنهر منذ عصور ما قبل التاريخ . وفي كلا الواديين يندبذب الجهير المائي بين الفصول . على أنه توجد فروق هامة بين العراق ومصر . لأن دجلة والفرات معا يحملان مقداراً من المياه يقل عما يحمله النيل ، ويوفر مياههما في وقت غير مناسب - أي وقت ررع المحاصيل الصيفية . وبسبب ذلك عن كون النيل ينبع من جبال استوائيه فينجه شمالا ، بينما يجري النهران في اتجاه جنوبي من أجواء معتدلة . يضاف الى ذلك أنه يصعب رفع

(١) أشار السيد عبد الامير الازري ، معاون مدير الري في العراق في ١٩٤٤ ، بأن أي استثمار زراعي واسع النطاق يجري خارج العراق ، ويستمد الماء من الفرات خلال موسم هبوطه ، سوف يؤثر على مصالح البلاد تأثيرا خطيرا . انظر تقرير مركز تمويل الشرق الأوسط المشار اليه سابقا ، ص ١٨٠ .

(٢) محافظة الجزيرة والقسم الشرقي من محافظة الفرات .

مستوى الماء بسدات في أراضي ما بين النهرين المسطحة أكثر مما يصعب في وادي النيل الضيق . وتتج عن ذلك أن الري في السهل الرسوبي العراقي اعتمد في السنوات الماضية على رفع المياه الى أعلى بالمضخات . كما أن مشاريع منع الفيضان الجديدة تستند أحيانا على الاستفاده من المضخات الموجودة بقرب الأنهر . وبينما أدت فئة الأراضي القليلة للرياعه في مصر فضلا عن احتشاد السكان أن تصبح الرياعه كئيفه سنه بعد أخرى فان المقدار العظيم من الأراضي القليلة للرياعه في العراق . وسه السكان الى الأرض . انعكس تأثيرهما في شوع الرياعه المتسعه حتى في الأراضي المعتمده على الري . ولذا نقش الملوحة في مساحات وسعه من الأرض بالقرب من الأنهر . لانعدام وجود الصرف (البرل) واضمح هذه الأراضي يائرة (١) تماما .

وعلى الرغم من هذا يملك العراق أعظم احصائي من لقاسه المساحه في الزراعه في الشرق الأوسط . لأن حوالي ثلاثين مليون دونم (فدان) من أراضي العراق فيها قابلية كامنه للرياعه . ومن مجموع الأراضي فيه توجد ١٩٨ مليون دونم في منطقه الري . ولا يزرع من هذه المساحه الآن الا سبعة ملايين دونم . كما أن ٣٣ ملايين دونم فقط تزرع بالفعل في كل مره (٢) . ومن المعروف أن مليوني فدان في سوريا يمكن أن تحصد للرياعه اذا استعملت مياه القرب وروافده استعمالا مناسباً (٣) . وتدل هذه الأرقام على أقصى حد من مكتمه الأراضي المحيطه بدحيه والقرب . وأما المقدار الذي يمكن الاستفاده منه عمليا . فسوف يكون أقل بالنظر

(١) راجع ويربر : المرجع السابق ، ص ١٠٢ ، وكذلك وودنجون : المرجع السابق ، ص ٤٨-٥٠ . انظر أصلا ما كبه فرانك م . أيون بصوان : رياعه الري على طول النيل والقرب " في مجلة ساينسك أميريكان ، مجلد ٥٩ (١٩٤٩) ، ص ٣٤-٤٢ .

(٢) ويربر : المرجع السابق ، ص ٩٩-١٠٠ . وهناك بالإضافة الى ذلك عشرة ملايين دونم في القرب من الأراضي التي تسقيها مياه الأمطار لا يزرع منها في الوقت الحاضر غير مليون ونصف فقط .

(٣) تقرير الولايات المتحدة - البعثه الزراعيه الى سوريا (واشنطن ، سنة ١٩٤٧ ص ١٣) .

لعدم وجود الماء . غير ان الوصول الى هذه الأهداف يتطلب أعمالاً
متسعة ، للتخزين والصرف ومكافحة الفيضان والري .

ويجرى العمل في سوريا خلال واد متسع يسمح بتحقيق امكانيات
الري الواسعة النطاق كما يسمح بذلك نهر الخابور وهو الرافد الأكبر للفرات .
واد لهم تها وسائل الحزن لهذه المياه . فان تحويلها في سوريا سوف
يعارض مع استعمالها في العراق . وعلى هذا فان أحد مشاريع الفرات
الذي يمكن تحقيقه في سوريا هو إنشاء سد وخزان في يوسف باشا .
حيث يمكن أن يحزن حوالي مليون ونصف متر مكعب من الماء لارواء
٣٠٠٠٠٠ هكتار تقريبا ، وسوف يجهز الخزان أيضا بمقدار ٣٠٠٠٠٠
كيلو واط على الأقل لتوليد القوة الكهربائية . وهناك مشروع آخر
لري لجريره . باستغلال الخابور استغلالا أكثر فائدة مما هو حاصل في
العصر الحاضر .

وفي العراق تؤخذ معظم مياه الفرات الآن لري من فوس سدة الهندية ،
حيث يتغير قاع النهر بسبب الترسيب ، وتحدث الفيضانات سنويا
بصورة منتظمة . وفي هذا القسم من البلاد تخدم الفيضانات غرض
ري الحياض . لكن هذه المنطقة وسائر المناطق تحدث الفيضانات فيها
أضرار بالزروعات . حتى انها تهدد بغداد بالخطر . وأكبر عمل انشائي
وضع للفرات في العراق هو مشروع الحباينة الذي بدأ العمل فيه قبل
الحرب العالمية الأولى ، لكنه بقي معلقا مدة تزيد على العشرين سنة ،
وهو مشروع لمكافحة الفيضان . والمشروع يعتمد على الاستفادة من
بحيرة الحباينة التي هي عبارة عن منخفض في البادية ، بالقرب من ضفة
النهر البمنى عربي بغداد . وسوف يشمل هذا المشروع عند انتهاء
العمل فيه على سد للتحويل يقام على الفرات ، وعلى جدول ينقل
الماء الى البحيرة ليخرج منها الى منخفضين جنوبي الحباينة ، حيث
يمكن تخزين كميات أخرى من الماء فيهما . وستكون سعة التخزين في
الحباينة بعد أن يتم إنشاء الخزان حوالي ثلاثة بلايين متر مكعب ،

وسوف يساعد هذا الخزان على ضبط فيضانات الفرات ، وتوسيع رقعة
الرى الى ميون ونصف دويم أخرى . مع اضافة مياه الفرات في موسم
الجري الواطيء .

ومنابع مياه دجلة أعلى من منابع مياه الفرات ، كما ان الأمطار الهائلة
عد منابعه تتحدر انحدارا أكثر . ولدجلة بالاضافة الى ذلك أربعة روافد
كبيرة في العراق ، وهي تجرى بانحدار كبير الى واديه . وعلى هذا فان
فيضانات دجلة أكثر خطورة وأصعب تكهنا بها من فيضانات الفرات ، وهي
بذلك تهدد بغداد على الدوام . على انه من حسن الحظ أن تكون معظم
روافد دجلة داخل العراق . مما يؤدي الى توفر فرص أحسن للسيطرة
لأمة على مياه دجلة في مرحلة أبكر . بانشاء مشاريع تقع في بلاد واحدة ،
هي العراق . وهناك الآن على دجلة سدة كبيرة واحدة هي سدة الكوت
التي أنشئت أسفل السهر سنة ١٩٣٩ . وهي ترفع مستوى الماء بحيث
تسمح بارتواء مساحة كبيرة من الأرض . ومجرى دجلة في أسفل الكوت .
مل الفرات في أسفل الهندية . كلاهما عبر مسير وغير قابل لتحديد دائما .

ثم ان أهم مشروع لضبط الفيضان على دجلة ، وهو مشروع وادي
الثرثار ، يشبه مشروع الحسانه على الفرات . ولكن مقياس أوسع
بكثير . ذلك أن وادي الثرثار يمتد بمواراة دجلة من الغرب ، ويجري
فيه الماء خلال مدة قصيرة من السنة ، ينخفض طويل يمكن أن يستعمل
خزانا طبيعيا يحتفظ بمياه فيضان دجلة ويعيدها الى النهر في أوقات
هبوط مستوى الماء فيه . وينطلب هذا المشروع اثناء سد لتحويل المياه
الى النهر ، وحفر جدولين ينقل أحدهما المياه الى الوادي ويعيدها الثاني
الى النهر . ومثل هذا الترتيب سوف يسمح بوليد القوة الكهربائية
المائية ، وتوسيع المساحة المزروعة في جوار المشروع . وبحفر مخرج الى
الفرات يمكن أن يستعمل خزان الثرثار لترويد كل من دجلة والفرات
بالماء في أوقات هبوط مستوى الماء فيهما .

وللسيطرة على مياه دجلة ، ولزيادة سعة خزن المياه . وضعت الخطط
لانشاء سدود للخزن في أعالي دجلة وروافده ، مثل نهر ديالى . وبذا سوف

يؤدي إنشاء سد ديالى الى تخفيف الضغط على جريان دجله بالقرب من بغداد ، واتقاذ وادى ديالى نفسه من شر الفيضان ، كما ان ذلك سوف يسمح بتوسيع رقعة الزراعة على طول ديالى وبقامة مكائن لتوليد قوة مقدارها ٣٠٠٠٠ كيلو واط ، على مسافة ٦٥ ميلا من بغداد .

وبما ينظر فيه من المشروعات أيضا سد الفتحة على دجلة ، على مسافة ٦٥ ميلا شمالى سامرا . وسوف يكون من ذلك خزان يشبه في سعته خزان الثرثار فضلا عن سد نجمه على الراب الكبير . وسد دمر على نهر العظيم . وسد دوكان على الزاب الصغير . والهدف الرئيسى لهذه المشاريع في مجموعه نهر دجله هو ضبط الفيضان . لكن قابلية الخزن التى تشأ عنها ، وجداول الري التى يؤمل فتحها ، سوف تساعد على وضع مساحات كبيرة من امكبات العراق الزراعية موضع الاستعمال . كما ان الاستغلال للماء في هذه المساحات يوقف أيضا بطبيعته الحال على إنشاء المبارل الكافية لارالة الملوحة في قسم كبير من اراضى العراق الرسوبية . ويساعد على نشوء نظام زراعة الري المتسعة الخاصة به .

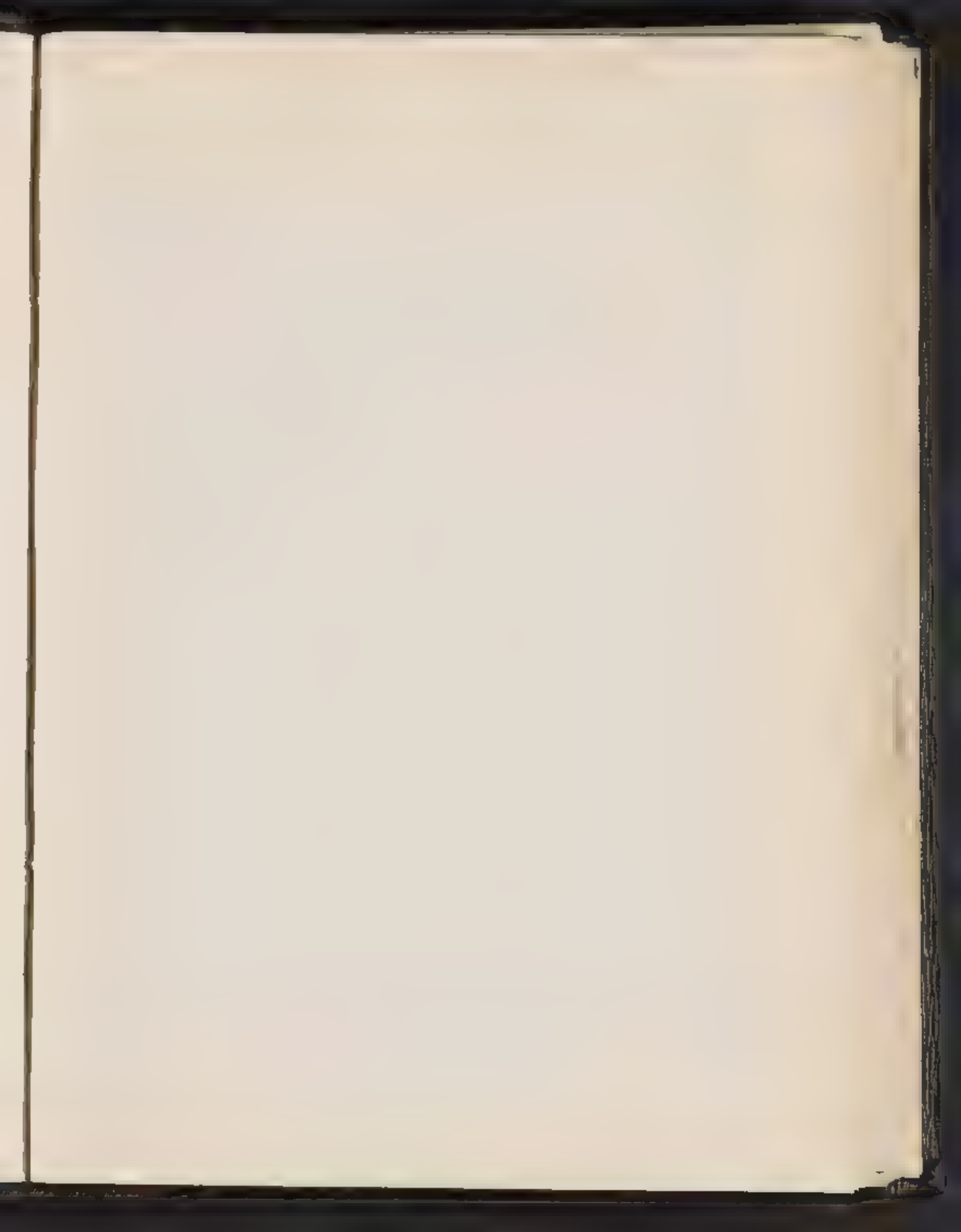
ولو ألقينا نظره على خارطة دجله ومشاريع الاستثمار التى يؤمل تحقيقها على روافده ، وعلى النهر نفسه ، نجد أوجه شبه مذهشة بنهر النسى ووسائل تنظيمه . والواقع أن ضبط دجلة والفرات المجاور له على الوجه الأتم سيولد انقلابا في حياة المنطقة لا يقل عما حدث بفضل مشروع وادى النسى في المنطقة التى يحرق فيها . ويصح الشئ نفسه لسائر مشاريع الاستثمار المائى المعددة الأغراض التى أشرنا إليها هنا . وبفضل المناهج لاستغلال الماء والأرض والمحافظة عليهما يستطيع الشرق الأوسط أن يتقدم نحو تحقيق امكانياته الاقتصادية ، وتأمين مستوى كاف من العيش لسكانه . وسوف لا تزول الموانع المتنوعة التى تفق في سبيل هذه المدهج بسهولة ، وربما يستغرق انحرار الكثير منها عقودا من السنين ، غير ان خطوات أولى بطيئة يمكن أن تتخذ الآن ، لتحقيقها بالدراسة الكافية والوسائل العلمية المتواضعة .

جعفر خياط

دروس من الشرق الأوسط

تأليف
روجر سولتو

ترجمة
عمر فروخ



يجب في المقام الأول أن نعرف مدلول اسم الشرق الأوسط ، واني في هذا المقال أحصر كلامي في البلاد التي تتكلم اللغة العربية . وتطل على الشاطئ الشرقي من البحر الأبيض المتوسط . أي البلاد التي كانت جزءا من الامبراطورية العثمانية . سورية ولبنان وفلسطين والعراق . والتي أصبحت بعد الحرب العالمية الأولى تحت الانتداب ، ولم تحرمها أحوالها السياسية أن تظل متحدة في النواحي الاجتماعية والثقافية . واني لا أزال بعد نحو عشر سنين من الاحبار في التدريس بين طلاب تلك البلاد أسأل نفسي في ذهني عما إذا كان ما تعلمه أنا لم يكن أكثر مما علمه . واني لأعتقد أن هذه الدروس التي تعلمتها تسحق أن يشاركني فيها زملائي . من الباحثين في التاريخ والسياسة في الغرب .

إن أول ما يسرعني اتساعها في هذا المقام ان ما سمي شرقيا أو بعدة كذلك . لا يمثل الخصائص الشرقية المعروفة في التطور الاجتماعي والثقافي العام . وهو التطور الذي تشترك فيه معظم الحضارات . وينبغي هذا التطور في الشرق . على وجه التقريب . ما بلعه الغرب في أعقاب العصور الوسطى ، مع مظاهر أخر تذكرنا من ناحية بدء الثورة الصناعية . وتعيد الى ذاكرتنا من ناحية ثابته عصر النهضة الأوروبية .

فهل معنى هذا ادن أن الشرق الأوسط متخلف خمسة قرون عن الغرب . أم أن الغرب متقدم عليه هذا العدد من القرون ؟ على أن الفصل في هذا الأمر ليس سهلا أبدا . وينبغي أن نعود بذاكرتنا أولا الى القرون الأولى من العصر المسيحي . حينما كان الشرق الأوسط جزءا أساسيا من الامبراطورية الرومانية . ويتمتع في ظلها بجميع ما أضفته الحضارة اليونانية الرومانية على أجزاء تلك الامبراطورية سواء بسواء .

على أن تقهقر الحضارة . وهو من دلائل ما سمي سقوط الامبراطورية الرومانية ، كان أخف تأثيرا على الشرق منه على الغرب ، ولذا ظلت

بزنطة ترى نفسها صاحبة الحق في المجد الرومانى . وكادت أن تؤسس
سلطانها في جميع المقاطعات التى ايسط عليها سلطان روما من قبل .
ولكن خيبة جستنيان وما تلاها من تقويض للحكم البزنطى في المشرق
على أيدي العرب . من غير أن يستتبع ذلك تفهقر الثقافة أو الاقتصاد
فيه . أدى الى بزوغ حضارة اسلامية شمت طريقها في عرص فريقة الى
الأندلس . حيث بلغت الحضارة الاسلامية ذروتها . على حين كان الغرب
في أحلك أيامه ، في القرن التاسع والقرن العاشر والقرن الحادى عشر
للميلاد . ولو أن عربا معاصرا لشارلمان أو لألفريد الكبير أو لوليم الفاتح
نظر الى الأوربيين — هذا إذا رأى أنهم خيرون نظرة اليهم — لألفاهم
شعوبا فطرية تجهل فن البناء والطافة الصحية . وتجهل الطب والفلسفة .
وكل شئ يجعل هذه الحياة حلقة باسمها . كان أولئك الأوربيون
يسكنون أراضى باردة رطبة قاحلة . ويمشون عيشة تجعل كل تقدم
صحيح مستحلا . وتقضى بأن يظل أولئك الأقوام أبدا على مستوى أدنى
من المستوى الذى تتمتع به الشعوب التى ورثت نعمة الشمس المشرقة
وثقافة المشرق .

أما الآن فانقضت الآية . فالرحل العربى هو الذى يردى اليوم
انخفاض المستوى للحياة الشرقية . ويأسف لحال العامل الشرقى . ولما
يناوله من آخر ضئيل . ولما هو فيه من حياة ناعسة . ولكنه يعود فيقول :
ماذا نل من بلاد ينسدر فيها سقوط الأمطار . وتمل الأرض فيها
محالا شديدا ؟ ان مثل هذه الأحوال تجعل كل تقدم صحيح مستحلا .
ثم هى تقضى على لشعوب التى تسكن تلك البلاد بأن تكون أبدا متأخرة
وراء الأمم الراقية الموهوبة التى تتمتع بالجو المعتدل .

ونحن لا نحتاج الى أن تؤكد الجانب السطحى من هذا المنطق ، سواء
أكان ميا على الجو أو على الخصائص والعادات الموروثة . وليس
ثمة من ينكر أثر الجو في الحضارة . وان مما لا ريب فيه أن الرومان
والعرب الأولين أفادوا من مصادر للرى جفت الآن . وأدى خفافها

الى محل اراضي كانت من قبل خصبة ، لأن وجود خرائب لمدن كبيرة مثل جرش وتدمر في وسط ما نسميه اليوم صحراء . دليل على ما نذهب اليه . ولكن أثر الجويعفصل عن قدرة الانسان على مقاومة عوامل بيئته . اذ أنه يتجاهل مظاهر كثر . مثل تحول الطرق التجارية . والعثور على مصادر جديدة للمواد الخام . وفتح الأسواق الجديدة . واحتراع الوسائل الحديثة للانتاج والنقل . وبكلمة أخرى . لم يكن ثمة عامل دائم في تأخر الغرب في العصور الوسطى . ولا في عظمة الشرق في تلك العصور نفسها . كما أنه ليس ثمة ضرورة تفضي بأن يقتل الشرق الحديث مآحرا . أو أن يبقى الغرب عظيما كما هو اليوم . ان ما كان مرحلة في حياة أحدهما يمكن أن يكون في حياة الآخر أيضا مرحلة فقط .

ومن الحقائق الثابتة ، على كل حال ، أن الازدهار العظيم للحضارة العربية تبعه أولا تقهقر فجائي سريع ، ثم تلا ذلك أيضا قرون من الانعزال والركود الجريئ من النواحي السياسية والاقتصادية والثقافية ، في وقت كان الغرب فيه يمد آفاقه مدا سريعا لا تكاد تقف عند حد . أما سؤال هنا فهو : لماذا حدث ذلك . وكيف حدث ؟ والأجوبة عنه من التاريخ لا تزال ضئيلة وغامضة الى حد يدعو الى خيبة الأمل .

أما أحد هذه الأجوبة فهو بلا شك . أن الحضارة العربية لم تتفهم فحسب ، بل تقوضت على أثر غزوات المغول والفتح العثماني . ومع أن المغول والأتراك اعتنقوا الاسلام . فحرصوا من أجل ذلك على أن يظل عدد من المظاهر الاسلامية نابضا بالحياة . فانهم أساءوا فهم الأحوال السياسية والاقتصادية التي قامت عليها الثقافة العربية اساءة تامة . مثال ذلك أنهم أقاموا تقسيمات سياسية خلفت حواجر اقتصادية مصطنعة . فمطلوا بذلك حركة التجارة . ثم انهم أثقلوا كواهل رعاياهم بالضرائب الباهظة . حتى أن مدنا بأسرها حل بها الخراب . بعد أن عجزت عن دفع الضرائب . أما احتكار القمح وسواه من الحاجيات فانه رفع مستوى الأسعار ، وترك الشعب في فقر مدقع ، ثم ان الحروب والدمار والأوبئة لم تنقطع قط .

غير أن هذا كله صحيح في ما يدل عليه فقط ، ولكنه لا يكاد يفى في
تعليل القضية من جميع نواحيها . وعلى الرغم من بحوث الأستاذ تويبى
الرائعة . فإن المشكل المتعلق بالأسباب التى تؤدى الى تفهقر الدول
والحضارات ، ثم الى سقوطها ، لا يزال ميدانا بكرًا ينظر مؤرخى العد .
ما السبب فى أن المجتمعات المختلفة يجرى تطورها حسب درجات مختلفة
من السرعة ؟ لماذا وقف نمو الصين فجأة بعد قرون عديدة من التقدم ؟
لماذا استطاعت اليابان أن ترقى بمثل هذه السرعة بعد قرون كثيرة من
التأخر الاقتصادى . وكيف تم لها ذلك ؟ ما الأسباب الحقيقية لتفهقر
الرومان ، ولانكسار أوروبا فى عصورها المظلمة ؟ أفيجب علينا أن نقسح
فى هذا كله محالا لعنصر الاتفاق ، على ما يرى هنرى بار فى كتابه
الذى عنوانه التأليف فى التاريخ ، كما نقسح مجالا لعنصر الشخصية
لإنسانية التى تقحم المناسبات ثم تحول مجراها بنلك القوة الخفية
التي هى قوة الفرد فى الفطرة الفاتكة ؟

أما الآن فيجب علينا أن نعود أدراجنا قليلا الى النقطة الأساسية ، أى
الى الشبه بين المظاهر الرئيسة للحياة الاجتماعية والاقتصادية العربية
وبين المظاهر التى وضحت فى العصور الوسطى فى الغرب الأوروبى .
ما الخصائص التى كانت لحضارتنا نحن فى العصور الوسطى ؟ ان أولى
الخصائص الأوربية بلا ريب هو تمارج المجتمع الدينى بالمجتمع المدنى
الى حد كان يصعب فيه تمييز أحدهما من الآخر . ذلك أن الكنيسة
الكاثوليكية أشرفت وقذاك على جميع ميادين الحياة الى تشرف اليوم
عليها الدولة : المستشفيات ، والأسعاف ، والتعليم ، واستقبال المسافرين .
أما المحاكم الكنسية . فكانت تفصل فى الزواج والوصية ولارث والربا .
والزندقة . وكان الانتماء الى الكنيسة أمرا لا مفر منه من يوم الولادة ؛
ثم ان الحرمان من الكنيسة كان موتا معنويا ، ان لم نقل موتا طبيعيا .
بعبارة أخرى لم يعرف الناس فى العصور الوسطى (فى الغرب) شئ من
المدرك المدنى للمجتمع .

ان هذا الوصف يمكن أن ينطبق انطباقا كلياً على الأحوال الحاضرة في العالم العربي ، إذ القصد في العالم العربي اليوم جزء غير متصل سياسياً واجتماعياً من الجماعة الدينية التي ولدتها ، ثم أن لكل مذهب مثلاً تشريعاً الخاص بالطلاق ، والأرث ، وسائر الأحوال الشخصية . والدولة تعرف بهذه الأنواع من الشريعة . وتتمرد في محاكمها ذعاب إلى ذلك ضرورة ^(١) . وكذلك الانتخاب في العالم العربي يجري على الأسس الطائفية ، والنواب عموماً موزعون بالنسبة إلى القوة العددية للطوائف ^(٢) . وكل إنسان يذهب إلى الاقتراع على أنه فرد من صائمه معينة .

ومراكز الدولة أيضاً مورعه بين الطوائف بنسبة عددها . تصرف النظر عن الكفاءات التي يستمع بها أصحابها . والاديرة لا تزال تستعمل المسافرين ، وجميع المدارس تخص عملياً هذه الطائفة أو تلك ، حتى أن إشراف الحكومة على المدارس التي تسمى مؤسسات رسمه يبلغ حداً لا يحتم به أشد المتعصين في الغرب ^(٣) . فلو أن رجلاً كاثوليكياً من أهل العصور الوسطى بعث اليوم في العالم العربي . رثف الحداثة في مجتمعاته انه . وفي النص ، ان الاسلام كما يذكر الأستاذ جب في كتابه الذي عموماً ، أين يطور الاسلام ، مجمع متكامل مبني على أسس دينية يسم جميع مظاهر الحياة الانسانية ، وان الذين عاشوا في العصور الوسطى كان بإمكانهم أن يفهموا ذلك . بل فهموه فهماً تاماً . وهذا نحن نولاء اليوم نعالج مجتمعاً لا يزال قلبه ينبض بهذه المدارك الموروثة من العصور الوسطى . ومن هذه المدارك ان الانشقاق بين الاسلام وصرائه .

(١) تقدم اليها مرة اقتراح بأن الحل الوحيد لمشكلة الطلاق ، والذي يمكن أن يقال رضا الناس هو أن يقيّد الزوجان بتوايين الكنيسة أي المذهب الديني ، التي ععدت رواحتهما . على أن يبدو فكرة مثالية في هذا الاقتراح هو القاعدة المتبعة في العالم العربي .

(٢) تقدم الكاتب على ذلك مثلاً نواب بيروت وبنوريعهم الطائفي . ولكن هذا التوزيع تبدل الآن .

(٣) هذه الاحكام ربما تصدق على الجمهورية اللبنانية وحدها .

في العصور الوسطى أقل كثيرا مما صار اليه فيما بعد ، فمن أسباب ذلك أن المجتمعين كليهما كانا يقومان على أسس تكاد تكون واحدة ، والآراء السائدة كانت تتجه تقريبا اتجاها واحدا . ولقد كان لهما كليهما . وإلى حد بعد أيضا ، استشراف الهى واحد لهذا العالم . أجل ربما كان عدوين . ولكن كل واحد منهما عرف على الأقل خصمه . وكانا كلاهما يتحاربان بوسائل روحية ومادية واحدة . ثم أن لأساناذجب يحضو بمادسته هذه خطوة واسعة حينما يسه على أن الاسلام انتشر من فب حزيره لعرب الى العالم الهلنستى وارث الحضارة اليونانية و رومانية . وان معظم ففوحاته كانت في ذلك العالم . وهكذا تسربت الثقافة اليونانية الى الجبه العقليه في الاسلام شيئا فشيئا ، حتى أن علم الالهيات فيه مدين لأرسطو . وهكذا نشأت جميع الثقافة الاسلاميه في أسسها غربه مُرع . وهى من أجل ذلك أقرب ابنا من ثقافات الهند والشرق الأقصى . واذا نحن سمينها شرقيه فانما نكون أخطأنا التسمية ، لأنها ليست شرقيه مطلقا . ولكنها شرقيه في امدادها المحلي . أى أنها الفرع الشرقى للحضارة الغربية .

فما ما سبق قوله في الصلة بين الفرد والكنيسة . فليس في الحقيقة الا مظهرا واحدا من مشكله أوسع نطاقا . وهى صلة الفرد بالمجتمع عموما . وفي الحق انه من الصعب أن نتكلم عن الفرد في العصور الوسطى . فان الانسان في تلك العصور لم يوجد الا مضافا الى جماعة صغيرة : من قطاع . أو نقابه ، أو كهنوت . أى من جماعة تملئ عليه حياته اليومية . وتكون له مره سجننا ومرة ملجأ . وهذا نفسه يصدق على الفرد العربى (اليوم) . الا أن جماعته يغلب عليها أن تكون اجتماعية لا اقتصادية ، وهى القرية حيننا والاسرة دائما . هنالك مثلا التملك للعقار باسم الاسرة . وهالك الانفاق بين الاسرة على زواج الأفراد منها . وهالك الحياه الجماعية للاسرة في منزل واحد . وهالك رقابة الاسرة على الفتاه ، وهنا لك تفوذ الاسرة في السياسة ، وفي كل ما يتصل بالسير في طريق

الحياة في هذا العالم . وليس ثمة مدرج من مدارج الحياة يستطيع نمرّد
العربي أن يفلت فيه مما هو معروف باسم نظام الأسرة . وهو أحد
العوامل التي تشمل الحياة الشرقية .

وهنا لك ، بكل تأكيد ، جانب آخر لهذا التضامن في الأسرة . فدا
كانت الأسرة اشرفه اليوم - كما كانت الجماعة في العصور الوسطى -
سجنا فانها تكون وسيلة من وسائل الفوت في أيام العنف الاجتماعي .
أو أيام الضيق الاقتصادي . الواقع أن الأسرة تجتّرح المعجرات في ميدان
الوفاء والتضحية ، فترسل الشاب الباه (الفير) من أفرادها إلى الجامعات .
أو تدفع عنه أسوأ كوارث الطلّة والمرض . والتضامن في الأسرة هو أحد
العوامل التي تتيح للعمال أن يعيشوا في مجتمع اقتصادي عثماني .
ولو كان ذلك المجتمع لا يزال في دور التطور . ويندرج جدا أن يترك فرد
في مثل المجتمع في الشرق يصارع الحياة وحده ، وفي هذه الحقيقة يجب
أن نبحث عن سبب المقاومة التي يبديها كل شعب إذا أظلمت الأزمات .
وفي ذلك الشعور من الاعتزاز بالأسرة والتضامن فيها يكمن العلاج
الرئيسي لكل قنوط (١) .

وفي التعليم أيضا لا يرى أن الشرق الأوسط يقدم إلى ما فوق التطور
الذي بلغه الغرب في العصور الوسطى . إن التعليم الذي تمتع به
الكهنة في تلك العصور جعل غاية تحريج الفس . واعداد طغمة
محدودة من الموظفين . أما التعليم العام فلم يكن من الساحة العلمية
موجودا ، ولذا كان المرء في العصور الوسطى إما أميا تماما . أو مبتدئا
بمبادئ من التعليم الذي لا بأس به . وهذا يقصده يصدق اليوم على بعض
مناطق العالم العربي . بل يصدق على كثير منها لسوء الخط . هالك عدد كبير
من المدارس الثانوية ، ونقدر ما تستطيع البلاد أن تتحمل على الأرجح .
لامداد البلاد بالأطباء والمحامين والموظفين الرسميين . على أن العام

(١) من تقرير رفعة المددوب السامي الفرنسي في سورية ولبنان ،
عام ١٩٣٤ إلى لجنة الانتدابات .

العربي ينقصه الرجال الفنيون والصناع البارعون ، أما الأمية فانها واسعة الانتشار ، ونسبتها تختلف ما بين ٤٠٪ وبين ٩٥٪ باختلاف البلاد ، وباختلاف الجنس ما بين ذكور وإناث .

غير أنه أتيج لنا - في ما يتعلق بذلك - أن نصصح ظن كثيرين من العربيين . اننا نحن العربيين نسهم الأمية على أنها مستوى من الجهل قريب من العجز العقلي ، وهذا يصدق على عدد من الأميين في الغرب ، ولكنه لا يصدق على البلاد التي تكون الأمية فيها نتيجة لفقدان الفرص المتاحة أمام الناس لحصل العلم . ولو أن أحدا قضى وقتا قصيرا في مجتمع تشر فيه الأمية انتشارا لا يرجع الى تقصير السكان أنفسهم ، لرأى بعينه الى أي حد تستطیع الحياة والاحتكاك بالرجال وبالحوادث أن يعما بلا كتب . وهذا اذا كان الذكاء الفطري والرغبة في العلم موجودين . ومن الحق أن نقول ان أحدا لم يعجب اذا لم ير - في مثل هذه الحال - عددا من الأميين يلمعون من المقدرة على التفكير الشخصي أكثر من المقدرة التي يلمع اليها أولئك الذين يحاحون الى ورقة مكتوبة ترسم لهم فيها كيف يجب أن يفكروا . لا في السياسة فحسب ، بل في الفن أيضا . وفي الأدب ، وفي الفلسفة ، وفي الدين . وكذلك لا يحوز أن ننسى أهمية الكتب في مجتمع تعلب فيه الأمية ، لأن الكتب في مثل هذا المجتمع لا تقدر حق قدرها فقط ، بل تدور أيضا بين الناس ، ثم تصبح شه مراكز يجذب اليها القراء والسامعون . وفي مثل هذا المجتمع يصبح الفرد الذي يعرف القراءه ناشرا للأراء وللتسلية ، ومن المشاهد المألوفة في الشرق الأوسط جماعات من الناس يصفون في ساحاب المقاهي الى شخص يقرأ لهم بصوت مرتفع . ولقد كان قرب بيتنا فران يقرأ لجيرانه قصصا تاريخية . وينبغي أن نذكرها أن تغيرات كبيرة ، لا تقل في ناحتها الثقافية عنها في ناحتها السياسية . حدثت عددا في غرب أوروبا أثناء انتشار الأمية ؟ ما عدد الذين كانوا يقرأون ويكتبون في أوروبا أيام الاصلاح الديني ، أو زمن الحروب الأهلية في إنجلترا ، أو قبل الثورة الكبرى في فرنسا ؟

أجل ، انه ليس لدينا احصاءات لذلك في تلك الأعصر ، ولكننا نعلم يقينا أن الأميين في فرنسا في عام ١٨٣٠ كانوا ثلاثة أخماس السكان ، أما في إنجلترا فكان عدد الأميين في عام ١٨٤٠ خمسي السكان . أي ثلث الرجال ونصف النساء . ونحن نرى من يخلص الكتب والجرائد والمدارس فستها . ولكن يجب ألا نمزج بين التعليم الصحيح وبين قراءة الكتب أو الشهادات الجامعية .

ثم هنالك مقاربات أشد غرابه تبدو لنا ، اذا نحن انتقنا من ميدان الاجتماع الى ميدان الاقتصاد . ما الخاصة الأساسية التي كانت للحياة الاقتصادية في العصور الوسطى ؟ انها الفقر بلا ريب ! ولكن هذا لا يصدق على العصور الوسطى وحدها . ومثال ذلك أن المؤرخين وصفوا الفساد الذي تنبع من الترف والثروة في العالم القديم . ولكن الأستاذ فرارو سرعى انتباهنا في كتابه تاريخ روما بقوله ان مستوى المعيشة كان في العصور القديمة منخفضا جدا . ان قصور القدماء كانت في الحقيقة أبنة بسطة قليلة السور . ولا تعرف التدفئة الا نادرا . أما ما أدبهم فترجع شهرتها الى ما كانت تضم من كثرة الطعام . لا نوعه الفاخر . ثم أن القيود التي فرضها أغسطس على الصفقات المتعلقة بالثياب والعشاء تدل على أن الرومانيين لم يكونوا يملكون أموالا ينفقونها في تلك الوجوه . وعلى هذا القياس بالعصور القديمة لا يمكن أن يكون الترف في العصور الوسطى شيئا مذكورا . كما تدلنا الاحصاءات التي بقيت لنا من ذلك لعصر . ذلك ان مجموع الصادرات التي كانت تشحن من مرفأ أوربي في العصور الوسطى خلال عام كامل لم تكن تملأ باخرة من بواخر اليوم . بل ان متجرا صغيرا من متاجرة اليوم يحتوى من الأفاويه على مقدار كان يكفي أوربا كلها أشهر كثيرة . وتظالنا أحيانا أخبار جلايين أرسلهم التجار من ألمانيا الى الندقية ، ليشتروا ستة عشر كيسا من القطن ، وأما نقاد بضع مائة قطعة من النسيج في عام من الأعوام فكان يدل على حسن الأحوال التجارية في ذلك العام . ولنصرب على ذلك أمثالا من الأرقام

الباليه : في عام ١٣٤٥ م بلغت تحارة الصوف في انجلترا ٣٢٩٩٣ كيسا . ثمن الكيس منها ست ليرات انجليزية . يضاف اليها نحو ١٣ر٠٠٠ قطعة من النسيج ثلثها فقط من نوع فاخر حقا ، وثلثها لا يصل الى مائتي ألف ليرة انجليزية . وكان في مدينة ريفال . احدى مدن الهسا ، ١٩٨ تاحرا يملكون في عام ١٣٦٨ م اثني عشر مركبا . أما لوبك ، وهي من أشهر مرافئ العالم . فقد أرسى فيها دلت العام نفسه ٤٣٠ مركبا ، وأفلح منها ٨٧٠ مركبا . أي ان الحركة في ذلك المرفأ لم تصل الى أربعة مراكب في اليوم . ما بين ذاهب وقادم ثم ان كولشستر . وهي مركز من المراكز الرئيسة لصناعة النسيج في انجلترا . كان يسكنها عام ١٣٠٠ م نحو ألفي شخص . لا يحاور عدد الأعياء الكبار منهم عشرة . وفي مدينة رديج في انجلترا كذلك كان ثمانية رجال فقط يستطيعون ان يتسلحوا من مالهم الخاص . ثم ان صالة الأجور وانخفاض الأثمان على وجه العموم يدلانا على مستوى المعيشة يومذاك ، بل تعين على الدين يطلبون الترف الحقيقي في صدر العصور الوسطى ان يذهبوا الى القسطنطينية ، أو الى بغداد .

أما اليوم فان الفقر . بل الفقر المدقع ، هو الصفة الغالبة في الحياة في بعض البلاد الشرقية . وهو مستوى من الفقر الذي لا يستطيع أحد ان يعتقد بوجوده حتى يرى كتاره بعينه . لا في أيام الأزمات فقط ، بل على أنه الأساس الثابت للحياة . وهذا يصدق على المدن وعلى القرى سواء بسواء . وبصح هذا الفقر انخفاض كبير في الأسعار . وهذا صحيح . ولكنه لا يناول جميع الحاجات ، بينما نجد الخضراوات والفاكهة رخيصة لا يكون الخبز غير رخيص . وكذلك اللحم . أما أجور العمال والصناع فمدنية بصورة مخيفة . ثم اننا لا نجد تشغيل الأحداث شائعا فقط ، وبأجور ضئيلة ، بل ان الأجور التي ينالها البالغون أنفسهم أيضا لا تكاد تسد الحاجات الأساسية للأسرة . وهالك بلا ريب أشخاص من ذوي اليسار في الشرق ، ولكن الشرق بلد فقير . اذا نظرنا في أساس

موضوعنا ، لأن ثرواته الطبيعية قليلة ، وإذا نحن استثنينا التروول ، فإن الطلب على هذه الثروات في الخارج ليس كبيرا . ثم ان النظام الذي يقوم عليه التملك والانحاح — وهو من بقايا العصور القديمة — يجعل الحاصلات الطبيعية أقل كثيرا مما لو كانت وسائل الاستغلال تقوم على أسس صحيحة . أما نشاط السكان ، فلا يمكن أن يقوم مقام التمرين المفقود ، ولا أن يتلافى النقص الكائن في وسائل الانتاج .

ان أحوال لاتاج في الشرق الأوسط اليوم تشبه تماما ما كان عليه النظام الاقتصادي في أوروبا العصور الوسطى : هناك عدد كبير من المؤسسات الصناعية الصغيرة التي هي من الناحية العملية بلا رأس مال . وهذه يديرها كلها أحيانا أفراد أسرة واحدة ، هم أصحابها وهم رؤساء الانتاج فيها ، وهم الباعة بالمرق لمنوحاتها ، والمستهلك في هذه الأحوال متصل اتصالا مباشرا بمنتج المصوغات . ثم ان الصاعاب محشورة في مناطق معينة ، أو في شوارع بعضها ، ووسائل الدعاية قليلة ، أو مفقودة . وكذلك ليس ثمة انتاج موحد ، بينما مدد العمل طويلة ، وهي تعتمد على ضوء النهار في الأكثر . ولا يكاد المرء يتبين حدا فصلا بين المستخدم (كسر الدال) وبين المستخدم (بفتح الدال) . كل هذه الخصائص تصدق اليوم على كثير من بلاد الشرق . كما كانت تصدق على العالم الأوربي في العصور الوسطى .

على أن الموارنة الحقيقية لا تكون بالاضافة الى العصور الوسطى . بمدر ما هي بالاضافة الى طلائع ما نسميه الثورة الصناعية ، أو بالاضافة الى صدر عصر الآلة . ذلك أن النقابات القديمة في العصور الوسطى حالت بين صاحب العمل وبين استغلال العامل بزيادة ساعات عمله ، أو بين وبين استغلال المستهلك من طريق البضائع المعشوشة والأسعار الباهظة . وقامت تلك النقابات في الماضي مقام اتحادات التجارة والصناعة في يومنا هذا ، واحتلت مكان التشريع الاجتماعي . ولكن قبيل انتهاء القرن الثامن عشر بادت تلك النقابات ، أو انحلت على كل حال ، ثم أخذت أنظمتها

ترك مكانها لنظريه المنافسة الحرة ، قبل أن توضع قوانين تأخذ مكان هذه الأنظمة كلها . ويجب أن نذكر أن إنجلترا ترددت كثيرا قبل أن تشرع قوانين تحمي الأطفال من مساوئ المنافسة المطلقة . هذا هو الطور الذي وصل اليه الشرق الأوسط اليوم ، والذي يقف فيه العامل أعزل في وجه المنافسة ، وفي وجه التقدم الصناعي . ففي بعض البلاد الشرقية ليس ثمة قانون يصرح حدا لساعات العمل للبالغين ، ولا قانون لتعويض يحمي العمال من أخطار العمل . مهما كان العامل يقطا حذرا . وكذلك ليس ثمة تأمين يساعد العمال أثناء مرضهم أو بطلتهم ، ولا أنظمة تضمن للعمال أحوالا صحيحة مواتية في مؤسسات العمل . ثم ان المحاولات الضعيفة لحماية الأطفال والنساء في بعض البلاد الشرقية تذكرنا بالقوانين الأوروبية الأولى التي وضعت لمصلحة العمال المبشرين ، بما فيها من تكوص عن التطبيق ، لقلة الرقابة . ولقد نجد هذا وهماك صناعة سعيدة ، أو تجارة تخدم بضع لنفسها أصولا بدائية فطرية لاتحادات تجارية أو صناعة . أما الاضرابات فلست محمولة كل الجمل في الشرق . غير أن كره الفرنسيين ^(١) للجمعيات مثل فرعنا نحن قديما من الكليات — جعل هذه الجهود في سبيل حماية العمال وتحسين أحوالهم مضنية وبطيئة جدا . ثم ان العمال أنفسهم لا يراون متأخرين اقتصاديا الى حد يمنعهم من أن يروا موضع الحاجة الى عمل موحد ، وخصوصا في سبيل حماية مصالحهم المتبادلة . والعمال واصلوا الى ذلك بلا ريب . ولكن لا يزال ثمة أرقال ^(٢) كثير أمام العمال الشرقيين . وأمام قادتهم أيضا . غير أننا يجب ألا ننسى لجانب الآخر من الصورة أبدا . أعني المعونة التي يحققها تضامن الأسره وقوة التقاليد ، مثل عاطفة الضيافة التي تمنع طرد المستأجر اذا لم يدفع ايجار مسكنه . ولكن بما أن الممارسة بين الشرق الأوسط الحديث وبين العصور الوسطى لأوربيه لا تصدق من كل نواحيها . فانها لا تصدق بين

(١) كتب هذا المقال قبل أن جلا الفرنسيون عن سورية ولبنان .

(٢) الأرقال السير صعودا .

الشرق الأوسط اليوم وبين طلائع عصر الثورة الصناعية في كل شيء . ولقد اتفق لشرق الأوسط أن بلغ في بعض مرافق الحياة طورا متقدما ، فمحيى ، السيارة مثلا قضى على نظام المقايضة ، وعلى أسباب الحياة المنيعة على النقل بواسطة الدواب . وكذلك لم يبق مكان القرية . ولا بإمكان المدينة الصغيرة ، أن تضع حداً لأوى الزارع أو لشاطه ، مع أنه لا يزال ثمة أماكن قليلة لا تربطها بالمدينة سيارات كبيرة أو سارات صغيرة على الأقل . وهكذا أصبحت نجد أنفسنا في الشرق الأوسط أمام ثورة أخذنا نشعر بطلائع آثارها .

لنأخذ مثلاً على ذلك مدينة حماه . وهي مدينة صغيرة في شمال سورية . كانت حماة قبل الحرب العالمية الثالثة تعيش - - هي والقرى المحيطة بها - عيشة اقتصادية من نوع ما . فبس والحديد كانت حماة تسوردهما من الخارج . ولكنها كانت تصنع شيئاً من نسيج القطن . تبعه في البادية المباحية لها . أما فيما عدا ذلك فكل أسره كانت تسب طعامها . وتنسج ثيابها من صوف خرافها . وتحب أدواتها لصها من الخشب في الأكثر . ولا تشرى من غيرها إلا بمقدار ما سح لغيرها ، وكل ذلك قليل جداً . أما معاملاتها المالية الضئيلة على كل حال . فاقصر على منطقة حماة . ولكننا نجد اليوم فيها المصوغات اليابانية من القطن . ومن الحرير الصناعي . ونجد الأغذية المحفوظة في العلب ترد إليها من الولايات المتحدة ثم نجد الأواني الصينية المستوردة من تشكوسلوفاكيا ، وسواها من البصائع الموحدة الصنع . أما الذي لا نجده في حماة ، فأننا واجدوه في حلب . وأما الصناع المحليون ، فأنهم لا يكادون يجدون منقداً لبضائعهم ، بينما ترى الناس من كل صوب يطلبون المريد من المال . فيفقدون إلى المدن ليحصلوا عنه . ويتضح من هذه العنارات أن الصناعة والتجارة في حماة مقضى عليها بالبوار ، بسبب ذلك التطور .

إن المثل الذي قدمناه يدل على وجود جذور عميقة لعوامل التطور بجانب العناصر الراكدة في الحياة الشرقية ، مما يوجد عادة في جميع

المجتمعات في جميع الأرمان ، مع العلم بأن هذه الجذور تكون عادة أعمق وأنشط في أدوار معينة دون أخرى ، وأن هذه الأدوار المعينة بلغها الشرق الأوسط بلا ريب . وهكذا تكون الصورة التي رسمناها مضللة ، لو اعتبرت بنفسها فقط ، كما أنها تكون مضللة أيضا لو جعلناها صورة للعصور الوسطى . الواقع أن عوامل التطور واضحة في الحياة الاقتصادية في الشرق الأوسط ، وهي أشد وضوحا في عالم التفكير . والشرق الأوسط الآن في حال من التخمير يمكننا أن نلخص الكلام عليها بالرجوع مرة ثانية الى الاستشهاد بالاستاذ جب حيث ، يقول : « فاذا نحن قبلنا أن المجتمع الانساني لا يزال على تكوينه الذي كان له في العصور الوسطى . فاما نرى أن تسرب الآراء اليه أثار في العالم الاسلامي كنه حالا من القلق والتوتر النفسي تسترعى انتباهنا بلا ارادة منا ، وتذكرنا بالضرورة التي مرت فيها أوروبا في عصر النهضة وعصر الإصلاح الديني ^(١) . غير أن التوسع في هذه الناحية الحديدية للقضية يحملنا الى خارج النطاق المحدود لهذا الفصل . ولكن شير هنا فقط الى أن ما ذكرناه آنفا اما هو مثال آخر للموارنة بين الشرق والغرب . وأنه انذار للباحثين يجب أن يحول بسهم وبين أن يتخسروا الحضارات متحاززة ، تصف كل واحدة منها بصفات تخصها وحدها . بدلا من أن نعترف لهذه الحضارات ذو حة شبه مقاربة جدا في تطور كل واحدة منها .

والأوجاع المرادده في بلاد الشرق الأوسط نجعلنا نذكر أوجاع أوروبا الغربية في عصور ماضية ، حتى أن المؤرخ ليستطيع أن يبين الدلائل عظيمة الأهمية على الطريق الذي سلكته الحوادث في أثناء الأدوار العظمى للتطور في الغرب . وها نحن أولاء نستطيع أن نرى كم كانت أدوار التطور المختلفة تتجاوز أو تتراكب . فالكتب المدرسية تخبرنا وثقة أن الآلة التي تدور بالماء أخذت مكان التول الذي كان يدار باليد ، وأن قوة لخار حلت بدورها محل الماء ، كما أن العربيه انهزمت أمام القاطرة ، وأن المركب الشراعي انهزم أمام الماخرة . ويخيل للقارىء كأن الكتب المدرسية

(١) انظر جب : الى أين يتطور الاسلام (Whither Islam) ، ص ٢٠ .

تعى ان حلول بعض هذه الوسائل مكان بعضها الآخر هم بين عام وعام .
على أن القدر والتدقيق في البحث الحديث . فما يتعين بحلول بعض هذه
الوسائل مكان بعض حلولها تماما ، تؤيده الحال الراهنة في الشرق الأوسط ،
اذ يرينا الى أى حد يمكن أن يكون استبدال وسبه مكان أخرى بطيئا ،
كما يدلنا على كثرة الذين يظنون أوفياء لطرق الحياة القديمة ، وكيف
أن أكثر الأدوات بداءة وفطرية يمكن أن تعيش جدا الى جب مع آخر
ما وصل اليه الآلات الحديثة من التحسين . فالجمال والسيارات يمكن
أن تشاهد في شوارع بيروت . والطائرات تحلق فوق السفن الشراعية
التي لا تزال على أشكالها وأحجامها الى كات عسى في العصور الوسطى .
والتي تعمل بين مدد الشاطئ أعظم الوسقات الثقال التي لا يخشى عليها التلف .
وكذلك الكهرباء تير اليوم في الشرق الأوسط دكاكين تدار فيها أنوال
النسيج باليد . بسما المعامل الموسطه الحجم تافس هذه الدكاكين ،
فخلق طبقة من الكدحين في المدن ذات طابع غربى واضح . ونحن نرى
أيضا في الحقول آلات الحرث الحديثة ، بجانب الأدوات الخشبية التي
ورثناها من عهد عاد . واذا كنا نحن سنغرب هذه المسافات في الشرق
الأوسط اليوم ، فيجب أن نذكر أنه في عام ١٨٣٣ لم يكن في إنجلترا
آلات نسيج يدار بعضها بالماء وبعضها الآخر بالكهرباء . بل كان فيها
ألف من الأنوال تدار باليد . وعندها عمال لا يكسب أحدهم في الساعة
الابنسا واحدا . ويجب أن نذكر أيضا أن معامل باريس التي كانت في عام
١٨٤٠ يستخدم كل واحد منها مائة عامل كانت قليلة جدا . ثم ان نصف
معامل باريس في عام ١٨٧٠ كانت مؤسسات يملك كل واحد منها شخص
واحد . وكذلك بينما تطورت وسائل النقل في العالم . كانت العربات التي
تجرها الخيول لا تزال الزى الشائع في سويسرة ، وظلت هذه هي القاعدة
المنبعة حتى نحو عشرين سنة خلت . وحتى عام ١٩٠٣ ظلت فرنسا
تبني سفنا شراعية من الحديد . فضلا عن هذا كله فان أكثرنا لم يتفق
له أن سافر في الطائرة بعد .

وهناك ناحية ثانية يمكن أن نستفيد منها من تاريخ الشرق الأوسط .
وهي أن ثمة عددا من الأدوار في حياة الأمم يمكن تغطيتها كلها . فالانتقال
في السكك الحديدية دام في أوروبا مدة تبلغ قرنا كاملا أو تزيد ، بينما هو
لم يدم في الشرق الأوسط الا حرا يسيرا من هذه المدة . فبعد أن قضى
الشرق الأوسط سنوات عديدة يستعمل لنقله وانتقاله سككا حديدية
غير وافيه بالحاجة ^(١) . اذا به الآن لا يبنى سكك حديدية . بل طرقا واسعة
للسارات . بينما السكك الحديدية أصبحت قصيرة على قطع المسافات
الطويلة جدا . وعلى نقل البضائع الثقيلة . ومنذ نحو خمس وعشرين سنة
أو نحوها لم يكن يقطع الصحراء الا قوافل الجمال . ثم جاءت السيارات
والطائرات وهي الآن تنافس الجمل في صحرائه . وهنا يمكننا أن نقول
أن لرواد فقط هم الذين يمرون في جميع أدوار النهضة المختلفة ،
وبرتكون جميع الأخطاء . وأما الذين يأتون بعدهم . فانهم يستطيعون
أحيانا أن يتجنبوا عددا من هذه الأخطاء . فألمانيا مثلا تأخرت عن انجلترا
في دخول ميدان الصناعة . ولكنها تجنبنا كثيرا من المخازي التي رافقت
توسع المدن في انجلترا . ولم يتبع بناء البيوت العمالية في ألمانيا قاعدة البيوت
المروزة ^(٢) التي هي سبب المدن الشمالية في انجلترا . ثم ان فرنسا وألمانيا
قدمتا على انجلترا في ميدان التعليم الابتدائي . بفضل ما تجنبنا من
الشروط التي شأ عادة اذا مثل الجمهور العالب غير متعلم .

غير ان المطابقة بين التطور في الشرق الأوسط وبين شبيهه في العرب
لا يمكن أن تستمر بلا نهاية . لأن لكل منهما أدواره وقصاياه . على أن
فضه المياه ستؤثر باهمام الشرق أكثر مما ستؤثر به قضية السكنى
والدفنة . ومع أن الشرقى معرض للأمراض الفتية . فانه أشد تعرضا لحمى

(١) بيروت اكبر مراقي بلاد الشام . وهي تتصل بخط حديدي ضيق
يلعب طوله ثمانين ميلا ، ويقطعه القطار في مدة بين ثمان ساعات وعشر
ساعات . اما السيارات فتحتاج الى ثلث هذا الوقت ، لتقطع هذه المسافة
نفسها ، واهل بيروت يفضلون الانتقال بالسيارات .

(٢) البيوت المزروزة هي التي تبنى لصيقة بعضها الى بعض ، دون
فصاء يفصل بينهما .

الربع وللزحار (١) خاصة ، وهما المرصان اللذان يفصل المؤرخ الأوربي حسابهما في عوامل التاريخ في الشرق الأوسط . ثم إن الصحراء ، وماتعبه من تمييز جامد ثابت بين الأرض القابلة للسكنى والأرض التي لا تقبل السكنى ، هي التي تجعل العقل الشرقي أكثر استعدادا لقول الأمر المحتوم ، وللانحناء أمام الضرورات ، ثم تجعله من أجل ذلك أقل ثقة بالعمل الفردي ، وبقدرة الإنسان على تبديل البيئه الانسابيه . ولعل ذلك هو الفرق البارز بين الشرق والغرب .

كل هذه دروس هامة ، ولكن الدرس الأخير أهمها بلا ريب . وأنا أرجو ألا أكون بهذه الدروس صرت على فهم لأدوار تاريخ الغرب والشرق فقط ، ولكنني تعلمت على ما أظن معنى جديدا للزمان في التاريخ . ومع أن تدريسي للتاريخ لم يكن يناول ما قبل عهد الإصلاح الديني . أو الفصح النورماني لانجلترا على أبعد تقدير . كان لي اتصال مستمر ببقايا الحضارة القديمة التي يبدو التاريخ الأوربي أمامها طفلا صغيرا . وهذا هو الذي يجعل الإنسان حذرا أبدا من أن يكون قصير النظر في التاريخ . كب مرة في نينوى ، فشهدت الكشف عن هكل عظمى مدفون في التراب بلا تابوت ، وكان تاريخ دفنه يعود الى نحو أربعة آلاف عام . ثم أن ضربة معول واحدة حملتني الى ما قبل ثلاثة آلاف عام من الفصح النورماني المشهور في أصول التاريخ الانجليزي . وبذا تكشف لي ناحية من مسير الزمن تركت في خيالي أثرا لا يمحي . وعلى الطرف الآخر من الزمن يروى صديق لي طبيب ، فيخبرني بأن الإنسان لم ينح له بعد أن يعود بهائنا أن يمشي مستقيما على رجلين اثنين . وهكذا نجد أن عظام قدمه وعموده الفقري ، وهي التي جعلت في الأصل لتحمل جسما يعتمد على أربع دعائم . لم تكتسب بعد القوة الكافية لتقيم جسدا منتصب القامة . من أجل ذلك لا يزال عند معظمنا شيء من الانحراف أو الضعف في العنق . أو في القدمين . أو في كعوب القدمين . وهكذا إذا بدت الإنسانية في يوم ما شائخة جدا . ثم بدت في يوم آخر فية جدا . فانا نرحو ألا ينظر في المستقبل .

(١) حمى الربع هي الملاريا ، والزحار هو الديسنتاريا .

أخطأنا الا على أنها من طيش الشباب ، ونحن في كل من الحالين على يقين
بأننا لسنا الشعب المسئول عن ذلك . وبأن الحكمة لن تموت على أيدينا .
وأخيرا يمكننا أن أجمل هذه الملحوظات المبرقة . فأقول اننى رجل
أوربى غربى حديث . تعلمت درسا مزدوجا وجهه الأول هو النظر الى
التاريخ من زاوية جديدة . وأما وجهه الآخر فهو التواضع . انه لمن الحق
أن يسكر أحدها وجود فوارق بين مسديات الشرق والغرب في وقتنا
الحاضر . ولكن يبدو أن التاريخ والاختصار الانساني يعلماننا أن هذه
الفوارق ليست أساسية . ولا هي ثبة مثل الخصائص الموروثة التي
لا يمكن احداثها من أصولها . وسواء أكانت هذه الفوارق طبيعية
أو فكرية أو روحية ، فهي فوارق تشمل في أساسها مراحل مختلفات
ودرجات متفاوتة في سرعة تقدمنا . على أن هالك مواضع تناقض
واخلاف في عالمنا المسكين . ونحن لا نحتاج الى أن نخشى هذه اخلافا ،
ولا أن نؤكد جانبها حيث يكون طبقه أو عارضه . ان الشرق سبقى
شرفا . وان العرب سظل عربا . مع أن هذه الفكرة لا تزال تسطر من
يدوم في الأعصر المقلد لبقم الدليل عليها . ولكن من المؤكد انهما يقربان
شئنا قريبا . وأن من المحوم أن يستمر اقترانهما يوما بعد يوم . ليلتقيا
في ما يمكن أن يكون . وما نرجوه نحن أن يكون ، عالما من التعاون
السعيد المثمر . لا سيد فيه ولا مسود . ولكن شركاء ، سوياء يتمتعون
بثروات ماصهم وحاصرهم . وبشتركون في ما يقدمون للحضارة
المقيلة .

عمر فروخ

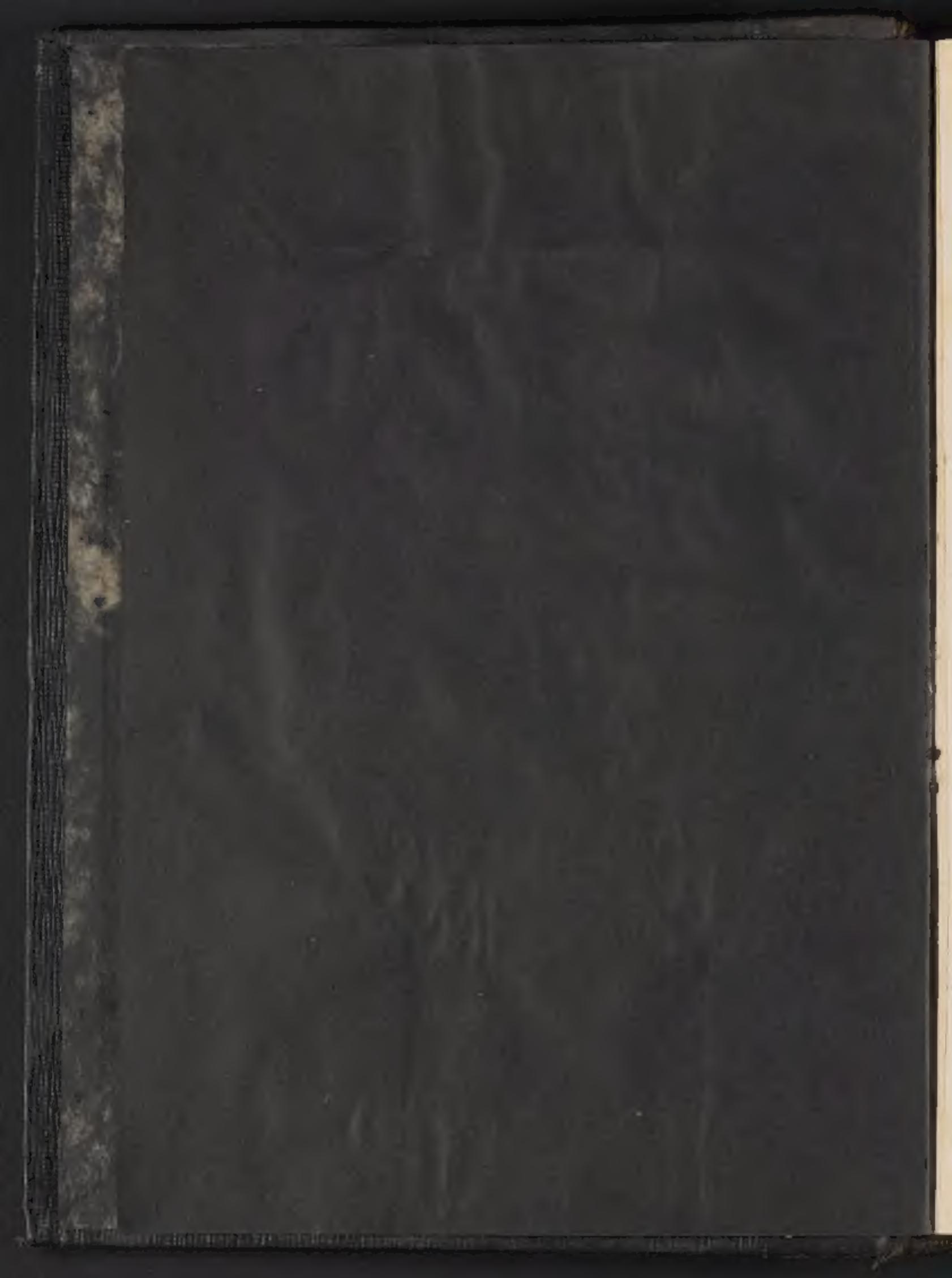
125127
612701

قائمة ببعض المؤلفات الأمريكية الخاصة
بالشرق الأوسط

SELECT BIBLIOGRAPHY
of
GENERAL BOOKS ON THE MIDDLE EAST
by
AMERICAN WRITERS

1. H R.P. Dickson : *The Arab of the Desert*. New York, 1949
2. Carleton S Coon *Caravan the Story of the Middle East*. New York, 1951.
3. Richard N Frye (ed.), *The Near East and the Great Powers*. Cambridge, Mass., 1951
4. Philip K Hitti *History of the Arabs* Fifth edition, New York, 1951
5. Halford L. Hoskins *British Routes to India* New York, 1928
6. Philip W Ireland (ed) *The Near East Problems and Prospects*. Chicago, 1942. 266 p
7. George Lenczowski *The Middle East in World Affairs* New York, 1952
8. Roderic Mathews and Matta Akrawi *Education in Arab Countries of the Near East*. Washington, 1949.
9. E. A. Speiser : *The United States and the Near East*. Second edition, Cambridge, Mass , 1950
10. T Clayler Young (ed) *Near Eastern Culture and Society* Princeton, 1951

مطبعة مصر ٢٢٧٧/٥٢/٢٠٠٠



DATE DUE

DS

44

S55x

1953

c.1

الشرق الأوسط في مؤلفات
الأمريكيين

Guman H. actually 4/26/1953	

DS

44

S55x

1953

c.1



